أرض الدم

رواية من مأساتين، ثمّ لا أكترث إن قلتُ من فصلين !

لـــ   تـــامر محـــمد عيد السمـــير

الطبعة الأولى يناير ٢٠٢٠

الكتاب : أرض الدم

المؤلف : تـــامر محـــمد عيد السمـــير

تدقيق لغوي : فارس سعيد

تصميم الغلاف : محمد درابلة

رقم ايداع: 2019 / 27925

ترقيم دولي: 978-977-85633-7-5

دار مسار للنشر و التوزيع

01020439639

massar.pub1@gmail.com

ش - حسن خطاب - قسم يوسف بيك
- الزقازيق - الشرقية

تـامر محـمد عيد السمـير

أرض الدم

مسار
للنشر و التوزيع
Massar publishing & Distribution

جميع شخصيات هذه الرواية لعبت أدوارها في مخيلةِ الكاتب فقط

أرض الدم -الخراب الأخير -

المقدمة :

- شخصٌ ما يموتُ في مكانٍ ما، في بقعةٍ صغيرةٍ تتسع لقبرهِ فقط، الجرح يوجع صاحبه فقط، ثم يتفشَّ الألم ليغزوا كامل الجسدِ، السنة السادسةُ، مضى على هذهِ الحرب زمنٌ طويلٌ حتى نقتنع بأننا كنا نعيش قبلَ كل هذا الدمارِ ونحن من نعيش من بعدهِ .
خمسُ سنواتٍ كانت كفيلةً بتحويلنا إلى بؤساء وقتلة ومفقودين ومظلومين ونازحين ومسافرين عبر الأرضِ باحثين عن النجاة فراراً من الموتِ المحتم. .
- شخصٌ ما يودُ أن يقول شيئاً قبل الموت، في مكانٍ ما في بقعةٍ تتسع لقبرهِ فقط يقول: الجرح يوجع صاحبهُ فقط، ثم لا يسمعُ صوتهُ أحد !

-الألم هو الذي يشعركَ بوجودِ الألم وليس الكلامُ عنه!

الإهداء :

- إلى العالم بأسره، كم أتمنى أن ينتقل الألمُ عبر اللغات . .

توضيح :

أنا كاتب مسالم لا أريدُ قتل أحد ولا أتمنى الموت لأحد، ولكن بدواعٍ إنسانية يجب أن يشعر الجميع بالجميع، ذلكَ شؤون النسل الواحد. !

هي الولادة الأولى. .
وغيمة صيفٍ ماطرة
هي قصة حبّ مشددة القوافي
وما بقي لنا من أسماء
هي حديث الملائكة حول المكوث ساعةً
تحت دالية الياسمين
والقليل الذي لا يزال ولا يزول
وهي:
تنهيدة الحياة ووجع القصيدةِ. . .

تامر محمد عيد السمير

إنّه خريف الخامس والعشرين من تشرين الأول، الشتاء لم يطرق الأبواب بعد لكن ملامحهُ تبدو متسمةً بشكلٍ جليٍّ على مساء هذا اليوم، الجوُّ باردٌ بعض الشيء!

يستقل حافلةً للعودة إلى المنزل بعد يومٍ متعبٍ من العمل شعوره بالبرد في يومٍ خريفٍ عادي لم يأتِ كما أشار له حدسه، يعيش في حيٍّ في آخر المدينة لا يمدُّ صلةً للريف ولا للمدينة أيضاً فهو ناءٍ عن الاثنتين وهذا ما يجعل الوصول إلى الحيِّ في نهاية اليوم أمراً تعيساً لكثرة العاملين في المدينة الذين يتأخرون في أعمالهم ولقلة الحافلات، في مثل هذه المأساة عليه الاندفاع إلى الحافلة و أخذ مكان حتّى ولو كان مزعجاً جداً أو حتى على الأرض، كانت الحافلة الأخيرة فلم يتسنَ له سوى نصف مكان يتسع لقدمٍ واحدةٍ، ما يعادل نصف جسده في الحافلة والنصف الثاني بما فيه رأسه في خارج الحافلة طلقاً كي يشعر ببرد تشرين!

-وقت الغروب، يبدو المساء شاحباً يميل في استدارة الأفق الأخير إلى اللون الأحمر القاني، منظرٌ جميلٌ، دائما ما أشعر بالغروب كسولاً جداً في حراسته، سرعان ما يندم لتطوعه في هذه الفترة من النهار وسرعان ما يذهب إلى اللّيل كي يستريح .

-منذ متى زرع الزيتون على أطراف الشارع، وقد كبر أيضاً،¬
الحيّ يبدو مرتفعاً من هذا المكان، تبدو البيوت عشوائية مكومة فوق بعضها البعض كأنّ طفلاً كان يلعب بحجارة ميكانو وظهر معه هذا الشكل الغريب، أقيم في هذا الحيّ منذ ولادتي و أركب الحافلة قاصداً المدينة منذ أصبحت صبياً، هذه المرة الوحيدة التي أتعرف فيها على هذه الأشياء.

-ربما لاجتماع بعض المناسبات العاطفية في هذا اليوم، اليوم هو الخامس والعشرون من تشرين، يوم ولادتي و أيضاً لطردي من العمل و إحساسي بالكآبة ووقوفي في الحافلة ومشاهدتي لجنبات الطريق كطفلٍ صغيرٍ يخرج رأسه من النافذة دون وعيٍّ أنّ أمراً ما قد يحدث له، الحافلة تسير بسرعة عالية، لا يحق لي الحديث مع نفسي بهذه الأناقة من الكلام وأنا بنصف جسدٍ مخبئ داخل الحافلة ونصفٍ آخر خارجها مطلقاً في الهواء أو مطلقاً حيث لاشيء يستحق العناء من أجله، غالباً ما يكون مزاج سائقي الحافلات ليس جيداً فهم يقودون بسرعة جنونية ثم يضغطون على دواسة المكابح، ربما يريد تعليمك شيئاً عن تدريبات المداهمة التي تشاهدها في الأفلام يا أحمد، أو إن لم تقع وتتعلم تدرك معنى حياتك !

تصل الحافلة، تتوقفُ عند أول الحيّ، لا تستطيع الدخول أكثر لأن الشوارع تصبح أضيق وتبتعد كثيراً عن بيوت بعض الرّكاب

الذين يقطنون في أطراف الحيّ.
يستعيد أحمد نصفه الثاني من الحافلة ويأخذ حقيبته، بيته ليس بعيداً عن هذا المكان، إنّه في الشارع الثاني من الشوارع الضيقة الخمسة التي لا تتسع سوى لسيارةٍ صغيرةٍ وحدها، وأثناء سيره يلاحظ لافتةً عليها كلامٌ طالما اعتاد قراءته حتّى أصبح أمراً عادياً له فهو يسكن في أول الحيّ ودائماً يشاهدها مركونة على الجانب الأيمن للشارع المؤدي إلى المدينة كلما ذهب وأتى
-لم أفكر أبداً في التفكير بما كتب فيها إلا هذا اليوم: أهلاً بكم في حيّ تشرين الأول . . ابتسم ابتسامةً صفراء في ارتخاء ملامحه، ليس فيها ما يبعث على البهجة والسرور لاستقبال أحدهم له كما كان مذكوراً في اللافتة، يتابع السير. .
-هناك أشياء غريبة تحدث هذا اليوم !
ينتقل إلى الرصيف كي يعطي الأمان لنفسه وكي يكمل ما قد حدّث نفسه به سابقاً دون أن يرتبط تفكيره بخطر إحدى السيارات التي تمر مسرعةً ولا تأبه لأحدهم
كان الرصيف محفراً على طوله، المشاة لم ينتعلوا أحذيةً من مطارق، لكن الزمان الذي مضى يستطيع الرصيف تقديره للمارة كي يسامحوه في كلّ مرّة يتعثر أحدهم بحفرة خلاله، بدأ الظلام يخيم، يخرج أحمد من عمق أفكاره ليسترجع ما أوصته به أمه من أغراضٍ، كان أبو ممدوح سبباً في ذلك ، رجلٌ يملك بقاليةً

في أول الحيّ ملتحٍ وذو وجهٍ يوحي بالطمأنينة، بشوش الملامح وجميع قاطنو هذاً الحيّ يأتون ليشتروا منه لوازمهم ، ليس لأنه يملك الأفضل ويربح القليل منهم بل لأنه يتحمل الكثير منهم في تأخر سداد الدّين.

كان أبو ممدوح واقفاً أمام البقاليّة ويلقي تحية الوداع على أحد الزبائن الذي أخذ أغراضه ورحل بسيارته، ثم يضع يده خلف ظهره بتشابكٍ حكيمٍ، يصل إليه أحمد ويبادر بابتسامة

-السلام عليكم

-وعليكم السلام

-أَحضرت لي الأغراض؟

-وهل أستطيع أن أنسى!

-حفظك الله

يعطيه الأغراض بُعيد أن يجيب أحمد بابتسامةٍ تعلو ملامحه المتعبة ثم يكمل

-متى نستطيع الحصول على الأمان؟!

-وهل هناك موعد محدد على الأمان يا بني؟

-نعم، عندما يصبح ممدوح في الجيش!

يضحك أبو ممدوح بصوت عالٍ يميل إلى القهقهة مع ظهور تجاعيدٍ تحت عينيه تعطي لوجهه كماً كبيراً من الصدق.

يأخذ أحمد من يده حاجاته التي أعدها له أبو ممدوح في وقت

سابق مع متابعة بسيطة للضحكة التي أطلقها أبو ممدوح،
-أضفهم إلى حسابنا في السابق
-كما تريد
يذهب أبو ممدوح إلى خلف الطاولة الخشبية المركونة في آخر البقاليّة ويخرج من الدرج الخشبيّ دفتراً يسجل فيه دينه على النّاس ثم يكمل :
-ننتظرك غداً، زوجتي ستعد عشاءً قبل رحيل ممدوح إلى الجيش وأوصتني أن أدعو أصدقاءه
-سأكون هناك بعد المساء
يومي أحمد بيدٍ لأبي ممدوح قبل خروجه ويحمل باليد الأخرى حاجاته فيرفع أبو ممدوح حاجبيه
-في أمان الله بني. .
الدّين ليس أمراً صعباً إذا كان العمل كفيلاً بسداده حتّى في أوان لاحق، تعمد أحمد نسيان حاجته في شراء علبة سجائر، لا يرغب في زيادة الديون في وقتٍ طرد فيه من العمل، يقع بيته في نهاية الشارع الثاني الذي أصبح قريباً منه، عليه فقط أن يتخذ الاتجاه الأيسر بعد عشرة أمتار.
في كلِّ يومٍ عندما يعود إلى البيت، يتخذ من المسافة التي عليه قطعها منذ دخوله الشارع حتى وصوله البيت فرصة ليدرب وجهه على الابتسام حين تلقيه أُمه المقعدة، كما يحاول ترتيب طبقاته

الصوتية، الطبقة التي تبعث على الأمل أولاً ثم التي تبعث على الحب ثم التي تبعث على التعب، كأنّ يقول لنفسه مساء الخير، كيف حالك أمي، كان عملا مجهداً اليوم!

تفشل المحاولة الأولى، هناك نشاذٌ في الطبقة التي تبعث على الأمل، صوتٌ يميل إلى حدود اليأس، يحاول ثانيةً بصوتٍ خافتٍ وخطاً هادئة، كان يتحسب عودته إلى البيت بهذه الفترة وهو ليس على ما يرام.

لا يحب أن تشاركه أمه في بؤسه، طالما كان أنانياً في ذلك !

يمر من جانب بيتٍ يشبه الخرابة، بيتٌ قديمٌ لا يصلح للسكن المؤقت ولا للترميم حتى، تسكنه إمرة خمسينيةٌ تدعى فريدة الأسطواني مع زوجها سعيد، تغلبه بذكائها ودهاء حِيلها، تعمل فريدة في تنظيف البيوت عن طريق مكتبٍ للخدم، تتعامل منذ زمنٍ مع ذلك المكتب وتكسب زبائنها عن طريقه حتّى نشأت صداقةٌ كبيرةٌ بينها وبين صاحبة المكتب أم تحسين، إمرة انتهازيةٌ، مستغلّةٌ للخادمات ومُذلّةٌ لهن، لا تعطيهنّ الأجر كما يجب ولا تخشَ تركهنّ للعمل، فلا يعمل في هكذا عمل سوى من هو بحاجةٍ ملحةٍ للمال.

كان مكتب الخدم غايةً بعيدةً لفريدة وأم تحسين، كغطاءٍ على عملٍ ذكيٍ تقومان به باستمرار دون أن يتّضح لإحدى الخادمات اللواتي يعملن لصالحهنّ أنهنّ قد خسرن شيئاً بسبب هاتين

العبقريتين وفي الحقيقة أن كلّ ما يحدث في هذا المكتب يندرج تحت الكذب والتلفيق عدا الذي تعرفه أم تحسين وفريدة، سعيدٌ يمتلك دكانًا للخردة في أوّل الحارة كما أنّه يمد الذعران واللصوص بكلِّ احتياجاتهم وفي المرتبة الأولى -الحشيش- لكنه يعد تاجراً صغيراً على مستوى المدينة وتجّار المخدّرات الذين يعرفهم ويتعامل مع أياديهم اليمنى.

تفشل المحاولة الثانية، يتنهّد أحمد في تصعيدٍ، ثم يرمي بيديه إلى الأمام كتعبير عن وصوله إلى اليأس

-ربما أمي ستعلم حقيقة الأمر اليوم، لابدّ من وجود طريقة ما لأخبرها أني بخير، لا أريد أن أزيد عليها همّها لا سيما و أنّ طبيبها قال لي أنّها تحتاج إلى الراحة النفسية و العصبية كي تستطيع الابتداء في المعالجة الفيزيائية و تتماثل للشفاء

تلتوي قدمه على أثر حفرة في وسط الطريق، كان الظلام مخيّماً وانقطاع الكهرباء ساهم في حدوث ذلك، تماسك فيما رمى بيده إلى جانبيه كي يتوازن و يقي نفسه عثرة السقوط ولكنّه لم ينجح في ذلك، يقف في ما كان يشعر برغبةٍ كبيرةٍ في إبقاء رأسه ملقىً على الأرض أو إن لم يحدث ذلك كان يريد أن يميل برأسه إلى كتف عروبة ثم كان يرغب في دخول نوبةٍ من البكاء كي يرتاح رجلٌ صامدٌ. . !

في لحظةٍ ما، عندما يكون المرء عدوّ نفسه يستطيع الوقوف،

النفس ضعيفة لكنها تتحمل المزيد، حتى يُقدّر الله لها التعب .
بخطا ثابتة ينوي أن يكرر المحاولة الثالثة، يمشي بجوار بيت صفوان شابٌ سيء وله حياةٌ قديمةٌ طالما كانت مرتبطةً بالرذيلة والكذب، كان يجلس في بهو بيته مع صديقٍ له يدعى هيثم يعمل مستخدماً في بنكٍ لصرف الأموال، وصفوان كان يتاجر مع سعيد في الحشيش كما أنّ سعيد لا يتردد في أخذ الخردة المسروقة التي كان يأتي بها صفوان.
وفي الآونة الأخيرة بدأ صفوان بجلب قطع منزلية نظيفة، تبدو مسروقةً كلون الشمس، راود سعيد الشك حول تجارة صفوان لها، لكنه لم يرفض تجارتها معه أيضاً لاسيما وقد كانت بمبلغٍ زهيدٍ، بائع الخمر يبيع التبغ أيضاً !
يجلس صفوان على كرسيٍ قد صنع من الخشب وقصب الزان، يتأرجح به إلى الأمام والخلف، ثمة صوتٌ يصدر من الكرسي، صوت صريرٍ خافتٌ، وأمامهما طاولةٌ قد وضِعت عليها هواتفٌ نقالةٌ وإبريق شايٍ وكأسين وهناك آثار للتبغ على الطاولة الذي يُخلع من اللفافة ثمّ يُعاد دكّه برفقةِ الحشيش، هكذا كان يفعل صديقه هيثم.
-سنة كاملة ولم تتعلم حتى الآن كيف تقوم بإعادة دكها -يقصد اللفافة-
-لا تؤخذ الحياة بأسرها على طريقة فعلنا لأشياء صغيرةٍ، إنها

مجرد تفاصيل. .
-قلت لي إنها تفاصيل! والعملية الطويلة العريضة التي تريد أن تقوم بها أنتَ وأصحابك في البنك أليست تفاصيل، إذاً عليكم إتقان تلك التفاصيل.
-علينا جميعاً، وليس عليكم كما كنت تقول
-مازلت أفكر في الموافقة أو عدمها، ما زلت أفكر
يضع هيثم اللفافة في فمه ويشعلها مع سحب الدخان إلى رئتيه، كان يرمق صفوان بنظرةٍ جديّة، كأنه يحثه على الموافقة على هذا العرض المغري وفي تلك الظروف السيئة التي تمر بها البلاد والفوضى العارمة التي احتاجت كل أسس الصناعات والتجارات، كانت بداية الأمر سيئة للبعض وفرصة مناسبة للبعض الآخر كي يصبحوا أغنياء أو لصوصاً وأغنياء أو ربما قتلة ولصوص وأغنياء، بدا بعض التفاؤل في المحاولة الثالثة لكن النهاية لم تكن كما يجب، عليه إعادة المحاولة، سينجز جيداً إذا كرر المحاولة، فقط عليه أن يعرف ما هي أخطاؤه ثم عليه تفاديها وهذا سيقوده إلى النجاح حتمي
ما كنا نتلقاه من قِبل بعض معلمينا في مدارسنا الإعدادية من نصائح -لا تندرج في مناهج التعليم-وما أكمله معلمينا في مدارسنا الثانوية من توجيهٍ لشبابنا المبكر والطموح، من حقنا في التعليم وطرق تنظيم الوقت والدراسة والنوم والصحة إلى

حقنا في تحقيق أحلامنا ودخولنا الجامعة وأن ننتصر على مخاوفنا من الفشل، كانوا يستغلون اندفاعنا من أجلنا وكانوا يلقون على عاتقهم مهام التوجيه، أحدهم أستاذ فلسفة في مدرستي الثانوية يقول دائما: التعب في الحقيقة هو لذة الوصول إلى الهدف.

أدرك أحمد في ذلك الوقت أن ذاك الكلام لم يذهب سدىً، أستاذ الفلسفة لم يقل المعاناة هي لذة الوصول إلى الهدف، قال التعب، يقصد بهذه الكلمة شيئاً من الطموح والإنجاز، وأنا علي إدراك موقفي من هذه الجملة حتى أستطيع الوقوف ووقفت !

إنها المعاناة ولكن باقتباس بسيطٍ من أستاذي في المدرسة الثانوية: المعاناة في الحقيقة هي الوقوف مجدداً في وجه التعب !

يصغي لصوت خطا تأتي من الظلام المتكدس أمامه، ثم يُتبع بصوت تنهيدةٍ وقولِ: الحمد لله، تظهر ملامح البذلة العسكرية ورجلٍ يقوم بتغيير مكان الحقيبة من كتفٍ إلى كتف، إنّه العم أبو الوفا، تبقى له سنتان وينال التقاعد من الخدمة التطوعية في الجيش، لم يذكر أحمد أنه رأى مرةً أبو الوفا وهو يخرج إلى عمله ليلاً لذا أول من تبادر إلى ذهنه هو ممدوح، والغريب في ذلك أن ممدوح مازال مدنياً حتى هذا الأوان.

يقتشع الظلام بسبب الاقتراب . .

-مساء الخير

-مساء الخير، تخرج في وقتٍ متأخرٍ، يبدو إلى الجيش

-نعم، في وقت سابقٍ خرجت مرتين ثم أصبح الأمر عادياً يا أحمد، ألا ترى الفوضى التي تحدث في البلاد

لم يكن وجههما واضح التعبير مع أن مسافة الكلام للمتلقي كانت قريبةً ليكشف أسرار وجه القائل، الظلام قد غطى معظم الوجهين كي يرتاحا بالحديث أكثر، يطلق أبو الوفا تنهيدة ثانية بغير رضا :

-عشرون عاماً وأنا أقطن هذا الحي، لم تخطئ السعادة بيتي وقلبي يوماً وفي يومٍ وليلةٍ تتغير الناس والأرض والنور، حتى الشارع الذي كنت أقطعه لأصل إلى المكان الذي أكمل فيه خدمتي لم يعد جميلاً، الشمس تغير نورها عليَّ وعلى هذه البلاد، لا تخطئ يا بني، الصواب هو الصواب، ما دمت ترى نور الشمس حقيقياً !

مستمعٌ مصغٍ لما يقوله أبو الوفا مع أنه طوال مدةٍ مديدةٍ لم يقل كلاماً كهذا، لا تكاد الابتسامة تفارق وجهه وطوال المدة التي كبر فيها أحمد وعرف فيها أبو الوفا لم يسمعه لمرة واحدة يتحدث له عن وظيفته بالجيش ولا عن المفاجآت التي تحدث في حياته، هل هو قناع كان يضعه أبو الوفا على وجهه ليوهم وليقنع الجميع أنه أحد السعداء ؟ ولما قال لي أنا ؟ ربّما كان ينتظر أحداً في طريقه لينتهز الفرصة ويقول له هذا الكلام الذي لم يعد صدره يتسع له، أياً كان !

يضرب على كتف أحمد كتعبيرٍ عن حبه له، ثمّ يمضي،يستطرد أحمد بصوتٍ يتنازع بين الأمل والفتور فيه

-في أمان الله أيها الطيب. .
المحاولة الرابعة يجب أن تكون على قدرٍ كبيرٍ من التركيز، سأفكر بكلام أبو الوفا في وقتٍ لاحقٍ، يبتعد ليجعل المسافة بينه وبين أبو الوفا تكبر أكثر، وليستوطن الظلام مكانيهما شيئاً فشيئاً . .
لم يستطع العدول عن كلمات أبو الوفا بل ظلَّ يفكر في حيرةٍ
-الشمس تغير نورها عليَّ وعلى هذه البلاد، لا تخطئ الصواب يا بني، الصواب هو الصواب ما دمت ترى نور الشمس حقيقياً. . !-
يقاطعه صوت مقبس بابِ أحد البيوت وقد فتح للتو
-أحمد !
باستغرابٍ يجعله يصمت في سرور ينبعث عبر وجهه ثم ينتهز الفرصة في الحديث
-مساء الخير
-مساء الخير سيادة المقدم
المقدم يحيى يعمل في جهاز الأمن، يقطن مع أخيه بلال الرائد في الجيش في بيتٍ واحدٍ، بيتٌ عربيٌ كبير مفتوح البهو، له بركة في منتصفه تتوزع حولها الأزهار بشتى أنواعها وتتنوع في جمالها الأخّاذ ورائحتها الفاتنة كما أنَ الواقف في باب البيت يمكنه رؤية الياسمينة التي تتدلى من الطابق الثاني حتى تلامس الأرض في الزاوية المقابلة للباب بخط نظرٍ واحد، والليمونة الكبيرة بجانبها، يتدفق في عروق هذا المنزل دم الحيّاة الدمشقيّة القديمة ، المقدم

يحيى يُكِنُ احتراما كبيراً لأحمد و يعتبره أحد أصدقائه، جلسا عدة مرات بدون موعد ، بل الصدفة حضَّرت لهما موعداً في بقالية أبو ممدوح ، هناك أفكارٌ مشتركة تجمع الاثنين معاً رغم فارق العمر الكبير بينهما، أحمد أيضاً يؤمن بأن المقدم يحيى رجلٌ صالحٌ، يقوم بعمله في السلك على أكمل وجه أمّا عن الرائد بلال فليس له حديث مع أحد من الحي، طالما كانت علاقته مقتصرةً على عمله في الجيش.

-لم نعد نرغب في جيرتكم!

أنهى المقدم يحيى حديثه ثم أتبعه بابتسامة ودودة

-إذاً نحن يجب علينا أن نرحل، لم نعرفكم إلا أناساً طيبين

-لا عليك، الودّ لا يزول

يخرج بلال من الداخل وبيده هاتفه النقّال، سمع الاثنان في الخارج صوته المرتفع وهو يتحدث أثناء خروجه -نعم، في الشارع الثاني، احذر فالشارع ضيقٌ والظلام حالك -

يسمعانه، فيستطرد المقدم بالحديث محاولاً التوضيح ما يقول أخوه بصوتٍ هادئ

-يبدو أنه صاحب السيارة التي ستنقل لنا أمتعتنا إلى حيّ الضبّاط، سأفتقد لك كثيراً أيها الشجاع.

يخرج بلال بعجلةٍ من جانب أخيه المتكئ على درفة الباب دون أن يلقي التحية على أحد، الجميع يعرف طبع هذا الرجل

-وأنا أيضاً، طالما كنت قدوة

-الصديق لا يأخذ صديقه قدوة، وإذا كنت تقصد أنّك تتعلم مني وأنا أيضا ينبغي عليّك أن تعرف أني تعلمت منك الكثير من الأشياء

تبرق عينا أحمد، دائماً يحب الحديث إلى هذا الرجل الطيب، يشعر بسعادةٍ كبيرة عندما يعرف أنّ هنالك أحدٌ يحترم من أدنى منه مرتبةً ورتبةً في هذه البلاد، رجلٌ طيب!

لا يحاول الصمت كي لا يبقَ من حقّ الحديث الشيّق كلمة واحدة مع هذا الرّجل،

-آمل ذلك، ثم يتحرك ناوياً الرحيل

-أراك غداً في بيت أبو ممدوح

-بالتأكيد

لم يشعر لمرةٍ واحدة أنّ المقدم يحيى رجلٌ غزا الشيب رأسه وأنه يبلغ من العمر ضعفي عمره، المراتب لا تغير الناس ولكن الناس يغيرون أنفسهم عندما يصلون إلى المراتب العالية أو من أجلها ! لم يتسنَ للمحاولة الرابعة النجاح، لكن قد حدّثَ أحمد المقدم يحيى وهذا من شأنه أن يعطي قليلاً من الأمل في المحاولة الخامسة، يكرر، يمر بجانب بيت المهندس محمود رجلٌ في عقده الثالث يعيش وحده يعمل موظفاً في شركة الاتصالات(الهواتف الأرضية) يقطن وحده في بيته رغم إلحاح أبيه ورغم عروض أمه

الكبيرة حول سفره إليهم، إلى كندا، يعرف أبوه الكثير من أصدقاء العمل الذين يستطيعون منح محمود فرصة عمل لكنّه ليس مستعداً بعد لمثل هذه الفكرة الكبيرة كما كان يردُ على هواتف أبيه و أمه من كندا، يُعرف بهدوئه وعدم معرفته العميقة لأحدهم في الحيّ، تقتصر علاقته الاجتماعية على السطحية في التعامل فهو يفضل الوحدة، في شهرٍ سابقٍ كثفت أمه هواتفها إليه، كانت تدّعي بأنها لا تستطيع العيش بدون ابنها وأنّها يجب أن تكمل العمر الذي تبقى لها بجانبه، الأم هي التي تحنو على صغارها وفي وقتٍ لاحق يصبح الصغار أصحاب مسؤوليةٍ تجاه أمهاتهم، تحركت هذه الكلمات في قلب محمود، ووعدها بأن يأتي ويستقر في كندا عندما يقوم بتأمين كلّ ممتلكات والده، كان يقول ذلك ليهرب من اللحظة التي تحاول أمه إقناعه بفكرة السفر لا أكثر تنجح المحاولة الخامسة، أثّر هذا المشهد المزعوم على صاحبه، أصبح مبتهجاً لنجاح خطته، كأنه يطارد خيطاً من دخان، قد زعم أنّه نجح في ذلك، يمر على خرابةٍ تقع بجانب بيت محمود، يركنُ فيها القاطنون في الشارع سياراتهم الصغيرة كما أنّ هناك رجلاً بسيطاً يبيع الفشار على باب المدرسة الابتدائية يمتلك عربةً متجولة يركنها في زاوية الخرابة. . .

ليطمئنّ من نجاحه، يكررُ المحاولة الأخيرة ويتعجّل في خطاه، بات قريباً من بيته، على بعد خمسةٍ وعشرين متراً من الظلام! يقع

هنا بيت صديقه الحميم ربيع، يدرس في كلية الطبّ في السّنة الثّانية من اختصاص الأعصاب ويعيش مع أخته سعاد التي تدير أمور المنزل منذ تركت الدّراسة بعد فشلها في امتحان الشّهادة الإعدادية.

-تبقى لكَ سنتين حتى تحقق حلمك، وبعد كل ذلك العناء والجدّ والتّعب تريد أن تهدمه بيديك كما صنعته !

-سعاد، أرجوك ارمي المسدس من يدك ودعيني أشرح لك السبب في حصولي عليه

-السلاح أكبر دليلٍ يا أخي، اسمع إذا أردت أن تحافظ على هذه العائلة وعلى نجاحك يجب أن تعرف ماذا عليك فعله، أعد حساباتك يا أخي

-أرجوكِ للمرة الثانية يا سعاد، أرجوكِ لا تتدخلي في هذا الشأن وأما عن السلاح فليس له علاقةٌ بتنظيمي للمظاهرات في الحيّ وتوثيقها

-أخشى أن يأخذنا قرارَكَ إلى المجهول.

-أنا أعرف ما أقوم به، وينبغي عليّ فعل ذلك، ضعي السلاح جانباً!

ترمقه بنظرةٍ عبوسةٍ ثم تمسك بيده اليمنى، تفتح له كفه ثم تضع بها المسدس وهي تقول

-هذه اليد لتنفذ أحدهم من الموت لا لتتسبب في حدوث ذلك !

من غير تفسيرٍ يقف صامتاً يتأمل الكون في لحظة، أخته تخاف عليه هذا كلّما في الأمر سيستمر في عمله على أيّة حال، كان قد خمّن ردّة فعلٍ أسوأ من ذلك من قبل أخته سعاد، لكن يبدو مختلفاً جداً !

وصل المسافر إلى وطنه، كان مشواراً طويلاً، قبل أن يدخل ينظر إلى بيت عروبة الذي يقابل بابه باب بيته، يهمس في صمت: شكراً لكِ على الهديّة التي سألقاها بعد قليل!

يدخل. .

-مساء الخير، كيف حالك يا أمي، كان عملاً مجهداً اليوم .

تطمئن لصدى مفرداته، يبدو ممثلاً مميزاً بعد قليلٍ من التدريب، في الحقيقة الجميع يعمل في هذه المهنة، الواقع يتطلب ذلك أحياناً، عندما تترك الكفة ترجح لأحدهم في نقاشٍ محتدم مع أنك تعرف جيداً أنه ليس على صواب هو تمثيل، أن تبتسم في وجه من كذب عليك يوماً أو من لم يفِ بوعده هو تمثيل، نحن نساعد الحياة في أن تستمر بسلام . !

بعض حالات التمرد قد تضعنا في صفوف الفاشلين وقد تصبح حالةً فريدةً وجديدةً تعجب الكثيرين وتصبح قوة في حال حالفنا الحظ، وإذا جرّنا التمرد إلى فشلٍ ذريعٍ سنصبح في مأزقٍ كبيرٍ، لا وقت بعد ذلك للعودة وإتقان ما يترتب علينا من أدوار قد فشلنا في أدائها مسبقاً بدعوى الأمل !

إنّه الكلام الذي يصف موضع أحمد من هذا المجتمع المنشطر إلى آلاف الطبقات، في آخر سنتين سمعنا قصصاً كثيرةً تكون نهايتها متنوعة الذهول، بين الإفلاس و الموت والبطولة والخسارة، وسمعنا أيضاً عن الكذب والخدعة الناجحة و الإنكار للجميل و البطر الفاحش والفقر المدقع والسخرية من ذوي الاحتياجات الخاصة، سمعنا عن أحدهم قد أصبح غنياً في ظروفٍ غامضة وعن أحدهم مات وهو يجلب رغيف الخبز من ظروفٍ غامضة أيضاً، هذه القصص ونهاياتها جعلت من هذا المجتمع قنبلة مؤقتة، يبدو أنها انفجرت في وقتٍ سابق و أدت إلى كلّ هذه الانشطارات ثم الطبقات العديدة.

-الغرفة مرتبة، يبدو أنّها سعاد، كالعادة أتت لتساعدك قليلاً في توضيب أمور البيت يحدِّث أمه بصوتٍ عالٍ من غرفته وهو يبحث عن الهديّة التي توقعها من عروبة، كانت كلّ عامٍ ترسلها مع سعاد في ذلك اليوم بالتحديد وغالباً ما تكون مرفقةً برسالةٍ قصيرة وليست ككلِّ الهدايا فبحكم الظروف التي أحبا بعضهما فيها، لم يسمح الظرف لعروبة أن تربط حول الهدية شريطاً أحمراً واحداً، غالباً ما يجدها ملقاةً على سريره أو فوق كتبه على الطاولة الخشبيّة بجانب السرير

-إنها فتاةٌ جيدةٌ ونحن مدينين لها بالكثير، أدعو لها دائماً

بعد أن بحث في المكانين اللّذان توقع وجود هديته في أحدهما،

يأس على الفور في البحث مجدداً، هل يعقل أنّ عروبة نست أن اليوم هو عيد مولدي، ليس صحيحاً، يبدأ في البحث في أماكن غير التي تعود وجود هديته فيها، في أيّ مكانٍ يمكن أن توضع فيه مثل هذه الأشياء، لابدَّ أن توضع في مكانٍ يتسنى ليَّ العثور عليها منذ دخولي الفرقة وبوقتٍ لا يذكر، ماذا لو رأتها أمي وأخذتها وتريد مني أن أبادر بالسؤال، لا، أمي لا تستطيع بكرسيها المتحرك قطع عتبة الباب وتحاول أن تبحث عن شيء ما في الغرفة

يتناول كتبه واحداً تلو الآخر، يقلب الصفحات بشكلٍ سريعٍ محاولاً العثور على شيء ما حتّى ولو كان كلمة واحدة من عروبة.

هي ابنة جاره أبي قصي عرفها عندما كانا عائدين من امتحان الشّهادة الإعداديّة، تنتمي إلى عائلة حازمة في التربية والتعليم وهذا ما جعل عروبة مترددة جداً في أن تُكلم أحمد طوال سنةٍ كاملة في الصف العاشر الثانويّ، كانا يلتقيان في طريق العودة في معظم الأيام، لم يستطع الكف عن النظر إليها، وهي كانت تخطف نظراتٍ خجولة بين أن تضع نظرها عليه وبين الأرض، بيرها العميق وصديقتها التي رسبت في امتحان الإعداديّة ولم يعد لها رغبة في الإعادة و استكمال الدراسة -سعاد- كانت تتحدث إليها بكلِّ ما تمر به من أحداث و كانت بمجملها تتحدث عن أحمد، إنّه الحبّ الذي يتصل بالطفولة، الطفولة هي الفترة التي لم تدرك فيها ما هو الحب، لكنها تذوقت لذته فقط!

الخرابة التي تقع إلى جانب بيت ربيع كان يجتمع فيها كلُّ أطفال الحي ويلعبون سويةً إلا أحمد و عروبة، كانا وحدهما في زاوية الخرابة يجمعان تراباً ثم يصبان فوقه ماءً، كانت فكرة عروبة في صنع أشكال من الطين، غالباً ما تكون هذه الأشكال في النتيجة هندسية بسيطةٌ كالمربع والمثلث، ثمَّ في فترةٍ ما، اختفت عروبة من الحيّ ثمّ وجدها في فحص الثانوية، كانت قد كبرت، أصبحت ترتدي حجاباً ومعطفاً طويلاً إلى قدميها، حينها علم أنّ الفتيات عندما يصبحن في سنٍ معينة ينبغي عليهن أن يكفنَّ عن الخروج إلى الشارع واللعب مع الأولاد، لأنّها تعرفه جيداً تكلمت معه لفترةٍ لا تزيد عن الدقيقتين، لم تحتمل نظراته التي كانت تعيدها إلى الطين والطفولة الأولى، نحن نكبر مع الأيام يا عروبة وأنت ما زلتِ عالقةً هناك !

تجاوزا امتحان الثانوية ويدرسان الحقوق سويّةً وهذا ما جعل أمر لقائهما ممكناً ولكن بفتراتٍ متباعدة فهو لم يكن يحضرُ الدروس في الجامعة بشكل دوري بسبب التزامه بالعمل وإعانة العائلة .

يفتح درج الطاولة الخشبيّة بعد أن قام بتفتيش كلِّ الكتب ولم يجد شيئاً، يضعُ في هذا الدرج كل الرسائل والهدايا البسيطة التي تصله من عروبة، يتناول الرسائل بهدوء شديدٍ، قد رتبها حسب تسلسلها الزمني منذ أول سنة قامت بمعايدته حتى السنة التي مضت، يجره الحبّ في كلِّ فترةٍ لقراءة الرسائل وكي يشعر أنّ

هنالك إنسانٌ في هذه الأرض يهتم لأمره، عروبة أولى الأسباب التي جعلت أحمد صامداً إلى هذا الوقت في وجه التعاسة المفرطة، يفتح الرسالة الأولى، كانت عبارات الطفولة تمتزج بالحبّ إلى حدٍ كبير: عيناكِ لم تتغير و كذلك قلبك، أحبك بالقدر الذي عجنا به طيناً !

يوشك السرور أن ينسيه ما كان يبحث عنه أو ربما قد نسي تماماً عندما أمسك الرسالة الثانية: ها قد أصبحت شاباً وعليك التفكير بجديّة حيال مستقبلك الذي سأشاركك فيه نفس المصير

كانا على وشك الدخول في الفحص الثاني من الصف الحادي عشر، لم يكن هذا الأمر مهماً بالقدر الذي تعنيه هذه الرسالة، كانت الشهادة الثانوية وطموح أحمد في أن يلج كليّة الحقوق هي الحال الذي تريد أن تصل به عروبة.

يطوي الرسالة، صوت الورقة هو المسيطر في هذا المكان، كان الصمت كافياً ليرد به على تلك الكلمات، يأخذ بالرسالة الثالثة: أعرف أنّكَ أذكى مني وأنَّكَ ستنجح وستدخل كليّة الحقوق ولكنني مازلتُ مصرةً على مشاركتك إياه، لست مهتمةً للمصاعب التي سأواجهها في دراستي للحقوق، يجب أن أكون بقربك على أيّة حالٍ كانت، أحمد أنا أعرف الكثير عن قصص الشباب الذين يدرسون في الجامعات وهذا ما يزيد رغبتي أن أكون معك في أيّ مكان، بمنتهى الغيرة، كل عام وأنت بألف خير.

يتمتم في هدوء :
-وفعلتها المجنونة!
تقدما سويّة لامتحان الشهادة الثانويّة، ونجحا سويّة، رغم أنّ أحمد يزيد عروبة بتسع درجات لكن كان يحق لها دخول كليّة الحقوق ودراستها برفقته كما كانت تتمنى.
يأخذ الرسالتين المتبقيتين ويذهب بهما إلى سريره، يستدير ويجلس على طرف السرير بمنتهى الهدوء، يعلم مسبقاً ما تخبئه هذه الرسالة في السنة الأولى من الجامعة، ربما لأنها دائماً تذكره بحقيقة أمره كلما حاول النسيان وتعطيه أملاً بأن الحياة لا تعطي شئناً لهكذا أمور كما يعطيها هو هذا الشأن الكبير
يفتح الرسالة ويقرأ: أنا معك، عرفت مؤخراً كلَّ شيء حول هويتك الحقيقيّة وأريد أن أخبرك أيضاً أنّ ما عرفته لا يعني لي بثمن، قد عرفتُ كلَّ ما أريد معرفتهُ عنك !
كان صوت الخيبة التي يقرأ بها الرسالة -بصوت عروبة – يزيد من ضربات قلبه، يتنهد باحثاً عن طريقةٍ أخرى للابتعاد عن التوتر وليبتعد أكثر عن وابلٍ من الأفكار السيئة التي كانت تلاحقه كل يٍوم وآخر، يعرف جيداً أن عروبة لم تتخلَّ عنه في اللحظة الحاسمة وفي الاختبار الأكبر ويعرف أنها لن تتخلى عنه الآن، بعض الأخطاء التي لا تكون من صنعنا والتي لا يسعنا تصحيحها . . أحمد لقيط. !!

ظنت أنها ستضعه في مكانٍ يحقّ لها الشفقة عليه وحتّى لو قالت إنها بجانبه ولن تتخلى عنه وأنّ هذا الأمر لا يعني بشيء ولا بثمن، هي تعرف أحمد جيداً، شاب حساس لأبعد الحدود وأيّ كلمة تقال في بؤس الحياة التي يعشها وعن إعانته لعائلته وأيضاً عن حياة أبيه الذي رباه دائماً ما كان حزيناً من هذه القصص، لذلك اختارت هذه المناسبة لتخبره أنها ستبقى بجانبه ليس لأن تقول له أنها علمت بأمره فقط ويمكنها أيضاّ عبر الرسالة أن تتمكن من صياغة الجملة بطريقة جيدة .

ارتخى إلى الخلف فارشاً أطرافه على امتداد السرير، حقاً كان يوماً متعباً . .

-الجميع يعلم بذلك إلا أنتِ يا عروبة، كنتِ ستعلمين في يومٍ ما، كم تمنيت أن يكون هذا اليوم ليس موجوداً طوال الأيام التي سأعيشها

يغمض عينهِ في تفكير ثمّ يفتحها على عجلة

- الجميع يعلم، عن طريق أحدهم سوف تعلم، في كل مرةٍ تفكر فيها بنفس القصة تقفُ عند هذا الحد ولا تجد حلاً، لأن هذا الخطأ ليس خطأك، نعم ولكن كم أتمنى أن أستطيع إصلاحه.

يتمتم في ريّب:

-القدر لا يُرقع يا صديقي

جميعنا لدينا ذكريات سيئة، بالطبع كلنا لنا ذكريات سيئة، نحاولُ

بكلِّ جدٍ وكدٍ أن نحِلها ظنّاً منّا أنها مجرّد عقدة، يجب أن نفكر بحلٍ من شأنه أن يفكّ وثاقها، في نهاية المطاف نجد أننا عالقين بأنفسنا في هذه العقدة، الحل واحد وهو أن نكف عن التفكير بها، أن ننساها، الأيام كفيلة بذلك، لو نستطيع فعلها !

في الخامس والعشرين من تشرين، قبل اثنين وعشرين عاماً، خرج محي الدين –الرجل الذي ربى أحمد- ليشتري علبة تبغ في وقتٍ متأخر من الليل،وفي طريقه سمع صوت طفلٍ لا يكاد يُسمع، هدوء الليل وخلود الناس وكفّهم عن الضجيج الذي يعدُ من سمات الأحياء الشعبيّة ساعده في تقفي أثر الصوت، حتّى شاهد أقسى ما قد تراه عيناه في حياته، طفلٌ في عمر الساعات يحرك يديه من تحت منشفةٍ صغيرةٍ جُعلت على جسده، مازال الدم على جسده والنمل يمشي على أطرافه، كانت ليلةً باردة، تشرين هو أول الشتاء.

لم يكن محي الدين رجلاً جيداً في بيته ولا مع جيرانه، يتعاطى حبوباً مخدرة ويشرب الخمر لكنه فاقدٌ لشعور الأبوة، زوجته لم تنجب الأطفال طوال عشر سنين، لم يخطر في باله أبداً أن يتركه ملقاً على الأرض وأن يكمل طريقه وأن يشتري علبة تبغ ويعود إلى البيت دون أن يفكر بما فعله، هذا ما قاله لزوجته عندما عاد به إلى البيت لكن لسوء معاملته لها و لقساوة قلبه لم تصدقه، محي الدين يفعل ذلك! قلبه أقسى من أن يفعل ذلك، أحياناً

كانت تحمد الله لعدم رزقه إياها بأطفال مع أنّ كلّ فتاة تتزوج تحلم بأن تصبح أمًّ، محي الدين يخرج في وقتٍ متأخرٍ في الليل ولا يعود حتى الصباح ثمّ ما يلبث أن يخرج إلى العمل، كان يتعب ويكسب المال من أجل دخول البارات الليليّة وبيته يتسلل إليه الفقر من بين شقوق الجدران، حياةٌ تعيسة !

أمر زوجته بتربيته فاتهمته بأنّه ابنه وأنّ القصة التي سردها كانت محضُ تلفيقٍ

-هذا الطفل طفلك، وهو نتيجة أخطائك مع بائعات الهوى

-لماذا لا تصدقيني، أو أنّك لا تريدين تصديقي، أرجوكِ الطفل في حاجة لمساعدتك، إنّه يرتجف من البرد، إنّه حديث الولادة ويحتاج إلى عناية.

-محي الدين، إذا كان ولدك أتعهد لك برعايته ولكن قل لي، أريد سماعها منك

-بماذا أقسم، أنا إنسان ورغم كل ما أفعله وفعلته أبقى إنسان، خذيه مني

لأنّها لم تعرفه قبلاً يتكلم بهذه اللهجة من الحنان، كان دائماً لا يأبه بشيء تقوله له، أخذته من يده ولم تأخذ اعترافاً صريحاً منه . !

أطلقت عليه اسم أحمد وقامت بتربيته، محي الدين لم يتغير، بقي على حاله وعلى أهوائه، يوماً بعد يوم كانت تكبر شكوك

زوجته حول أمر الطفل، محي الدين لم يتعرف يوماً بمصروف المنزل، لكن منذ وصل هذا الطفل إلى منزلها أصبح يضع لها المال لتشتري له الملابس والحليب والدواء، دائماً كانت تقول أنّ ملامحه أصبحت تميل لملامح محي الدين، لكن بعد أن تعلقت به نست الأمر

الحي بأكمله علم بأمر أحمد وتضامنوا مع زوجته حول هويته، لكن طوال تلك السنوات لم يتفوه محي الدين بكلمة واحدة، كان يقول لهم بعد أن كبر أحمد وأصبح يافعاً: الآن أصبح ابني! حملت زوجته، كان حملها عزيزاً كما قال لهم الطبيب وأنجبت طفلاً وسماه محي الدين قيصر، لم تفرق الأمّ ببين الاثنين في أيّ شيءٍ، وأحمد كان يحبها ويحترمها لدرجة كبيرة وهذا مصدر تعلقها الأكبر به، حتّى عندما علِم بحقيقته، انكب في حضنها وقال بصوتٍ يُقطِعه البكاء: لا أريد أماً غيركِ . !

مات محي الدين في حادث سير مؤلم مع اثنين من أصدقائه أثناء العودة فجراً من نادٍ ليلي، وذاع صيته السيئ في الحيّ، الناس تتكلم عن حياته السيئة وموته السيئ ولا تترك لأحمد فرصةً لأن يثبت عكس ذلك، معظمهم كان يتحاشى مخالطته أو حتّى إلقاء التحيّة عليه، منهم أبو قصي والد عروبة، حمل أحمد همَّ العائلة على عاتقه منذ وفاة والده، لم يستطع أن يأتي بنفقاته ونفقات أخيه في المدرسة والبيت أيضاً فعملت أمه بمهنةٍ كانت تتقنها في

الصغر -الخياطة- وأثناء إيداعها للأقمشة التي تقوم بخياطتها تعرضت لوعكةٍ صحيّة ففي فترة أخيرة لم تعد تملك ثمن الدواء الذي تأخذه من أجل بعض الخلجات العصبية التي تصيبها ، نُقلت إلى المستشفى وعلى أثرها أصبحت مقعدة، بعد مدَّة قال الأطباء بعد النظر في حالتها أنها ستتمكن من السير بعد القيام بسلسلة من الجلسات الفيزيائية على يدّ طبيبٍ مختص، تأخر موعد الطبيب المختصِّ أسبوعين لأنّ أحمد لا يملك إلا المال الذي يكفيه للعائلة ولدراسته التي تكاد تنهار.

تلمع عيناه، دمعتان صادقتان، لا يدعهما تسقطان، كما قال لنفسه مرةً: رجلٌ صامد. !

تقع عيناه على الدُرج فيرى القلادة التي جلبتها لهُ عروبة في العام الفائت وهي على شكل قلب نُقش عليه اسمه، فيتذكر أنَّ هناك رسالةً أخيرة يجب قراءتها، يقرأ: كلَّ عامٍ وأنتَ بخير، أريد أن أرى هذه القلادة بحوزتك حتّى لا أستطيع أَن أراها، ذلك حين أموت .

-الدنيا بأسرها لا تستطيع أن تنتزعك من قلبي يا عروبة، ماذا يفيد هذا الكلام إذا قلته لأبيكِ ؟!

ينكبُ على وجهه ويزفرُ بعناءٍ شديدٍ، هذه الحياة ليست مخصصةً لتحقيق الأحلام أو نحن لا يحقُّ لنا أن نحلم، الأحلام ليست مخصصة لنا، فقط يجب أن نحلم بحياةٍ أقل تعاسة !

بين هذه الجدران المتعبة، تجري الحياة ببطءٍ و في الملامح تبدو

أكثر شيخوخةً من تعرُّق السقف إلى شقوق الجدران، طالما تتمنى الحياة أن تثور على طقوسها المكررة، لكن الذكريات تُلزمها بفوضى المشاعر، يعرف جيداً أنّ تقدير النفس قد يؤدي به إلى هاويةٍ أعمق، أحياناً لا يجب أن يرتكي على صدر الذكريات، يحتاج لنومٍ طويل كي يرتاح من تشريد الروح .
خارج حدود هذه الجدرانِ المتعبة تجري الحياة بسرعةٍ فائقة ثم تزال ساكنة هناك، في إحدى زوايا المدينة، حيث لا انتماء له !

***

في بقعة أخرى من هذه الحياة كانت سلمى تحاول استعادة تركيزها وصفاء ذهنها، دراسة الطب تحتاج إلى الكثير من التخلي.

تطوي صفحة أخرى محاولة البدء بشيء جديد، لم تستطع دون التفكير بدلك الحُلم الذي يتجددُ كلَّ مرة، تبتسم فيما تُجسد ذاكرتها ذلك المشهد الحقيقي بحبٍ شديدٍ وتمرُّ الكلمات بتشريدٍ كبيرٍ، مرور العابرين من الصفحات إلى القول لا أكثر. .
-ما رأيكِ أن نضع ساحة الليسيه في أول القائمة، شواطئٌ زرقاء ورمالٌ ناعمة تبدو المياه ضحلة كما شاهدتها في الصور لكنها تتناسب مع دخول الريف إلى البحر
-حسناً، سنضعها في المكان الثاني، سنؤجل زيارتنا إلى جريدة الطيور -كوساداسي- يومين آخرين

-ما زالت اِسطنبول في رأس القائمة، الجامع الأزرق وجامع السلطان أحمد . .
-بالتأكيد، والإقامة لمدة أسبوع ستكون كما وعدتني في فندق بيرا بالاس، إنّه أُسبوعنا الأوّل
-أنا عند وعدي، عليَّ التفكير أولاً في إمكانيّة انتهائنا من دراسة الطب
كلما تذكرت هذه الجملة الأخيرة منه تشعرُ أنّ الوقت لا يمضِ، تعرفت على ربيع في السنة الثانية من الدراسة النظرية من اختصاص الأعصاب، يتكلمان عن المكان الذي سيقضيان فيه أول شهرٍ من الزواج، ويبدلان الأماكن كل فترة، زادت عن عشرة دول وعن مئة منتزه وشاطئٍ وقلعة، تعرفا على العالم دون أن يذهبا إليه، يتمنيان فقط وسرعان ما يعجبان بمكانٍ آخر فيستبدلانه على الفور، قررا في النهاية أخذ الأمور بواقعية، اختارا تركيا ووضعا خطة لهذا الشهر.
ترمي الكِتاب جانباً، ثم تعيدُ ترتيب المشهد مرّة أخرى، بعض اللحظات التي نعيشها جيداً، عندما نشعر بأدق تفاصيلها تكون حياةً بأكملها، تمرُّ عيناها على العصبة التي تلتفُّ حول معصمها الأيسر، يُقطع المشهد بفاصلٍ مؤجل
-سلمى ! لماذا لا تريدين إخباري بقصة هذه العصبة ؟!
-أخبرتك أكثر من مرَّة لكنك لا تريد أن تصدق !

-لأنّي لم أستطع لمرّةٍ واحدة أن أقتنع بما تقولين، أنتِ لستِ جيدةً في تأليف القصص !

تدير وجهها كي لا يجيد التخمين، لا بدّ أنّ ربيع على حقٍ، دائماً ما تقول قصصاً مختلفةً عن هذه العصبة، بعد سكون، غير أنّها لم تلتفت لتلاقي وجهه وهي تتكلم ثانيةً .

-هذه العصبة من والدتي، أعطتني إياها قبل أن تموت، هذه الذكرى الوحيدةُ منها

-لما لم تقولي ذلك منذ البداية ؟ إلا إذا كنت لا تريدين مني أن أشاركك حزنكِ ؟

لم يعرف ربيع أحداً يحزن على أمه بهذا الشكل، كانت تضع هذه العصبة بشكلٍ دائمٍ، وفي عيد الأم لا تأتِ إلى الجامعة .

ما زالت عيناها تقع على تلك العصبة في تأملٍ يعود لطفولتها، صاحبة العيون العسليّة، سلمى ابنة حسن مدني، يعملُ مقدماً في نفس المكتب الذي يعمل فيه المقدم يحيى، رجلٌ قاسي القلب، لا يعرفُ من الدنيا إلا مصلحته الشخصيّة

كانت تراقب أبويها متلصصةً خلف باب غرفتها

-مهيتاب، قلت لكِ مراراً: إياكِ أن تحاولي الوقوف في وجهي، إمبراطوريتي لن يستطيع إيقافها أحد

-والقضية قضيتي، لا علاقة لي بمملكتك

يتنهد في هدوء ثم يباغت الخطى بسرعة كبيرة ويمسكها من

شعرها ويدفع بها إلى الحائط، مهيتاب تعرف أنّه رجلٌ لا يرحم، لكنها لا تستطيع أن تقبل بالخنوع له، تعلم تماماً أنّ شخصاً ما سيلقى حتفه تماماً عند خنوعها، يقترب حسن منها ثم يتمتم في أذنها:

-اسمعي، وعدتك سابقاً، أقصد قبل أن تتركي القضيّة بأن أحرمكِ من بناتك الاثنتين وأنا ما زلت متناسياً ذلك الكلام حتّى يوم غد، أريد أن أسمع منك كلاماً جميلاً في مساء الغد يا عزيزتي

يترك شعرها المائل للون الشمس، ثم يحاول إعادة تسريحه بهدوء يديه، كانت مهيتاب مذعورة أمام هذا الكمّ الكبير من الذل، لا يسعها إلا أن تنظر بعينين مفتوحتين إلى أقسى حد مع فرصةٍ سانحةٍ للبكاء، يقاطعها حسن في ذلك:

-عيناكِ أجملُ عندما تمتلئان بالدموع يا مهيتاب !

ابنتها الأصغر رأفت ما زالت صغيرةً في ذلك الحين، لا يمكنها أن تتركها وتأخذ قراراً مجنوناً، أنه رجلٌ لا يأبه بأحد، نعم، حتّى إذا طردها وماتت ابنتها الصغيرةُ من الجوع اضطرت للخنوع وحولت القضيّة إليه بالطريقة التي طلبها، كانت تعلم مسبقاً أنّ هناك من سيظلَمُ في وقتٍ قريب .

تخلع سلمى العصبة من يدها فيظهر أثرُ جرحٍ كبير فوق الشرايين التي تصل اليد بالقلب، جرحٌ عرضي لا يختلف اثنان في أنها محاولةٌ صادقةٌ للانتحار !

استمرّ الجحيم مُخيماً على العائلة، لا أحد يستطيع أن يخطأ في تنفيذ التعليمات، تشكلت لدى سلمى عقدة كبيرة من العلاقة الشديدة التوتر بين أبويها، كان حسن كلما عرف أحداً أو مسؤولاً أو تاجراً مُداناً بقصيّة تقع تحت يد زوجته مهيتاب أمرها بفعل ما يندرج في صالحه وصالح معارفه.
بعد خمس سنين من تلك الحادثة وبعد العديد من التنازلات التي قدمتها مهيتاب لحسن وإلحاق الذنب بنفسها، فعلت نفس الشيء مجدداً، عصت حسن في تغير مسار إحدى التحقيقات، لم يكرر تهجمه عليها بل حدثها بمنتهى الرويّة عن مصيرها وعن مستقبل طفليها، ثمّ تمنى أن يجدي هذا الكلام معها نفعاً، لأنّه كما يعتقدها زوجته وأمّ أطفاله ولن يتخلى عنها إذا كانت مطيعة له، كان يدَّعي أماها هذا الكلام بلطفٍ رفيعٍ، كان حسن يتأمل لوحة الطفل الباكي لليوناردو دافنشي المعلقة في صدر البهو الكبير حتّى ظهرت مهيتاب من خلفه، كانت تتقدم إليه ببطءٍ وتستعد للحديث ما أمكن، دون الخوف من العواقب التي ستترتب عليها، تقف في منتصف البهو قبل أن يرث الصمت المكان بأسره
-أنا أرفض تحويل مسار التحقيق، المدان مجرم ويجب أن يحاسب حسب القانون والعدل
دون أن يستدير حتّى، يغمض عينيه ثم يشبك أصابعه ببعضها بعد أن جعل يداه على أسفل ظهره

-اخرجي من منزلي !
-إذا كنت تحاول الضغط عليَّ، فأنا لن أقبل بالخنوع هذه المرّة
-اخرجي من منزلي!
-أرجوك لا أستطيع فعل ذلك، ولا أستطيع ترك بناتي، إنهما قطعةٌ مني

يستدير بكامل جسده ثم يتحرك نحوها بعينين تكادان تنفجران من الغضب، يقترب منها وهو يصوب نظرهُ نصب عينيها، إنها تحاول البقاء صامدةً في وجه رُعبه، ما زالت تنظر إليه، كانت ترتجف من الداخل، هذا الرجل مجنون، لا يمكن توقع ما يمكن أن يفعله، يميل برأسه بعد انعدام المسافة وكأنّه يريد تقبيلها ثم يرفع رأسها الذي هبط إلى الأرض بسبّابته اليمنى
-لن أشفق عليكِ يا مهيتاب
يمسكها من شعرها ويجري بها إلى باب البيت وهي تصرخ بأعلى صوتها:
-أرجوك أريد أن أبقى برفقة بناتي
أخرجها من المنزل، لم يكتفِ بذلك، بل ظلَّ معها حتّى الشارع ليتأكد من رحيلها نهائياً، أصبحت ترجوه في الشارع حتّى قام بإقحامها في سيارته، كلُّ ما كان يفكر به أن يرميها في مكانٍ بعيد لا تفكر بعده بالعودة إلى بيته.
شهدت سلمى تلك الحادثة، كانت تنظفُ الصحون وتعدُّ الأطباق

كما أمرها والدها بدعوى حضور أحد الضباط لزيارته، لم تستطع حتّى أن تلقي نظرةً على البهو حين ارتفع صوت أمّها وهي تناجي والدها بالبقاء معهنّ، حينِ تأكدت من خلو المكان، خرجت فوجدت أُختها رأفت جالسة إلى طرف سريرها وتبكي وكأنما أصابها الرعب من الأصوات التي ملأت المكان .

-أُمي . !

-لا تخافي يا عزيزتي، سيعودان في وقتٍ لاحق

كانت سلمى تبلغ من العمر آنذاك ثلاثة عشرَ عاماً وأختها رأفت خمسَ أعوام، لم تستطع تمثيل دور الصامدة أمام تلك البراءة الممزوجة بالخوف، هرعت إلى المطبخ دون أن تحيط أختها بذراعيها كحصن أمانٍ أخير، بعد برهةٍ يطرق الباب، تركض رأفت لتبحث عن سلمى كي تفتح الباب، هي أيضاً لا تستطيع مخالفة أمر والدها كونها صغيرة ولا تجيد التحدث للغرباء كما كان يدّعي حسن، بحثت عنها في البهو

-سلمى، عادت أمي، أرجوكِ افتحي الباب

دخلت إلى المطبخ ثمّ ركضت إلى الباب مخالفةً أمر والدها، كان المقدم يحيى في الباب، قد دعاه حسن للعشاء في منزله بدعوى زيادة الألفة بينهما ولا شيء آخر

-مرحباً يا صغيرتي

-أرجوك، أختي في المطبخ ويخرج من يديها عصير التوت!

تخبط يحيى وسرعان ما فهم قصد الطفلة، توجه إلى المطبخ بسرعةٍ ولفَّ منشفةً على يد سلمى، قد نزفت الكثير من الدماء ووجهها يميل إلى الاصفرار، يحملها بسيارته إلى المستشفى قبل أن يعدَ رأفت بأن يعودا عندما تستيقظ في الصباح.

استيقظت سلمى على صوت حسن

-حمداً لله على سلامتكِ يا صغيرتي

-أين أمي؟

لا تكاد في تركيزٍ تام، والكلمات تتدافع من فمها بتعبٍ بالغ

-ماتت وهي الآن في مكانٍ ما في الجنة . .

توم برأسها بالإيجاب، كانت حياتها لا تساوي شيئاً عندما قررت الانتحار لكن أمام أبيها يجب أن تكون راضيّة ومقتنعة بكلِّ شيء وحتّى لو كان ذلك السبب بعد محاولتها الانتحار!

كانت تحب أمّها أكثر من حياتها وكانت تخاف من حسن أكثر من الموت !

كان ذلك قبل خمسة عشر عاماً، مازالت سلمى تفكر في مصير أُمها،تمررُ سبابتها على الجرح الذي أُحدث ضرراً في طفولتها قبل أن يكون خطراً على حياتها في ذلك الحين.

تتحدث إلى روحها:

-اعذرني يا ربيع، كنتُ ماهرةً في تلفيق القصص، هذه العصبة ليست من أمي بل لأخفي أثر محاولتي الانتحار، طالما خشيت

ردة فعلكَ عندما تعلم ما تحت هذه العصبة .
تضع العصبة مجدداً وهي تردد بصوتٍ خافت :
-أمي التي لا أعرف مصيرها، ولا أتجرأً على السؤال !
يُطرق باب الغرفة بهدوء ثم ينثني المقبس كدلالة لدخول أحدهم إلى الغرفة
-مساء الخير حبيبتي
سرعان ما وضعت الكتاب نصب عينيها، واصطنعت الدراسة
-مساء الخير أبي
لقد جهزت العشاء، كفّي عن الدراسة قليلاً، هيّا، اجلبي أُختكِ، أريد أن أُشارككما سهرة اليوم أيضاً
تطفو على وجهها ابتسامة الإيجاب ثمّ تفعل ما يأمر حسن، تذهب إلى غرفة أختها رأفت، تطرق الباب بهدوء، ثمة هدوءٌ أكبر في الداخل
-رأفت العشاء جاهز
لا تشعر بوجود أحد، تدخل كي تتأكد فتقع عينيها على أختها رأفت، كانت تحمل صورة وتترك لوجهها الوقت في التأمل، كانت جالسةً خلف السرير كأنها لا تريد أن يشاركها في هذا الأمر أحد
-عزيزتي
-تركني الوغد
-ليس وغداً، إحسان ليس وغداً، علاقتك به ليست جيدة على أيّة

حال وهو طلب الرحيل بسبب منحته الدراسية وأنتِ وافقتِ وبمنتهى الودّ، ما لذي تغير الآن ؟

-لا أعلم، ربما بعض الأشياء لا تكون لها قيمة إلا إذا فُقدت

-أبوكِ الذي تأخذين منه هذه الخصال ينتظرنا، لا أظنُّ أنك تريدين منه أن يعلم بأمر هذه الصورة

الصورة كانت لإحسان و رأفت قبل أسبوعٍ من مغادرته، قبل أسبوعٍ من الآن، تبدو رأفت سعيدةً جداً في الصورة عكس ما تشعر به الآن !

تقحم سلمى يدها وتسرق الصورة من أُختها

-سأهتم بأمر هذه الصورة، وأنتِ حاولي ألّا يعلم ذلك الرجل الذي يجلس بالخارج شيئاً عنها

تومي برأسها بالموافقة، تخرج سلمى من الغرفة بعد أن تجعل الصورة في جيب بيجامتها الفضفاض

على أيّة حال لم تكن تلك السهرة عائلية كما يجب، الجميع في هذا البيت يخشى الكلام والمزاح حتى الخلود للنوم قبل أن تظهر على وجه حسن علامات النعاس الشديد

راودت سلمى في تلك السهرة رغبةٌ ملحةٌ، كانت ترغب بأن تسأل أباها عن مصير أمها وهل يعلم مكانها وأين تعيش، تزوجت أم لم تتزوج، لا يعقل أنّ هنالك أماً تترك أطفالها بهذه الدرجة من البرود !

تنظر إلى أبيها حين يقف الكلام بآخر حنجرتها، تذكرت أنّها في إحدى الأيام قررت الانتحار وربما إذا علمت مصير أمها قد يتكرر ذلك الأمر، كانت تتوقع الحلَّ الأسوأ من أبيها دائماً ولسبب تلك السنوات الطوال التي لم تسمع فها خبراً عن أمها، قد فقدت الأمل تماماً منذ قال لها والدها في المستشفى، ماتت !

-نعم يا سيدي، لقد حاولت السرقة من بيت أبي الفهد

مازال المقدم يحيى يعمل لوقت متأخر من الليل، كان يحقق مع أحد اللصوص في جريمة سرقة، ينتظر المتهم برهة يدفع بها زفيراً متقطع ثمّ يستطرد في حديثه الطويل:

-انتظرتهم حتّى خرجوا من المنزل،في تمام الساعة الواحدة والنصف ليلاً، كانوا يخططون للذهاب لمدة عشرة أيام إلى مدينة اللاذقيّة للاستجمام قليلاً، دخلت إلى المنزل، لم يكن لديَّ أيُّ مخطط مسبق لما سأسرقه من بيت هذا الرجل، كان ينبغي عليّ أن أسرق أثمن الأشياء وبعد عشر دقائق من دخولي للبيت وتفتيشه بدقة، دخل ابن أبو الفهد الأكبر يدعى عبادة، إنّه ملازم في الجيش، شعرت بحركة مقبس باب البيت وسمعت صوت خطا وصرير باب، عجلتُ للخروج من البيت قبل أن يحالفني الحظُّ بسرقة شيء، لكني أعترف يا سيدي.

هناك خطبٌ ما يدور حول قصّة هذا الشاب، المقدم يحيى يعلم جيداً من هي عائلة أبي الفهد، لا تقلُّ رذيلةً عن صديقه في العمل

المقدم حسن مدني، يعمل أبو الفهد مقدماً في الأمن وابنه الأكبر عبادة يستغل خدمته في الجيش لبناء مستقبلٍ من ذهب،يتلقى الدروس من أبيه، وابنه الأصغر يدعى ماهر يدرس في كلية العلوم في السنة الثانيّة شاب متكبر ولا يحترم أحداً، لديه عدة أصدقاء في الجامعة من نفس طينته عدا أنّ الجميع في سنته الدراسية يحاولون الابتعاد عنه لسوء سمعته وبشاعة معاملته معهم، وتفكيره الطبقي، سهولة اعتراف هذا الشّاب بعائلة أبي الفهد ووجهه الذي لا يُبدِ علامات الندم، كما تظهر على وجوه المجرمين، كما أنّه اعترف دون حتّى أنّ يسأله المقدم عن سبب جرّهِ إلى السجن، دار في مخيلة المقدم يحيى تعرُضَ المتهم لظلم عائلةِ الضباط تلك، لكنه يحتاج إلى المزيد من الاعترافات كي يتأكد من ذلك، لا سيما وقد كان وجه الشاب لا يوحي بأنّه مجرم وقد كان في السنة الثانية من دراسة الطب، كانت كلُّ الأمور تدور حول سبب ما جعله يحاول سرقة بيت أبي الفهد

-ما الذي دعاك للسرقة يا ياسين؟

قالها المقدم يحيى بعد تصفحه لسجل ياسين ومعرفته كلَّ تلك التفاصيل

-قبل سنوات طلب أبو الفهد من أبي شراء منزلنا الصغير من أجل توسعة منزلهم، كانوا يردون توسيع الحديقة ويريدون إعطاء مساحة أكبر للمسبح، رفض أبي ذلك، كان المبلغ زهيداً جداً لا

يشتري لنا منزلاً في مكانٍ آخر، حاول عدة مرات ولكن أبي في المرة الأخيرة طلب مبلغاً خيالياً كي يقف أبي الفهد عن تقديم العروض، لا أعلم لماذا كان يكره وجودنا بجواره، أبي كان يعمل مستخدماً في دائرة حكومية و يبيع الفول المطبوخ على عربة صغيرة ليستطيع سدّ حاجاتنا أنا و إخوتي، وبعد العرض الأخير الذي قدمه أبو الفهد ورفض أبي له، زاد حقده فأصبح يحاول إكراهنا ببيتنا، أرسل مرةً رجالا يعملون لصالحه ضربوا أبي وحطموا العربة التي يكسب رزقه بها، كان ذلك أثناء عودته من العمل في وقت متأخر من الليل

يزفر المتهم في ضيق ثم يكمل:

-وفي فحص الشهادة الثانوية، كنت منهمكاً في الدراسة، وأمي توضب المطبخ، سمعنا ضرباً قوياً على الباب، إنها الشرطة، كسروا الباب ودخلوا، لم ينتظروا حتّى أصل إليهم وأفتح الباب، أبي كان مكبَّلاً معهم، دخلوا إلى غرفته، يا سيدي شاهدتهم بأم عيني عندما دخلوا إلى الغرفة وهم يخرجون قطع ذهبٍ من جيوبهم، وعندما خرجوا قال أحدهم للضابط المسؤول عنهم: سيدي لقد وجدنا الذهب! أخذوه وبعد خمسة أشهر وصلنا خبر وفاته في السجن، لقد حققتُ له حلمه في دخول كليّة الطبّ يا سيدي لكنه لم يعلم بذلك ! ابنه ماهر دخل كليّة العلوم، إنّه شاب متكبر، كان دائماً ينعتني بالفقر و دائماً يحاول ضربي ولكني أصده

ولا أحاول ضربه، أنا حائزٌ على الحزام الأسود في رياضة الجودو ولكني شخص مسالم، أريد أن أعيش بسلام و أكمل تحقيق حلم أبي، لكن يا سيدي لم أستطع النسيان، حتّى قررت أن أفعل شيئاً يغضب أبا الفهد، ولو استطعت قتله لقتلته، وهذه هي الحادثة بأكملها، أتعلم يا سيدي ما هو شعور المرء عندما يعرف أنه لا يساوي ثمن حذاء، هذا ما كنت أشعر به عندما ينعتني ماهر أثناء مروري من أمام منزلهم، ولا أعلم ربما كانوا يقولون بحقّ أبي أكثر من ذلك وهو لم يكلمنا إطلاقاً في هذا الشأن ولم يشعرنا بأنّ الحياة التي يعيشها الفقراء هي حياة تعيسة وبشعة وليست كما يقول الجميع!

-وماذا يقول الجميع؟

-الفقير يعيش حياة سعيدة لأنّه لا يملك شيئاً يستحق الخسارة، نسوا أمر الكرامة يا سيدي!

كيف يجيب يحيى والشاب لم يكذب بكلمةٍ واحدة منذ أن بدأ بالحديث؟ كيف يجيب وقد جمعهما القدر في مكان فيه المحقق والمتهم! لا يجوز أن يتعاطف الأول مع الثاني ولا يجوز أن يكذب الثاني على الأول، هذه هي القاعدة المتعارف عليها.

لن ينطق المتهم إلا بالصدق، حتّى دون أن يطلب المحقق ذلك، كسر الثاني القاعدة هذه المرّة، بدا الأمر غريباً، إنسان كالمقدم يحيى ولا يبادر المعروف بالمعروف !

لمدة أطال المقدم النظر في عيني ياسين، كان يفسر الكلمات التي قالها في معجم عينيه الحزينتين كغيمتين تريدان الإمطار لكنّ الصيف ابتلعهما ومنع ذلك، يفكر المحقق في ضيق الوقت،يجب أن يتخذ قراراً سريعاً كي لا يشعر المتهم بأنّ هناك المزيد من الأشخاص السيئين الذين يخططون للنيل من الفقراء أو استغلالهم، ماذا لو رفع هاتفه النقال وأجرى مكالمة هاتفيّة مع أبي الفهد يتعهد بعدم تكرار الفعل الذي بدر من ياسين ثم يطلب الصفح عنه كي لا يحاول أبو الفهد إيذاءه بعد خروجه من السجن لأنّه شيء واردٌ وفي ذات الوقت يعلم المقدم بأنّ أبا الفهد سيرفع هاتفه النقال ويطلب منه إلحاق تهمةٍ بأحد، أو تبرئة أحد الأشقياء من تهمةٍ لا يختلف عليها لون الشمس من لون الليل، سيفعل ذلك في أوان لاحق، وإن لم يرفع هاتفه ويجري تلك المكالمة، إنّه يعلم علم اليقين وليس مجرد شك بأنَّ أبا الفهد سيحاول إيصال ياسين إلى حبل المشنقة فور عودته من الاستجمام، كانّ يحيى يقول في سره :

-أنا لا أستطيع الحياة ولا أستطيع الموت أيضاً !

يقرر

-اسمع يا بني أنا أعرف عائلة أبي الفهد جيداً وأنا متأكد تماماً بأنك لم تنطق سوى بالصدق ولن أدعك لهم، ولكن أريد منك وعداً أيها الشاب الواعد

يهز رأسه بالإيجاب وكأنّه قد عانق نصف حلمه، لقد وجد شخصاً يشعر بمأساته

-وما هو الوعد؟!

-أن تكمل تحقيق حلم أبيك، حلمه لم يتحقق بعد !

-سأفعل أيها الطيّب

يرفع هاتفه النقال دون تردد لصدى كلمات ياسين، كان شاباً صادقاً في كلِّ كلمةٍ وتعبير، لم يلحظ يحيى لجزءٍ من الثانيّة أن الشاب ممثل.

-تحياتي سيدي المقدم، أعرف أنك تحب البقاء مستيقظاً لوقتٍ متأخر

-طاب مساؤك، سررت كثيراً بسماع صوتك إلى جانب صوت تدفق الأمواج من البحر في هذا الوقت

شكراً لك، في الحقيقة أود أن أطلب أمراً صغيراً منك

-تفضل واعتبره قد حصل

-قد اعترف الشاب ياسين بمحاولة سرقة منزلكم، وهو الآن ببالغ الندم ويطلب السماح أيضاً

-إذاً، مع أني كنت أريد معاقبته، كما تعرف سيادة المقدم، اللص يجب أن يعاقب ولكن بما أنّكَ تدخلت سوف أصفح عنه

-شكراً لك يا سيدي، لم تخالف ظني أبداً

-عند حُسنِ ظنك، دعنا نراك في الأيّام القادمة

-بإذن الله، رحلة سعيدة سيادة المقدم
-شكراً لك، وداعاً
افعل ما يجب عليك فعله هكذا ترتاح أكثر، كم من المتعب أن يكون ضميرك حيّاً في هذه البلاد، يبين يحيى لياسين أنَّ أبا الفهد أطلق سراحه وأنّه سيذهب إلى السجن ليقضي الحكم العام ثمّ سيخرج ليقوم بشيئين: الوعد الذي قدمه للمقدم يحيى وحلم أبيه في ذات الوقت.
كان أبو الفهد يستجم في ذلك الوقت برفقة عبادة الذي خالفه الرأي، شرح أبو الفهد ما قام به بالنوايا المقبلة، يمكن أن يصبح المقدم يحيى أحد أعوانه، ويمكن أيضاً أن يصبح نقطة ضعفٍ لعدوه اللدود حسن مدني لأن يحيى وحسن يعملان في نفس المكتب، عبادة يتلقى الدروس جيداً قبل انتقاله إلى حلب، سيذهب إلى هناك بمهمة قام والده بنيلها عبر أصدقائه، في حلب فرصة كبيرة للسرقة والنهب في بداية حدوث الأمر، كانت الفوضى عارمة هناك، هي التجربة الأولى لعبادة الذي لا يزال غضَّ الغصن ليس كأبيه، يأمل أبو الفهد أن تعود هذه المهمة بالفائدة الكبيرة على ابنه، كانت هذه المهنة بالنسبة لهما وسيلةً للوصول للمال والمنصب دون النظر يوماً وراء يومٍ إلى الدّمار والخراب الذي يخلفانه خلفهما ودون الاكتراث حتى، هذه جلُّ الدروس التي كانت في كتاب أبي الفهد المقدس والتي تعلمها عبادة كلّها

وسيدخل في أول امتحان له في حلب !

***

كان رجل الأعمال معتصم الآغا، أحد تجّار الممنوعات الكبار في السوق السوداء يستمتع بقضاء نزوةٍ عاطفيّة في مكتبه، هؤلاء الصنف من البشر يعتبرون الأمور الأوليّة في الحياة تندرج تحت قانون الغش، أمّا عن إمكانية الوصول إلى النجاح بطريقة عقلانية فلا يؤيدون الأمر بالإيجاب ولكن تبقى طريقةً مثلى للوصول إلى المبتغى الحقيقي، كطوقٍ يغطي ويحمي قانون الغش ذاك

أما الأمور الثانويّة فهي كثيرة بما فيها النساء وتأسيس عائلة، العيش بسلام، الشعور بالآخرين، الحلال، ربما أيضاً لا تعدُّ أموراً ثانويّة إنما أشياءً عابرة، نزوات قد تحدث في فترةٍ ما، ثمَّ تتلاشى فور ظهورها.

-حسناً عليكِ الذهاب

-ألن تزوروني في فترةٍ قريبة؟

-حتّى أنتهي من بعض المشاغل، سأوافيكِ يا عزيزتي

-أنتظركَ دائماً، وداعاً

-ميس !

-نعم سيدي

يُخرج من الجيب الداخلي لمعطفه مبلغاً وافراً من المال ثم يُكمل حديثه باشتياق

-ستحتاجين بعض الأغراض
تبتسم في رضى ثمَّ تزرع قبلةً على خده وتستدير إلى جهة الباب مقررةً الرحيل، تقع عينها بعينِ رحيم، اليد اليمنى لمعتصم الأغا، يومي برأسه كتعبيرٍ عن قبوله دخول رحيم، تخرج ميس زاهيةَ فاتنةَ المشية من جانبه، يقترب رحيم ناوياً التحدث
-سيدي . .
أهلاً يا رحيم، هل هناك أخبار سارّة ؟
-بالتأكيد، تحدثت مع أحدهم بأمر إدخال الشحنة إلى المدينة وقد وافق عندما رفعت له السعر كما طلبت يا سيدي
-هل يعرفني؟
-لا يا سيدي يدعى سعيد، يقطن في حيٍّ بجوار المدينة، إنّهُ أحد باعة الحشيش في تلك المنطقة
-جيد، اسمع يا رحيم، لن أتردد في هدر دمك ودمه إذا حصل شيءٌ للشحنة
-تحت أمرك سيدي
يتحرك معتصم الأغا من منتصف القاعة الكبيرة قاصداً الجلوس خلف مكتبه، بهوٌ كبيرٌ تتوزع فيه ثلاثة مجالس وغرفتين لراحةِ معتصم مخفية الأبواب خلف الستائر الفخمة، تتوسط المكتبة طاولة ضخمة صنعت على شكل حوضِ سمك بناءً على رغبته.
يجلس بهدوءٍ ثمَّ يأخذ سيجارةً فيهرع رحيم ليشعلها له، يسحب

الدخان إلى صدره ثمَّ يرمي به خارجاً، يبدو متحدثاً من خلف الضباب

-لقد تكلمت مع المقدم، صديقي حسن مدني، واتفقنا على دخول الشحنة إلى المدينة دون مصاعب، هنالك ثلاثة حواجز تفتيش تقع تحت سيطرته وهذا أمر مثير لدخول كميّة كبيرة من المخدرات، لقد اخترنا الوقت المناسب

-عذراً يا سيدي، ماذا لو كان محتالاً وأوقعَنا في ورطة، حينها سنخسر كل شيء

-أيها الجبان، قدمت له شيكاً بمبلغ خمسٍ وعشرين مليون ليرة، هذا الرجل دينه المال لا يعرف شيئاً آخر

-ومتى الأمر؟

-أخبر صاحبك، الذي سيقود الشاحنة أن يكون جاهزاً في أيّ وقت، ولا تأتِ بهِ إلى المرآب إلا قبل نصف ساعة من الموعد، واحذر، إنّها صيّد العمر، انصرف. .

يومي رحيم برأسه ثمَّ ينصرف بسرعة، إنّها الطاعة العمياء، أو الخوف من غضب ربِّ العمل، كان معتصم الأغا قد قتل مساعده السابق لأنه أخفى عليه أمر بيع خمسة كيلوات من المخدرات، كان يريد سرقته، لا يعدّ هذا الوزن ثروة بالنسبة لثراء معتصم ولكنها تعدُّ خيانة عظمى بالنسبة له

هذا الرجل يريد السفر بعد بيع الشحنة إلى التجّار الذين ينتظرون

وصولها داخل المدينة، لذا وضع كلَّ أرباحه في ضربة واحدة، إما أن يعود إلى رأس ماله دون أيّ ربح منذ أربع سنوات أو يتضاعف الربح أضعافاً طائلة ثمَّ يمكنه التفكير في عمل آخر ثانوي وحياة مثيرة في مكان ما حول العالم

ستخرج الشاحنة المكونة من عربتين مكتظتين بالمخدرات من المرآب من إحدى القرى حول المدينة، ينبغي عليها قطع خمس عشرة كيلو مترات، تفصل بينها ثلاثة حواجز، الشيء الذي يجعل أمر هذه الشاحنة عادي هو الغطاء الخارجي الذي يوضع لمنع تطاير المواد التي تستخدم في البناء أثناء سير مثل هكذا شاحنات على الطرقات العامّة.

بمجرد كشف الغطاء يمكن الذهول من تحميل هذا الكمِّ من المخدرات في عربتي شاحنة، لذا يعدُّ هذا العمل مخاطرة كبيرة وأخيرة يخطط لها رجل الأعمال معتصم الأغا

***

- أنا موافق

بعد ساعتين من الشرح المفصل والدقيق اقتنع بخطةِ سرقة البنك، يجب عليه أن يأخذ دور الحاج فكرت بعد إعدادهم لسرقة المبلغ من البنك بطريقة رسميّة، على أنهم مجرّدُ موظفين و أنّ الحاج فكرت طلب المبلغ وقاموا بتسليمه إياه، بهذه البساطة !!

يعمل في هذه الخطّة ثلاثة موظفين في البنك، طارق الذي يشغل

مكتب الودائع وحسام الذي يشغل مكتب الأموال وهيثم يعمل مستخدماً في البنك، كان يراقب لهم حركة الموظفين ورئيسهم في العمل أثناء قيامهم بسرقاتٍ صغيرة من تسليف أموال من البنك دون أن يعلم أحد و تعود عليهم بالأرباح، ذلك من الفائدة، كانوا يسلفون الأموال لفترة زمنيّة قصيرة ويضعون عليها فوائد كبيرة، هذه المرّة يعملون على طلب مبلغ من المال من رصيد الحاج فكرت –متعهد بناء كبير- وإخراجِه من البنك، كان الأمر صعباً جداً لكنه ليس مستحيلاً، تنسكب الطمأنينة في سرِّ الجميع قبل أن يُكمل صفوان ما أسبق من كلامه :

-اطلبوا لنا نبيذاً حتّى نتفق !

-ينتفض حسام من مكانه ويحتد عليه

-ماذا؟ ألم تقل بأنّك موافق؟!

-نعم، قلت موافق على الخطة، ولكن ليس على المبلغ!

يومي طارق للنادل بعد أن رمق صفوان بنظرة وضيعة، كان صفوان شاباً ذكياً يعرف كيف يصل إلى الجميع دون أن يصل إليه أحد، في تلك الجلسة علم أنهم بحاجة ملحة إلى شاب ذكي وقوي القلب، لذا هذه فرصة مثلى لطلب مبلغ كبير

يحاول هيثم تهدئة الأجواء التي مالت إلى التوتر نوعاً ما من قبل صديقيه في العمل، أمّا عن صفوان بدا مرتاحاً، يخرج لفافة تلوى الأخرى ويشرب النبيذ بتلذذٍ واضح

-سيرضى الجميع في النهاية، لكن علينا أن نثق ببعضنا البعض، أنا أعرف أنّ العمل سينجح ونغدو أغنياء أيّها السادة

يتبعه صفوان بجملة سريعة تكاد تكون تكملة لما قاله هيثم، لسرعتها وعدم مبالاته

-أريد خمسة ملايين

يصاب الاثنان الآخران بالذعر، فيفسر صفوان طلبه:

-يا سادة، ستحصلون على مئة وخمسين مليون ليرة سورية بالعملة الصعبة، أعلم ذلك، فإذا طلبت خمسة ملايين لن يكون مبلغاً كبيراً، أنا سأخاطر بقضاء عمري المتبقي في السجن إذا فشل الأمر، برفقتكم طبعاً !

يشعل لفافة تبغ ويرتشف نبيذاً ثمَّ يكمل حديثه الذي استفزّ الجميع حتّى هيثم الذي كان يحاول تلطيف الأجواء

-أرجوكم يا سادة، لا تكونوا أنانيين إلى هذه الدرجة، من حقي أيضاً أن أنعم بقليلٍ من الرغد بخلاف أنكم ستنعمون بأكثره، إذا وافقتم سأقتنع بكلام هيثم وسأخطط لمصلحة الجميع، إلى أين ستذهبون بهذا المبلغ الكبير بعد سرقته ؟ لدي بيت صغيرٌ في أطراف المدينة، أخذته بالإيجار لقضاء لبعض الأعمال، يمكنكم أن تضعوا المال فيه حتّى تصلُح أموركم وتتحسن

يفتح هيثم عينيه ويتكلم في تساؤلٍ كبير، كأنه يطارد صفوان في حديثه

-منذ متى استأجرت ذلك البيت؟! لم تخبرني بشأنه إطلاقاً أيها اللعين !

-منذ أسبوع حينما أخبرتني بقصّة البنك، كنت أفكر بالجزء الثاني من الخطة، ما كان عليكم إغفال هذه التفاصيل، ماذا قلتم يا سادة ؟

-على بركة الله !

يعرفُ طارق بأنّه رجلٌ متدين وذو ثقافة دينيّة كبيرة، كان قناعاً جميلاً يخفي بشاعة الصورة الحقيقية، كثيراً ما يعرفه موظفو الشركة بأنّه رجلٌ حسن الخلق ونظيف العمل، حتّى مدير البنك كان يثني عليه دائماً وهذا ما يجعل أمر سرقة المبلغ وبوجود خطة محكمة سهلاً، ثم خروجهم من التحقيق بسهولة، حقيقةً يتقبلها جميع الموظفين في البنك

يزمُّ صفوان شفتيه ثم يصدر صوتاً من فمه :

-إذاً، كؤوسكم يا أصدقائي

يرفع الجميع كؤوسهم لتصدر صوت طرقٍ كتعبير عن اتفاقهم جميعاً، يقف هيثم عل أثر صوت الأغاني في الملهى الليلي ويبدأ الرقص حاملاً كأس النبيذ، تحمس لذلك حسام كان يشجع طارق ليرقص معه أيضاً، أما عن صفوان يكتفي بتشغيل عدسة جهازه المحمول وتصوير الجميع وهم يرقصون بمنتهى الثمالة، كانوا يدورون حول أنفسهم ويحتسون النبيذ وتقطع صوت الأغاني

الصاخبة أصوت ضحكاتهم العالية
يبتعد هيثم إلى منتصف النادي ثم يعود بعد برهةٍ مصطحباً ثلاث فتيات يعملن بائعات هوى، سرعان ما انسجمن بالرقص، يرتدين ثياباً قصيرة ويتمتعن بمرونة في تحريك أجسادهن وهذا ما جعل الرقص أكثر سخونة من قبل حسام وطارق، أما عن هيثم كانت فرصةً ليعود إلى الطاولة ويطالب صفوان بأجوبة
-هيييي، هل يعلم زيدون بأمر المنزل الذي استأجرته؟
يوقف صفوان التّصوير ودون أن يعطي الأمر شئناً، يجيب:
-لم أره منذ أسبوع، تكلمت معه وقال أنّه في عمل وربما يستغرق ذلك شهراً
-جيد، وما هو ذلك العمل؟ بالتأكيد عملية نصبٍ جديدة
-لا أعلم، ما قاله لي قلته لك
-تسكنان في بيت واحد ولا تعلم !
-من المفترض أن يعلم بأمر البيت إذا كان كلامك منطقياً
لم يطمئن هيثم لما قاله صفوان، على الرغم من اتفاقهما على أن يكونا من فريقٍ واحد، دائماً ما يكنُّ أحدهم الكره للآخر إذا اتصل الأمر بالمال وجنيه وأيضاً لم يكن حسام وطارق غافلان عنهما، كانا يراقبان لغة شفتيهما ويتوقان لمعرفة الحديث الذي يدور بينهما، كانت النظرات التي يتبادلها هيثم وطارق تخبر بذلك، كانا يريدان العودة للطاولة دون أن يصطحبا الشك معهما، لكن

الجميع يشعر بعدم الثقة بالجميع !

-كيف تجري الأمور أيها النعمان ؟

-فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتم نادمين

يلقبون طارق بالنعمان وهو رجلٌ خرافي قد ابتدع شخصيته طارق من خياله الحرّ وقصِّ القصص على حسام وهيثم على أنّها قصّة حقيقيّة بأنّ هناك رجلٌ لا يرضَ بفعل الخير إلا بالسّر حتّى الصلاة، ما كان يصلي إلا بالسرِّ، قصّ لهم عن زواجه بالسّر وعن سرقته للمال بالسّر، كانت شّخصية النعمان مريضاً نفسياً بلا شك حتّى لقبه حسام بين المزح والجّد بالنعمان وتبعه هيثم عندما أصبح الأول يرددها كثيراً، طارق لم يمانع ذلك بل رحب وأثنى عليها كان يعتبر تلك الشخصيّة الخرافيّة قدوة له!

بعد أن استشهد بآيةٍ من القرآن الكريم، يحاول جرّ حسام إلى منتصف الملهى حتّى لا يتسنَ للغارقين بالحديث رؤيتهما

-اسمع يجب أن نُشعِرَ صفوان بالأمان، لقد أنقذنا بالفعل، كنا نضع كامل تركيزنا على إخراج المال من البنك دون أن نعي أين سنضعه خارجه

يومي حسام برأسه، كان يثق بصديقه جيداً لم يخذله في أيّ عملية قاما بها في البنك، مرّةً قام بالتغطية عليه، للحظةٍ سيتمكن مدير البنك من معرفة أمرٍ ما حول تسليف أحدهم المال، لكن طارق بطريقته الودودة ووجهه الحسن أقنع المدير بأنّ هنالك خطبٌ

ما في العد، بعد ثقة المدير به تولى الإشراف على جرد الأموال مجدداً متحملاً ذلك على عاتقه إذا كانت هناك بعض الاختلافات، بالطبع كان هناك تسليف، لكن الوقت الذي منحه المدير لطارق ساعد حسام كثيراً وعادت الأموال بطريقة طبيعيّة، بعد ساعتين من كشف المدير للحقيقة البيضاء، عاد طارق ولونها !

يتلوى حسام في ازدراء

-حسناً، سأفعلُ ما تريد

-عُدّ، لنتابع الرقص . .

***

كانت الفريسة تخطط لقضاء وقت ممتع، في هذا النصف المتأخر من الليل يستوجب على الصيادين النوم، لا يمكن لأحدهم أن يخرج للصيد في عتمة هذا الليل المخيف، لكن يمكنهم التخطيط لصباح غد!

الحاج فكرت يعمل متعهد مشاريع سكنيّة، بشع المظهر، ستيني، يعرف حسن مدني حقَّ المعرفة وكان في فترةٍ سابقة قد طرح عليه مشروع إعادة إعمار حيٍّ تشرين الأول، وقد أُعجب حسن بالفكرة ولكن أجّلها إلى حين آخر، بحجة أنّهُ منشغلٌ بأعمالٍ كثيرة والقضيّة هذه تحتاج إلى الكثير من الوقت والتعب

يحتسي المشروب في منزله الكبير الذي يعيش فيه وحيداً، قد راق له الكأس وطاب السهر لعينيه، رفع هاتفه النقّال وطلب أم

تحسين -صاحبة مكتب الخدم المزيف-
-أُريد فتاةً جميلةً في الحال
-تأمر أيها الحاج، في غضون نصف ساعة تكون في بيتك
مختنق الصوت ومحمرُّ الوجه، لم تفكر أُم تحسين بمصير الفتاة التي سترسلها إليه، عرفت جيداً من وقعِ مفرداته أنّه غارقٌ في السكر لكنه زبونٌ لا ترد طلباته
-لكن احذري أن تكون كالفتاة السابقة، إياك يا أم تحسين، هذه المرة سأحزن كثيراً، وأنت تعرفين الحاج إذا أصيب بالحزن ماذا يفعل !
-كُن مطمئناً أيها الحاج، ستكون فاتنة وجيدة
لوهلةٍ خشت صوته، كانت الجمل متلاصقةً، تكاد عصيةً على حديثه، ولاسيما وأنّها قد جسّدت شخصيّته في مخيلتها وهو يتحدث إليها عبر الهاتف .
تهرع أم تحسين لتلبية طلب الحاج بإيقاظ إحدى الفتيات اللواتي تمّ خداعهنّ بنجاحٍ كبيرٍ وتمّ أسرّ شرفهنّ بيدها وبيد فريدة ترفع سماعة الهاتف الأرضي، تقف هينهة فيما تتذكر رقم بيت إحداهنّ، تقاطع تركيزها فريدة بدخولها من باب المكتب ومعها فتاتين جميلتين
-أيتها المجنونة، ألم أقل لك لا تأتِ إلى هذا المكان ؟!
-الوقت متأخرٌ ووجدتها فرصةً مناسبةً لعقدِ الصفقات

تقدِّمُ فريدة البنتين لأمّ تحسين، ما زالت سماعة الهاتف الأرضي مرفوعةً دون أن تتصل بأحد، خطرت لها فكرةٌ سريعة

-من منكما عذراء؟

ترفع إحدى الفتاتين يدها دون أن تتكلم، تعود أمّ تحسين بسمّاعة الهاتف إلى مكانها مرتاحةً لذلك

-جيد، سيُسَرّ الحاج بهذه الفتاة، اسمعي يا ابنتي كوني فتاةً مطيعة وستجنين الكثير من المال

تهزّ رأسها بالإيجاب، كانت فتاة جميلة الملامح لم تبلغ العشرين بعد

فريدة تعرف نزوات الحاج فكرت لذا لم تسأل عن الأمر، تطلب أمّ تحسين من الفتاة الثانية أن تترك رقمها وترحل بعد أن أثنت على فريدة لقدومها في الوقت المناسب، ثمّ طلبت من العذراء القدوم معها

-فريدة، لا تنسي عمل الغد، أشعر بأنها ضربةٌ كبيرةٌ، والفتاة جميلةٌ يجب أن نكسبها لصالحنا

-دائماً في تمام استعدادي

-اذهبي الآن قبل أن يراكِ أحد

قد لا تبدو الحياة جميلةٌ من كلّ الجوانب، تارةً تكون قاسية وأحياناً مقرفة وفي معظم الأوقات تكون ظالمةً، ما يتوجب على الإنسان فعله إذا تعرّض للظلم ألّا يكفّ عن الكفاح في وجه

الظالم من أجل العيش دون أن يفقد شيئاً أثناء حربه الطويلة، كالكرامة والحب والخوف من الله في كلّ وقتٍ، لماذا ؟ لأن الظالم لا يخاف من الله، والخنوع هو أول الأسباب التي ساعدت أحدهم بالتّحول إلى ظالم، أصبحت الحياة أشبه بالهرم الغذائي، ستكون مفترساً وفريسةً في ذات الوقت، لقد هذّبنا الله بالعقل كي لا نصبح في مرتبة الحيوان، ووضع لنا بذرة الخير تحت مسمى الإنسانيّة لنكون متعاطفين مع أفراد نسلنا الواحد.

جرّد الجشع الإنسانية فأصبح الإنسان عارياً، روحاً بدون غطاءٍ أو بدون جدارٍ ينقص أو يزيد.

خرجت فريدة مبتسمةً من مكتب الخدم وبعد مدّةٍ وجيزةٍ أغلقت أم تحسين المكتب وركبت بسيّارتها قاصدةً بيت الحاج فكرت ومعها الفتاة العذراء

كان الليل حالكاً، لكن ليس أكثر من قلبي هاتين المرأتين !!

***

التقى الجميع في بيت أبي ممدوح، فضّلوا الجلوس حول بركة الماء في منتصف البهو، كانوا أشبه بالورود التي تملأ المكان، يتبادلون أطراف الحديث بدون اعتبارات، قد يتكلّم المقدّم يحيى ويقاطعه أحمد ثمّ يتذكّر ربيع دعابةً فيقولها على الفور دون استئذان أحدهم، سأل الجميع عن أبي الوفا فلم يُجب أحمد بأنه رآه في المساء السابق، لم يقل لهم الحديث الذي دار بينهما، يعرف جيّداً

أنها ليست فرصةً مناسبةً ليتكلّم، من شأن أمّ ممدوح أن تقلق على ولدها الشقي ممدوح بعد سرّد أحمد كلام أبي الوفا و إذا فعل ذلك ستكون فرصةً سانحة لصديقه ربيع ليدافع عن الحركات التي تطالب بالحقوق و الحريات، لم يكن ذلك خوفاً من المقدّم يحيى، فأحمد يعرفه رجلاً صالحاً لكن الطريقة التي يتكلم بها ربيع تميل إلى الحدّة في اللهجة وتوزيع الاتهامات، كان مسؤولاً عن تنظيم المظاهرات في الحيّ ورفع الشعارات ودفع الشباب إلى ذلك، في الأيام الأخيرة باتَ الأمر بحكم العادة و اندفع إليه الكثير من الشباب إلا أحمد كانت حكمته دائماً: في خضمّ هذه الضوضاء يكون الصمت رحمة و تكون اللامبالاة نعمة .

كان ربيع يقوم بذلك الأمر سراً بمساعدة أحد شبان الحارة، يدعى عماد

في لحظة كان الجميع فيها غارقين في الكلام وتناول قطع الحلوى التي حضّرتها أمّ ممدوح، راود أحمد مشهد آخر لنفس الأشخاص ولكن دون أن يتعرف أحدهم على الآخر!

جلُّ ما يخشاه أن تزداد الأمور سوءاً أكثر من هذا الوقت، قد قرأ الكثير عن الحروب وما يحصل في الحروب من كسور وخدوش للحياة

-أحمد !

-نعم

-هل ما زلت هنا !
-نعم، أنا هنا، بالتأكيد خالتي، كنتُ شاردَ الذهنِ قليلاً
-قلقتُ لأنكَ لم تأكل شيئاً من صحنك، يبدو أنّها لم تعجبك!
-لا خالتي، كنت قلت ذلك منذ أيام الطفولة، سأتناولها حالاً
يحضر محمود في وقتٍ متأخر، سرعان ما تهدأ الجلسة، لم يكن هنالك مودّة كبيرة بينه وبين الجميع لذا كان الكلام حذراً خالياً من الدعابات، تناولت أمّ ممدوح صحناً من الحلوى ثمَّ تقدمه لمحمود، كان هذا الرجل طيباً، يحافظ عل صمته إذا لم يحاول أحدهم مبادلته أطراف الحديث، كان ربيع وأحمد يسخران من ممدوح بصوتٍ هادئ بأنهما سينامان قريري العين حينما يصبح في الخدمة الإلزامية، وكان ممدوح يبادلهم نفس الضحكة، إنّها الحياة القديمة !!
ظلَّ الصمت حديث الآخرين، حتّى قرر أبو ممدوح أن يُكلم محمود :
-ما زلت مصراً أن أزوجك، إلا إذا كان لا يروق لكَ أن يقوم عجوز مثلي بهذه الأمور، تقف يدان محمود وهو يتناول إحدى القطع من الصحن ويقول مبتسماً :
-قريباً. .
-أنا مستعد متى شئت يا ولدي
تغيرُ لحظات الوداع كلَّ الساعات الثلاث الطوال التي عاشها

الجميع، لا مخلّص من هذه النهاية، سيلقي كلٌّ منهم كلماته على مسامع ممدوح بالحفاظ على نفسه وبأن يكون رجلاً جيداً، ثمّ يقومون بمواساة أمّ ممدوح التي لم تستطع الصمود أكثر في وجه الدموع، كان الوقت يقترب أكثر على مغادرة ابنها المنزل !
افترق كلٌ منهم إلى منزله، بقي أحمد وربيع في الشارع، كانت رغبة الكلام لأحمد كبيرة، كلّم ربيع عن الشيء الغريب التي فعلته عروبة و أنّها لم تنسَ في أعوام سابقة عيد ميلاده، لم يتمكن ربيع من وضع احتمالات سوى أنّها نست ذلك، يسمع كلاماً من أُخته سلمى عن محبة عروبة لأحمد و ما زال يسمع ذلك الكلام، لذا لم يتوقف عن رفع معنويات صديقه وتقديم بعض النصائح، لم يقتنع أحمد بكلِّ ما دار بينهما من كلام، كان يخشى شيئاً واحداً فقط: أنَّ عروبة لم تنسَ بل تناست. .
قد تلقى هاتفاً من ابن خالته يطرح عليه عملاً وهو القيام بنقل أكياس من الرز من الشاحنات إلى المستودعات، ما كان ليرفض رغم أنّه يعلم بمشاقِ هذه الأعمال لكن الوقت توافق مع ذهابه إلى الجامعة و الجلوس مع عروبة قليلاً كي لا يغرق في الشكّ أكثر ثمّ الذهاب إلى العمل، يخبره ربيع أنّه سيقوم بتنظيم مظاهرة في مساء غد وقد جهّز عماد الشعارات، يعترض أحمد عن الفكرة كالعادة متبِعاً رغبته في التشبث أكثر بتطبيق حكمته، كانت حياته مليئة بالفوضى بعيداً عن مغزى الحكمة التي تبعث بالكثير من

الهدوء في فهمها، لم تكن غاية أحمد تلك النتيجة بل التقليل من كمِّ الفوضى فحسب !

***

هذا الليل الأخير الذي سيرقد المقدم يحيى في الحيّ، نُقلت جميع الأغراض والأمتعة و الأدوات، حتّى زوجته ذهبت إلى البيت الجديد في حيِّ الضباط، يحيى فضّل البقاء وحيداً في البيت القديم، بيت العائلة، هذه لحظات الوداع المتتابعة، تدور حوله لحظات طفولته التي طالما حَلُم بمشاهدتها في عيون أطفاله، لكنه لمدة طويلةٍ لم يُرزق بأطفال كان حزيناً لأمرٍ واحد فقط، أولاد أخيه الثلاثة لن يتمكن بعد الآن من رؤيتهم كلَّ يوم وفي أيّ وقت يريد، بات كلُّ أخٍ مستقلاً بعائلته، لم يكن يخططُ للنوم في البيت بل كان يريد الاقتراب أكثر من أركانه، أن يتأمل زهرة الأوركيد وهي تتداخل بتدلي الياسمين، تلك لحظات سعادة بكلّ ما يعنيه الألم من معنى، اعترف لغرفة طفولته عن أسراره في تلك الأيام، ثمَّ قرر احتساء كوبٍ من القهوة بجانب البركة، كان ياسين لا يفارق حديثه مع نفسه، تارةً يحسد والد ياسين لرزقته بمثل هذا الشّاب وتارة أخرى –عندما يتذكر قصته الحقيقيّة- يتمنى أن يحقق حلم أبيه

بلال لم يعط لهذه الأمور شيئاً، على العكس، كان مسروراً جداً ويفكر في إمكانيّة الاستفادة من المال في مشروعٍ ما بعد بيع

البيت، ينامُ الآن قرير العين في بيته الجديد دون حتّى أن يشعر بالأرق لتغيير المكان الذي عاش فيه لسنوات طوال !

***

لم يُبدِ ماهر أيّ ردة فعل أمام أبيه لأنه سامح ياسين عن محاولته سرقة المنزل لكنهُ في الباطن يكنُّ له كلّ الحقد، كان متكئاً إلى الحائط في إحدى ممرات كليّة العلوم، قدم عذره لأبيه الذي ما زال يُكمل استجمامه بضرورة عودته من أجل اللحاق بدروسه في الجامعة، كانت فرصة سانحة ليستغل الأيام التي سيكون بمفرده في المنزل !

يحاول التفسير بطريقة فوقية عن سماحة أبيه وعفوه، كان يراوغ الحقيقة كي يقنع مرام بأن والده سامح ياسين من تلقاء نفسه، دون ضغط من هو ذي شئناً أكبر منه، مرام تحبه رغم كلّ ما فيه من عيوب، تقوم بالواجبات العملية المترتبة عليه بدعوى أنّها تستطيع تغييره، لم ترفض مرة الخروج معه لأيّ مكان يريده أو تعارض نزواته القذرة، كان في تلك اللحظة يدّعي تقديم كلّ ما يستطيع ويجب أن تعادل الكفة بأن تقدم هي كلّ ما تستطيع، هذه فرصة مناسبة لدعوتها في المساء إلى البيت، لا سيما و أنّه خالٍ ويستطيعان قضاء وقت طويل سويّة دون إزعاج أحدهم أو تحديد وقتٍ كما يحدث عند استئجاره لإحدى الغرف التي خصصت لهذا الغرض من القذارة، قبل أن يترجل بالحديث

بطريقة لطيفة، يمر من جانبهما شابٌ يدعى علي يقطن في نفس الحارة التي يسكن فيها ماهر وهو صديق ياسين الودود، سرعان ما يجدها فرصة مناسبة للحديث عن سماحة أبيه :

-عليكَ زيارة صديقك في السجن وإخباره بما فعله أبي تجاهه كلص، كم كنت أرغب بأن تزوره في المقبرة

يتوقف علي عن المشي، بدت على وجهه علامات الكره لكنّه فضل الاعتراف بالجميل من أجل صديقه

-طالما كان أبوك رجلاً مسامحاً وطيّباً

يغادر كي لا يسمع المزيد من الكلام الذي يثير غضبه، لم يكن خائفاً من ماهر بل كان يخشى أن يصل به غضبه إلى السجن أيضاً، فضّل العودة إلى المنزل و ممارسة بعض التمارين، رياضة الجودو التي كان يمارسها مع صديقه ياسين سابقاً، هذا من شأنه أن يفرغ رغبته في لجم فكّ هذا المتمرد.

يعجل علي خطواته كي يبتعد عن مبنى الكليّة ثم الجامعة، كما يحاول الابتعاد عن التفكير في العودة وضرب ماهر حتّى يغيب عن الوعي، يخرج بسرعة من باب الكليّة، تكون رأفت شاردة في اللافتة المعلقة على أعلى الباب وقد كتب عليها -كلية العلوم-

كانت تشعر بلذة تحقيق الحلم، قد مرّ من جانبها علي دون أن تشعر بذلك، لا تعرفه لكن ملامحه المتورمة من الغضب وسرعته في المشي أثارت انتباه جميع الطلاب الذين شاهدوا خروجه

تتمتم في رضى سرعان ما يتحول إلى حسرة :
-و أخيراً تحقق الحلم، ودائماً لا تكتمل الأحلام، ماذا لو كنت معي يا إحسان

تتنفس في تصعيد محاولة رفع ثقتها بنفسها، قد لقنتها أختها سلمى الكثير من الدروس ويجب عليها الاستفادة، تُكمل :
-ليس مهماً، يجب أن ألاحق عبء دروسي، فاتني القليل فقط

تدخل من الممر الذي خرج منه علي، كان ماهر ومرام ما زالا واقفان، تم الأمر ووافقت على الذهاب إلى المنزل، يبدو السرور واضحاً على معالم ماهر وجلياً في لفتته الفاتنة تمضي رأفت محاولة التعرف إلى المكان من النظرة الأولى، يقودها الممر إليهما، تبتسم كإلقاء تحيّة ثمّ تتابع استكشاف الكليّة

-جديدة ؟

-لا أعلم، ولكن أعلم جيداً أنّها أثارت انتباهك

-عزيزتي! مجرّد تساؤل، كما تعلمين فأنا أعرف الجميع كما هم يعرفونني وهذه الفتاة أراها للمرة الأولى

-لو لم تكن المرة الأولى لصدقتك !

-أنتِ الحقيقة وكل النساء مجرّد كذبة !

لا تكاد الابتسامة تفارق وجهها المرسوم بدقّة ربانيّة متناهيّة، كانت جميلة لكن رأفت تغلبها في هذا الشأن !

لم ترغب في إيصال فحوى عينيها لماهر فأشاحت بوجهها بعيداً

ولامست ضفائر شعرها باسترخاء يدها، بعض الفتيات يفعلن ذلك ليعبرن عن غضبهن!

-عزيزتي، كلُّ ما عليكِ التفكير به هو ما ستتفاجئين به هذه الليلة، قضيتُ اليوم بأكمله في تحضير هذه المفاجئة، أعرف أنني أخطأت عدّة مرات و أنتِ أيضاً سامحتيني وليس عليّ أن أُقدِم على الخطأ مجدداً، لا أريد المزيد من الأخطاء في علاقتنا

كالعادة، كلام معسول، نزوةٌ منتظرة، ثمّ رميٌ من الأعلى إلى الهاوية دون سببٍ يذكر، كانت مرام تقع في الفخّ كلَّ مرة، عاطفيّة جداً ويزيد ذلك سوءاً أنّها تحبه

-وماذا أعددت لي؟!

بتساؤل كبير وكأنّها لم تغضب قبل برهة

-ينبغي عليَّ ألا أُفشي السرّ، دعيها تحافظ على رونقها، تدعى مفاجئة !

-كما تريد، رغم رغبتي الجامحة لكشف المفاجئة

-فلنذهب قبل أن أبوح بشيء يفسد تلك المفاجئة

-عليكَ إيصالي إلى بيت أُختي ميس أريد منها بعض الحاجات

لم ترفض لها ميس طلباً واحداً منذ صغرها، ولا تسألها أين ذهب المال ومتى عادت إلى البيت، كانت مشغولةً في حياتها، حتّى أنها تسكن في بيت مع صديقتها نجلاء تاركةً أختها في بيت العائلة مع أمها وزوج أمها

تأتي مرام إلى بيت ميس تطلب المال ولا تفسر لماذا، وميس كذلك لا تطلب إي تفسير كانت الحياة مفتوحة الطرفين بينهما على مصراعيها في مهب الريح، تعودت مرام على هذه المعاملة، تعرف ما هو عمل أختها و كم تبلغ قباحته عدا عن السمعة السيئة، إنّها تعطيها المال وهذا كلُّ ما يهمها في النهاية

رغبة ميس في السكن بعيداً عن أُختها و أُمها أتى بعد شعورها بتخلي أُمها عنها عندما قررت الزواج بعد وفاة والدهما، كانتا تعيشان حياةً فقيرة في حياته وبعد مدةٍ وجيزة من وفاته لم ترفض الأم الزواج من رجل ميسور الحال تقدم لها على الفور، لم تعجب ميس تلك الفكرة وراودها الشك في وجود علاقة بين أمها وذلك الرجل قبل وفاة والدها

قررت العيش مع صديقتها نجلاء التي دعتها إلى منزلها، حاولت إبقاء مرام بعيداً عن حياتها ظناً منها بأنها قد تحظى بحياة أجمل، كان هذا السبب الوحيد الذي يمنع ميس من طرح السؤال على أختها: أين يذهب كل المال الذي أُعطيك إياه؟ تحشى دائماً رداً وقحاً من أُختها: ومن أين تأتين أنتِ به ؟

حافظت على الهدوء النسبي طوال السنين السابقة حتّى تحول إلى هدوء طبيعي متبادلٍ الحبّ بينهما، كانت تخشى على مرام من ظلم الحياة التي تعرضت له هي لكنها أيضاً لا تستطيع توجيهها و إملاء النصائح عليها فهي في نظر أُختها البعيد بائعة

هوى محترفة لا أكثر.

***

دخل أحمد من الباب الرئيسي المؤدي إلى حديقة كليّة الحقوق ثمّ مبنى الكلّية، ما كان يفكر سوى بإيجاد طريقةٍ يُذَكِرُ عروبة بعيدِ مولده بعيداً عن معاتبتها لأنّها نست ذلك أو اعتقاداته الأخرى بما يندرج تحت القائمة الطويلة لمشكلات الحبّ، يلاحظ فتاةً صغيرة تحمل باقة ورودٍ حمراء و تحاول بيعها للطلاب الجالسين على المقاعد في الحديقة، تخطر في باله فكرة صغيرة من شأنها إعادة الأمور إلى ما هي عليه سابقاً لا سيما وأن الظروف التي يمرُ بها من العمل إلى العودة متأخراً إلى البيت وعدم ذهابه للجامعة وإلقاء شؤون البيت على عاتقه، يُخرِج من جيبه كلَّ ما يملك من مال، مئة ليرةٍ ورقيّةٍ وقطعةٌ نقديّة من فئة الخمس والعشرين ليرة وأخرى من فئة العشر ليرات، هذا كلُّ ما يملك، يرفع رأسه إلى السماء ويردد في سرّه

-الله هو الأمل يا أحمد . .

يتقدم بهدوء إلى تلك الفتاة الصغيرة ويشتري وردة حمراء قانية بخمسين ليرة ثم يبدأ البحث عن عروبة، في هذا الوقت المبكر لم يكن هناك حصص دراسيّة، لا بدّ أنّها تجلس برفقة صديقاتها على إحدى المقاعد، يلاحظ من بعيد ما تمناه، أن تكون جالسة بمفردها و كأنّها واعدته في فترةٍ سابقة والآن تنتظر قدومه، تدير

طرفها إلى الجهة التي يتقدم منها أحمد باسم الملامح ومبتهل الطلعة، لا تبدُ سعيدةً لقدومه كعادتها، هذا لا يعدُ أمراً مهماً بالنسبة لأحمد وهو يعلم جيداً ما تحمل عروبة في قلبها تجاهه، و أنّ ذلك مشكلة صغيرة والوردة كفيلة بإصلاح ذلك، عروبة تعرف منذ زمن الظروف السيئة التي يمرُّ بها أحمد من عدم قدومه للجامعة إلى الحالة الماديّة المزرية التي يعيشها وما بينهما

-صباح الخير

تجيب بغير لهفة، بصوتٍ يميل إلى الحزن الهادئ

-صباح الخير

-مرت عدة أيّام ولم تقولي لي كلَّ عامٍ وأنتَ بخير، فضّلت أن أُذكِرَكِ بذلك بهذه الوردة

ما زالت صامتة بعد أن انتهى من الحديث، يضع الوردة بجانبها، يستطرد في الحديث محاولاً تفسير صمتها من خلال تقدير حدسه!

-عروبة، أعلم جيداً ما تفكرين به، وفي ذات الوقت أنتِ تعلمين كلَّ أسباب غيابي

تنظر إليه بعينين لا تفسير لما تخبئان من كلام ولا تأويل لهما، تومِ برأسها بالإيجاب، ثمَّ تأخذ الوردة التي كانت بجانبها، تشتمّها برغبة بالغة وهي مغمضة العينين، ما زال أحمد ينتظر جواباً، إنّه الاحتراق بدون نار، إنّه الانتظارُ الأطول في بطء الوقت، تلمع عيناها

-سأختصرُ الطرق، إذا كان الكلام عصياً عليكَ فلستَ وحدك، منذ مدّة وأنا أحاول الكذب على نفسي ولكن الحقيقة لا تكذّب ُنفسها يا أحمد

-مجرد متاعب وسوف تمضي، ستصبحُ إحدى الأشياء التي سنتذكرها في وقتٍ لاحقٍ

يقترب أكثر محاولاً إبعاد كلّ ما يحول بينه وبين عروبة، قد نسي لتوه الحياة التي تدور من حوله بفوضى مرتّبة، لم تكن موجودة سوى عروبة، يمرر كفه ببطء على وجهها، كانا طفلين عندما قام بذلك، كانا يلعبان بالطّين في الخرابة ويداهما متسختان به، يومها اقترب أحمد من عروبة و مرر يده على كامل وجهها، أخذها البكاء حينها، ذهبت إلى البيت وغسلت وجهها دون أن تقول لأمها عن سوء فعل أحمد، كانت محاولة طفوليّة للدفاع عنه !

خرجت من البيت بعد دقائق فوجدته ينتظر بجانب الباب، قال لها: انظري لقد غسلت يدايّ أيضاً، تجيب: ارفعهما كي أتأكد، يرفع يديه ويحرك أصابعه كي تستطيع الاطمئنان لنظافتهما، وفي لحظة تركيز منها على يديه يعيد الكرّة بسرعة خاطفة، تدخل إلى البيت باكية، يردد وهو يضحك: انظري في المرآة جيداً يا عروبة، يداي نظيفتان.

كبُرا وكلما أراد أحمد إيقاظ حبّ عروبة له و إبعاد المشاكل التي تخنق علاقتهما يقوم بتمرير كفه على كامل وجهها إلا هذه المرّة،

أخذها البكاء، كانت صامدةً في وجه دمعتها منذ أن لمعت عيناها وهي تتحدث، لم يكن ذلك المعنى الحقيقي، كان تفسير أحمد بعيداً عن قصدها.

-ليس هذا ما أعنيه يا أحمد، أنت لم تخيب أملي ولكني لا أريد أن أزيد العبء الذي تحمله على كاهلك، لو لم تستطع قول ذلك سأقوله أنا، حتّى وإن كان يعاكس رغبتي الكبيرة بالبقاء معك، يجب أن نفترق يا أحمد !!

من صمت الحديث، لم يجد أحمد عبارة أن تقال في هذه اللحظة، كلُّ ما يعرفه أنه يخشى هذه اللحظة فقط، ما زالت تنظر إليه بتتابع البكاء، ثمَّ تنظر إلى الوردة التي قدمها لها قبل قليل، تضعها في كفه، تقول

-كل عام وأنت بخير!

وترحل!!

الكثير من الأماني تصبح هشة أمام بطش الفقر، ذلك السقوط من الهاوية إلى هاويةٍ أعمق ثمّ البقاء على قيد الحياة!

هناك سبب واحد يمنع أحمد من الوقوف واللحاق بعروبة، إنّها الحقيقة التي اعترفت بها، لم تعد قادرة على الصمود أكثر في وجهها، تأملَ الوردة صامتاً، كان الضجيج في داخله أكبر من صخب المدينة من حوله !

ماذا لو لحق بها وقال كلاماً يندرج تحت الوعود المستقبليّة،

لا، عَلِمَ من كلامها أنّها النهاية وقد يكون هذا الفعل نوعٌ من الترجي، لم يفكر أيضاً ما الذي دفعها لتقول ذلك الكلام، كان الانفجار الأول والأخير لعروبة أو كان انفجاراً قديماً لكن الآن سنحت الفرصة لأحمد كي يحترق به !
لم يرمِ اللوم على عروبة في اتخاذها هذا القرار أيضاً، من حقها أن تعيش حياة أكثر لطفاً، كانت الشكوك الكبيرة ، الشك بالمستقبل، الشك بقرار أبيها حول زواجهما، تسيطر على تفكيرها حتّى أصبح الحبُّ لا يجدِ نفعاً، الحبُّ هو الشيء الوحيد الذي أبقاها محاربةً وطيبةً لجروح روحه طوال تلك المدة، يضع الوردة بلطف بليغ على المقعد الخشبيّ بجانبه ثمّ يبادرها بابتسامة لا علاقة لها سوى بالحزن، كانت مجرّد وردة لكنّها في داخله حريق ورد !
لن يعود إلى البيت كي يفكر لماذا حدث الأمر و بأسبابه، كان خبيراً في معرفة الطرق التي تؤدي إلى الخيبات، سيذهب إلى العمل، لم تنتهِ الحياة بعد، هناك الكثير من المهام التي يجب عليه القيام بها، عليه الابتعاد أكثر عن العاطفة، بأن يبتعد عن قلبه، ينظر إلى ساعة يده، قد حان وقت العمل، يتحرك متجهزاً للرحيل وهو يتمتم في ثقة :
-رجلٌ صامد!
ترك الوردة لتذبل على ذلك المقعد، ينبغي عليه أن يكون رجلاً واقعياً فحسب !

سلكت عروبة الطريق الصحيح إلى خيبة الأمل التي يعرفها أحمد جيداً، عادت إلى البيت وجلست وحيدةً في غرفتها واستهلّت بالبكاء، لم تستطع مجاورة الوحدة إلى حدٍ كبيرٍ فسرعان ما دفعت سماعة الهاتف وطلبت قدوم سعاد إليها

ربما سيصبح أحمد شيئاً من الذاكرة لكن عصيّ على النسيان، كيف وهو طموحها وحبيبها الأول وربما الأخير، كانت تفكر باليوم الذي ستقابل به أحمد أمام باب بيتها عندما تكون على عصمة رجلٍ آخر، قد يكون موعداً من ترتيب الصدفة البعيد أو من آثار الحزن الكبير، أول ما دفعها لهذا الموعد المنسوج في خيالها هو أنّها في وقتٍ سابق كانت ترتفع ضربات قلبها كلما سمعت باب بيت أحمد يفتح أو يغلق.

دخلت سعاد غرفتها، مالت ملامح وجهها إلى الأسف عندما رأت عروبة تبكي بحرقة لكن ليس تعاطفاً معها، وقفت في الباب وارتكت إليه بكتفها ثمّ شبكت يديها وقد طال نظرها إلى عروبة التي تبدو في أسوء حالاتها

-لم تستطيعي البوح بشيء، أليس كذلك ؟!

-لقد افترقنا

-إذاً لماذا تبكين، ما فعلتيه من صالحك، انظري إلى التعاسة في وجهك، لا عليكِ من الذكريات والصور، عروبة يجب أن تكوني أقوى من هذه الحال

-لم يكن عليَّ فعل ذلك، إنّه أحمد، بدأت أشعر بالفراغ الذي سيأكل قلبي وحياتي من الآن

-لن يلتهم سوى تلك الذكريات صدقيني، ستكونين في حالٍ أفضل، فقط كفي عن التفكير بذلك

تهز رأسها بالإيجاب ثمّ تميل إلى حضن سعاد كي تأخذ القليل من القوة بعدما جلست بجانبها

-نعم، قلت لكِ كثيراً، أحمد ليس الذي يمكن أن يكون الرجل المناسب، اسمعي يا صديقتي، أعرف أن الكلام الذي سأقوله لكِ للتو سيكون مؤلماً لكن ستجدينه صحيحاً في فترةٍ لاحقة، قد يكون الحبّ شيئاً رائعاً ومن الجميل أن يتوج بالزواج وهذا ليس مقتصراً على أحمد فقط، أنتِ تمتلكين الكثير من المغريات التي يمكن لأي رجل أن يقع في غرامها، ذلك في زمان آخر وفي مكان بعيد عن هذا المكان، الزواج يا صديقتي هو الذي يجعل الحبّ حقيقة، ليس مجرّد حلم، ماذا لو لم تقولي كلامكِ له الآن، سوف تبقين على هذه الحال من التعاسة والانتظار المتكرر، حتّى يأتي الوقت الذي سيقدم لك أحمد وحينها سيرفضه والدك لأنه لقيط، أنتِ تعرفين هذه النهاية، لقد فعلتِ شيئاً صعباً لكن بالطبع أسهل من رفض والدك له، وربما إن شك بوجود علاقة مسبقة بينكما سيصبح أكثر قساوة في معاملته معك، فكري في إمكانية حدوث هذا المشهد وسيكون ما حدث اليوم أمراً طبيعياً

تمسح عروبة دموعها بيديها، كانت مصغيّةً كلَّ الإصغاء لكلام صديقتها.

-ابقي بجواري الليلة

-سأبقى لوقت متأخر، سيسمح لي ربيع

كانت هزيمة مؤجلة يا عروبة، أو ضربةً استباقية ولكن ربما أتت بعد موت الضحية !

احتارت عروبة بين التفكير في قباحة الكلام وبين قباحة حدوثه، لن تبقى سعاد لمدة طويلة معها لذلك تخشى الوقت الذي سيذهب فيه فتصبح عرضةً لشظايا خيالها، وفي ذات الوقت لا تريد أن تعلم أمّها بشيء عن انهيارها كي تتخلص من اختلاق الأجوبة وبالتأكيد سيعلم والدها وهذا من شأنه أن يزيد الأمر سوءاً، تظاهرت أمام سعاد بالتحسن لم تقتنع بكلامها بل كانت بحاجته فقط للتخفيف من النتائج التي سيخلفها القرار الذي أخذته بانفصالها عن أحمد .

يصل صوت أمها من المطبخ طالبة المساعدة

-سأذهب أنا، نالي قسطاً من الراحة، سأقول لأمك بأنكِ توضبين الغرفة

-ولكن

تقاطعها بنبرة:

-لا يجب أن تراكِ أُمكِ وأنتِ على هذه الحال

تنتظر عروبة فينة فيما كان الجواب معلقاً بين شفتيها لكنها لا تشتهي الحديث

-حسناً !

-سأعد لكِ كوباً من القهوة سيساعدك في التخلص من التوتر الذي أنتِ فيه

تغلق الباب بهدوءٍ وإحكام كي تمنع أي أحد من الدخول إليها ومشاهدتها وهي في هذه الحال، كانت عينا عروبة محاطتان بخيطٍ أحمر، قد تشكل من إفراط الدمع .

يمكن لأمها اكتشاف حزنها من نظرة واحدة، ليس لأنها أم، بل يمكن لأي أحد أن يقرأ ويحسن قراءة ما تخبئه العيون الخضراء على أيّ حالٍ كانت، تلمع حينما تفرح وتتخضب بالتعب عندما تدمع !

ارتخت إلى السرير وطوت قدميها نحو جسدها، لم يعد ذلك الأمان موجوداً يا عروبة!

***

في المساء المتأخر ظهر أحمد من أول الشارع الثاني في الحيّ، كانت هناك مجموعة من الشباب تتابع حركة أهل الحيّ على رأسهم ربيع ثمّ يتبعه عماد، يراقبون جميع الشوارع كي يتأكدوا من عدم مراقبة أحد لهم، كانوا يهيئون للقيام بمظاهرة، لم ينتبه أحمد لوجود تجمع الشباب في نهاية الشارع، كلَّ ما يفكر فيه هو الألم

الذي ينبعث من كلّ عضلةٍ في جسده، كما توقع، العمل شاق ولكنه يأتي بمال وفير، كانت حصيلة اليوم ثلاثة آلاف، يمشي ببطء شديد، كان يشتهي الوصول إلى البيت بسرعة، كان شبيه الأعرج في مشيته.

-إنّه أحمد

يتعرف عليه أحد الشبّان الذي كان قريباً منه، نحو أول الشارع تقريباً ثمّ يومي بيده إلى زملائه الذين يقفون في نهاية الشارع بأن الأمور بخير.

-سوف أساعدك

-لا لا أنا بخير، سأصل إلى البيت بعد قليل

يمنعه من مساعدته بعد أن اقترب كفاية ليفعل ذلك، مشي حتّى وصل إلى ربيع ومجموعة الشبّان بالقرب من منزله، فينتهز ربيع الفرصة بالحديث:

-أحمد! هل أنت بخير؟ ما الذي حصل؟ ما عرفتكَ من بعيد !

-لم يصبني شيء، أنا بحال جيدة، فقط كان العمل شاقاً

لم يرغب بالوقوف أكثر، كان متعباً بما يكفيه من الخارج ومتعباً بما يقتله من الداخل، كان واقفاً أمام بيته الذي يقابل بيت عروبة، لا يريد استرداد ما عزم على نسيانه.

بعد هينهةٍ من الصمت، كان ربيع يفكر في كلام أحمد وفي تصديقه أو عدم ذلك، كي لا يطول الحديث يقاطع أحمد الأسئلة

التي تحاك أثناء صمتهما

-سأدخل إلى البيت كي أرتاح

يؤجل ربيع حديثه مع صديقه إلى وقت لاحق، كانت الأسئلة التي سيطرحها كثيرة، لم يرَ أحمد في هكذا حالٍ مزريّة من قبل، حتّى صوته بدا في غاية التعب.

بعد جهد أخرج المفتاح من جيب بنطاله، كان يضعه في المقبس محاولاً فتح الباب وهو مرتكٍ عليه، يدفع الباب بقوةٍ بعد فتحه على آخره حتّى ارتطم بالحائط –قد سمعت عروبة ذلك الصوت- لم يتدرب هذا اليوم لذا لن يكون المشهد المزعوم بأفضل حال أمام أمه ، ألقى تحيةً سريعةً على أمه الماكثة في البهو، كانت تنتظر طهوها حتّى ينضج، لا تستطيع استخدام المطبخ لذا تقوم بمعظم أعمالها في بهو المنزل

تتذمر لحالهِ وتصرخ في وجه قيصر كي يقوم بمساعدته

-مجرد تعب أمي، سأعتاد في الأيام القادمة

-أرجوك يا بني، لا أحتاج إلى المزيد من الهموم

-لا تهتمي أمي، سأرتاح في غرفتي، سأكون بخير بينما تحضرين العشاء

رسم ابتسامة مزيفة على وجهه، ربما ينجح ذلك في إقناعها بأفضل الحلول سوءاً

مشى بخطوات هادئة إلى غرفته، كانت أمه تراقبه بعيون الشفقة،

هو رجُلها الوحيد الذي حمل العبء بأكمله دون أن يتذمر من ثقله، دخل إلى الغرفة ثمّ ارتكى على الباب بعد إغلاقه، قد خارت قواه في هذه اللحظة، وقف لحظة ليرتاح من هذا العالم، انحنى برأسه بهدوء إلى الباب، إنّه النضال في وجه العالم بأسره، كانت الحياة تمنعه من الوصول إلى سريره، هذا جلُّ ما يتمناه الآن، مد يده طالباً مساعدة الحائط فشعر بشدٍ عضليٍّ في قدمه اليمنى منعه ذلك من التحرك، رمى بنفسه إلى الحائط كي يمنع سقوطه، رجلٌ صامد !

حشرته الحياة في مكانٍ صغير لا يتّسع سوى لخيار واحد، لم يستطع أن يرفض العملَ الذي سنح له، عملَ به رغم كرهه له ومعرفته بعدم قدرته على إنجازه، كان لا يراوده سوى أنّه أهدر الفرصة الأخيرة و الوحيدة، قد لا يستطيع العمل في يوم غد أو في الأيام المقبلة.

ارتاح أخيراً، شيء من النعاس نزل على جسده، كانت رغبته بالنوم تشبه الرغبة بالهروب من الموت، مسح دموعه بقميصه المتّسخ ببقايا الأرز والطحين وغفيَّ على هيئته تلك !

ولدته أمه على هاوية بين الموت واللاشيء، عندما وجده محي الدين ، كان حلمه الوحيد في تلك اللحظة أن يعيش، لو استطاع الاختيار في ذلك الحين لما بكى كي لا يسمع صوته أحد، ثمّ يموت بسلام، لم يشعر أحدهم بحال الفقراء في هكذا لحظات مؤلمة وإن

ماتوا وهم مخيبين يقولون: كانت حياتهم سعيدة، والفقراء قبل الموت كالموتى المارين بجوار المقبرة وبعده في قبورها !

***

كان ليلاً حالكاً، كأنّ أحد الملائكة رمى وشاحاً أسود على السماء ولم يتسنَ للضوء الانبعاث من خلاله.

-لقد حان الوقت، الحيّ آمن بأكمله

-أخبر الجميع بأننا سنجتمع بعد ربع ساعة في ساحة الحيّ كي نبدأ بالتظاهر

-كما طلبت . .

يملي ربيع النصائح على مجموعة الشباب المسؤولين عن تفعيل المظاهرات في هذا الحيّ، كان عماد يده اليمنى والذي يعرف جلَّ الأشخاص من خارج الحيّ كالذين يقدمون الدعم والشعارات وطبيعة المسار الذي ستجري به الاحتجاجات، كان ربيع يحتاجهم دائماً لذا تسنت له الفرصة بالتعرف إليهم

في كلّ مرّة يتظاهرون، سرعان ما يغلق أبو ممدوح بقاليّته أثناء مرورهم من أمامها ويتلوه في ذلك كلُّ أصحاب الأرزاق الذين يعتمدون على محلاتهم في أنحاء الحيّ من أجل العيش، أحدهم كان يرمي الشتائم بينه وبين نفسه وأحدهم كان يقول: لا حول ولا قوّة إلا بالله ويكتفي، لا يتسنَ لأحد معرفة الشبّان الذين يقومون بحركات الاحتجاج، كانوا يضعون أشمخةً على وجوههم

فلا تظهر سوى عيونهم، يمرّون في الشارع الأول ثمّ الثاني، بدا الحيّ هادئاً عند وصولهم بالقرب من بيت أحمد في نهاية الشارع، قد أغلق الجميع محلاتهم وعادوا إلى البيوت ليصغوا جيداً إلى هتافاتهم وأصوات الاحتجاج والتصفيق، بعد الخروج من الشارع الثاني يعودون إلى الساحة، يقفون قليلاً ثمّ يتّجهون نحو الشارع الثالث، لمح أحد الشبّان ضوءً من بعيد يأتي باتجاه الساحة سرعان ما يخبر ربيع بذلك على الهاتف النقّال، كان لبعضهم مهمة في مراقبة الحيّ وقد يحمل بعضهم عصيّاً لحماية أصدقائه المحتجين من أيّ خطرٍ قد يهددهم، يأمر ربيع أصدقائه الذين يقارب عددهم المائة بالاختباء في الشارع الثاني الذي خرجوا منه للتو بالتراجع منه بهدوء شديد، اختفت الأصوات تماماً، كانت السيارة تابعةً لجهةٍ أمنيّة، تقف في الساحة ويترجل منها كمال يعمل مساعداً تحت يد حسن مدني ومعه أربعة عناصر من الأمن بيدهم عصي تستعمل لفضِّ الشغب، يتجولون في الساحة ويفتّشون عن أحدهم، قبل أن يدخلوا الحيّ ببرهة استطاعوا سماع أصوات الهتاف لكن الظلام منعهم من رؤيتهم، كانوا مراقبين في غفلةٍ منهم

-اسمعوا، إنهم يظنون أننا هربنا إلى بيوتنا، سوف نجبرهم على الرحيل حتّى نكمل ما بدأنا به

يكمل ربيع بصوت خافت :

-عددهم قليل، مجرد دوريّة صغيرة ولا يملكون سوى عصيِّ الشغب، اسمع يا عماد سنتراجع إلى الخرابة وأنتَ ستأخذ شابّين و تخرجون للتظاهر أمامهم، عليكم الهروب عندما يرونكم، سنكون بانتظاركم في الخرابة، كلُّ ما عليكم فعله هو لفت انتباههم كي يلحقوا بكم، عليكم استدراجهم إلى الخرابة ونحنُ سنتكفّل بالباقي !

-لكن من الذي أخبرهم بهذه السّرعة ؟؟

-سنعرف في وقتٍ لاحقٍ، عليكَ التحرك حالاً، هيّا

-حاضر

يأخذ أربعةً من الشباب ويبدأ بتنفيذ الخطّة التي وضعها ربيع، يبدؤون التظاهر حينما يصلون إلى أوّل الشارع الثاني، يحدد كمال مصدر الصوت وعلى عجلٍ يأمر عناصره باللحاق بهم، تتسارع الخطى خلف الشبّان الخمسة، يبقى كمال بجوار السيّارة في منتصف السّاحة، تحظى الخطّة المرسومة بنجاح كبير، قد استطاع ربيع وأصدقائه نيل مرادهم بضرب عناصر الأمن، كما استحوذوا على العصيِّ وسال الدم من رأس أحد العناصر إثر رشقهم بالحجارة، يسمع كمال أصواتاً متداخلة، لم يفهم فحواها، ترطم في ذلك الوقت إحدى الحجارة بالسيّارة ويظهر العناصر متحاملين على بعضهم وكأنهم نجوا بأعجوبة

-علينا الرحيل يا سيدي، عددهم كبير

يصعق كمال، كان يشتعل غضباً شيئاً فشيئاً، يصابُ بحجرة من أحد الشبّان في عظم قدمه وهو يحاول الهروب مع عناصره، يكاد لا يستطيع المشي لولا أنّ أحد العناصر الأقلُّ ضرراً حمله إلى السّيارة وتولى عنه القيادة، تدور السيارة في سرعة بالغة في ساحة الحيّ وترحل في ذعرٍ كبير، انتاب الشبّان شعورٌ كبيرٌ النصر، سرعان ما عادوا إلى نشاطهم القديم بهمّة أكبر، تجمعوا في السّاحة مجدداً وبدؤوا يهتفون ويصفقون .

-الكلاب، آه قدمي

-هل نذهب إلى المستشفى يا سيدي؟ قد تحتاجون إلى القليل من العنايّة

كان السائق حليف الحظِّ، لو لم يتمكن من النجاة من إحدى الأحجار أو ضربات العصيّ لكان الجميع في عداد الموتى، ربّما، أو على أقل تقدير لن يخرجوا بجروح و رضوضٍ بسيطة كما عليه الحال الآن

-لا، لن نذهب إلى المستشفى، نحن بخير، عد إلى القسم

ما يخلفه الجزر هو المدُّ، يدخل كمال إلى مكتب حسن، يطلبُ منه العودة إلى الحيّ للقيام باعتقال الشباب الذين الحقوا الأذى به و يعناصره، لكن هذه العودة كانت بسبع سيارات مرصوصةٍ بالعناصر وحافلتين كبيرتين لجمع الشبّان، على الجانب الآخر من الحيّ، لم يتوقع ربيع أو أحدهم عودة رجال الأمن، كانوا منشغلين

بالاحتفال بنصرهم في المدِّ الأوّل !
كانت قدم كمال تؤلمه لكنه تحامل على ألمه بالغضب، ربطها بقطعة قماشٍ ثمّ ألقى التحذيرات على مسامع العناصر من ضرورة وضع الخوذة إذا تعرضوا لرشق الحجارة إلى الانتباه لنصب كمينٍ لهم، عادوا، قبل الدخول في الحيّ طلب كمال من جميع السيّارات إطفاء الأنوار، كانوا يريدون الدخول خلسة ليلقوا القبض على أكبر عدد ممكن من الشبّان .
قبل الوصول إلى ساحة الحيّ بقليل، تندفع السيارات بسرعة كبيرة، كان صوت زحلقة الإطارات في ساحة الحيّ مروعاً، هبط الجميع من سياراتهم برشاقة المحارب الفذّ
يصرخ كمال :
-لا أريد الخروج من هنا وهناك مقعد فارغ في الحافلتين، انتشروا أيها الشجعان
لم ينتقل الخبر بسرعة بين الشبّان، كانت تعزيزات كمال وخطته بدخول الحيّ محكمة تماماً، توزع العناصر في جميع شوارع الحيّ، كانت المظاهرة قد انتهت قبل قليل ولكن بعض الشباب ما زالوا مجتمعين ويتبادلون أطراف الحديث، يلوذ عماد بالفرار، كان بجوار بيته وشعر بخطبٍ ما فدخل، ربيع لم يحالفه الحظ ، أول شارع دخل إليه العناصر هو الشارع الثاني، قد حوصِرَ من قبلهم من مقدمة الشارع وآخره، بعد أن ركض محاولاً الهروب إلى منزله

وجدهم في انتظاره، بدت علامات الفرح على وجه كمال حتّى أتى أحد العناصر إليه :

-سيدي لم نستطيع التقاطهم جميعاً كان الأمر منتهياً حين وصلنا

-كم أصبح لدينا ؟

-لم يعد هنالك متسعٌ في الحافلة الأولى، أمّا الثانية ما زالت فارغة تماماً

-اسمع، لا أريد العودة إلى القسم وهنالك مقعدٌ خالي من أحدهم، لا أريد أن أكرر ذلك، أخرجوهم من بيوتهم

تقع عين كمال على الشارع الثاني الذي عاد عناصره منه منهزمين، سرعان ما يأمر العناصر باللحاق به، بدأ يدقُّ الأبواب بيتاً بيتاً وبدون سؤال وحتّى إن لم يكن شاباً، كان يريد أمراً واحداً: أن يملأ الحافلة الثانية من هذا الحيّ، يريد الثأر من الذي أصابه في قدمه !

صحا أحمد على صوت طرق الباب، كأن أحدهم يريد مساعدة عاجلة، أو حدث خطبٌ ما ويطلبون المساعدة منه

يخرج – بعد وهن وقوفه - من غرفته، كانت أمه تحذره من فتح الباب، لم تطلب منه ذلك!

-لا تفتح يا بني، لست مطمئنّة، كأنّ الأمور لا تجري على خير في الخارج

-أمي، كان ربيع برفقة شبّانٍ في الحيّ، يبدو أنّه هو، أخشى أنّ

هناك أمراً سيئاً ويطلبون المساعدة !
-لست مطمئنّة لذلك، كن حذراً يا بني
-لا تخافي أمي، أرجو أن تكون الأمور على خير
يقترب من الباب بحذر
-من في الباب ؟
لا يصدر صوت من أحدهم في الخارج، يجري أحمد خلف فضوله ويفتح الباب بجهدٍ كبير، سرعان ما ظهر كمال في وجهه، أمسكه من قميصه ورماه في الخارج
-أحضروه إلى الحافلة
-لماذا ؟
يقترب كمال حتّى تزول المسافة بين المتحدث والمتلقي المرمي على الأرض، وبهدوء بالغ :
-لأنكَ أحد المشاغبين، أحضروه إلى الحافلة وحافظوا على هدوئه !
تحاول الأم معرفة الذي حدث، تدفع كرسيها المتحرك بعد سماعها حديثاً متداخلاً بين الترجي والقسوة، لم يحالفها الحظ كي ترى ولدها ملقىً على الأرض تمّ أحدُ المعتقلين، شاهدت الباب مفتوحاً للشارع فقط.
إنه العجز بأقسى صوره، لا تستطيع اجتياز العتبة بكرسيها المتحرك كي تستطيع معرفة ما حدث مع أحمد، لم تصرخ، كانت الأصوات في الشارع بين الإنكار وصوت الآهات نصّاً مفهوماً لها، لمعت

عيناها في ضيق، تلك التي فقدت نعمة المشي كي لا تقدر على اجتياز عشرة سنتمترات من ارتفاع عتبة، ذلك كان جلُّ العجز، أن تخسر أثمن ما تملك من أجل ولدها، وفي وقتٍ لاحق لا تستطيع معرفة ما حدث له بعد باب البيت، ضربت على وجهها، كانت تخشى استيقاظ قيصر الذي لم يعد بحاجة إلى المزيد من آثار العجز الذي خلفته وستخلفه له العائلة، لطمت وجهها بقسوة أكبر عندما بدأت بوضع الاحتمالات بعد أخذ أحمد من البيت !

-لا يوجد أحد في البيت، أخشى أنّ مكروهاً قد أصابه

أصيب قاطنو الحارة بالذعر، كانت سعاد في ذلك الوقت تود العودة إلى البيت أثناء هدوءٍ لم يدم طويلاً، رفعت سمّاعة الهاتف الأرضي واتصلت بالبيت كي تتأكد من سلامة أخيها بعد الأصوات التي سمعتها هي وعروبة من الشارع، كانتا تعرفان أنّ هناك أمراً سيئاً قد حصل، كانت الأصوات مختلفة فلم يتسنَ لهما معرفة أحدهم، كلَّ ما يمكن معرفته أن هناك شيء سيئ في الشارع

-ابقي في بيتنا، خروجك في هذا الوقت ليس أمراً عاقلاً

-أخشى أن يصيب ربيع شيء ما يا عروبة، إنّه كلُّ عائلتي

-لا تقلقي يا عزيزتي، ستكون الأمور بخير

خيّم القلق على أفكار سعاد، تحاول عروبة طرد تلك التوقعات من ذهنها، كانت تخشى من قلق سعاد ربما حصل مكروه لأحمد أيضاً، يعنيها هذا الأمر جيداً وتود الخروج من البيت والتأكد من

سلامته أكثر من رغبة سعاد بمعرفة مصير أخيها لكنها تظاهرت باللامبالاة أمامها وسوف تكمل ما قد بدأت به، تقترب من باب البيت، لو استطاعت سماع كلمة واحدةٍ منه كأنّ يقول لها: أنا بخير، حتّى وإن أتبعها بكلمة بدونك !!

-ماذا تفعلين قرب الباب !

نطقت عيناها قبل أن تتحدث، لن يغير الفراق شيئاً، ربما تزيد الحالة النفسيّة سوءاً كلما رفعت يديها كعلامة الاستسلام في وجه الواقع، إنّه تصرفٌ عقلاني لفتاةٍ مثل عروبة تعيش في عائلة تتبعُ هذا المنهج في التربيّة ولكنها تحبه، إنّه القلب، دائماً لا يرتبط بالمنطق !

-كنت أحاول معرفة إذا كان أحدهم بالقرب من الباب !

يعلو صوت أبيها من البهو وهو يتحدث بقساوة عن مصير الشبّان الذين خرجوا في المظاهرة، كان يتمنى حدوث ما حدث ظناً منه أنّهم جلبوا الفوضى إلى الحيّ وهنالك جهةً مسؤولة عن تأديب المشاغبين وعليها القيام بمهامها على أكمل وجه، يكمل في حدّةٍ متصاعدةٍ

-لو كان ولدي قصي شاباً ولم أستطع منعه من مشاركتهم هذا العبث، لن أتأسف إذا حصل له أيّ مكروه، هذا الأمر ليس تسليّة، متى يفهم الجميع هذا الكلام ؟!

كانت أمّ قصي تستمع إليه موافقة من داخلها إلى قوله، يتفقان في

وجهة النظر وابنه قصي في عمر ثلاث عشرة سنة، ما زال صغيراً، لكن والده استَشهد به كأغلى ما يملك

لم تتأسف سعاد لسماع ذلك الكلام، طالما كانت تحذِر أخيها من تنظيمه للمظاهرات، مخاوفها كانت ترافقها دائماً، حاولت تهديده عدّة مرات لكنه في الكثير من المواقف لم يأبه لتهديداتها كالعائلة و أنّه الوحيد المتبقي لها، كان هذا أمراً يمس كرامته الشخصيّة، تقترب عروبة من صديقتها، تتبدل الأدوار بين الطبيب والمريض، قد خجلت من كلام أبيها الذي بدا مسموعاً بوضوح

-أنا آسفة، ستكون الأمور بخير يا عزيزتي

-لا تتأسفي، طالما حذرته من النتائج !

***

الظلام دامس، لم تكن فعلة الملائكة، كانت السماء مغطاةً بالغيوم حاملة المطر، يرسل صوت الرعد تنبيهاً للأرض العطشى، سيأتيك أوّل الغيث، لم يدخل الشتاء بعد لكنها بادرةً ما بالخير قبل قدومه يوضَع جميع الشبّان في السجن المركزيّ، كان الكثير من الشباب هناك، قد عمّت هذه الحركة في الآونة الأخيرة أرجاء البلاد

-اجلس هنا، بهدوء يا صديقي

-شكراً لك

بعد أن ساعد ربيع صديقه أحمد في نيل قسطٍ من الراحة بجانب الحائط، المكان صغيرٌ جداً، لكن المعتقلين في هذه الغرفة يعتنون

ببعضهم البغض، ما يقارب خمسين شخص في ستة مترات مربعة، وقف شخصين حتى يتمكن أحمد من الجلوس والارتخاء للحائط

-لم أكن أعرف أنّ هذا قد يحصل، لا علاقة لك، أنا أعتذر

-لا عليك، سنكون بخيرٍ جميعاً

يطبطب ربيع على كتف صديقه المضنى من التعب، لم يكن الاعتذار في مكانه، الأخطاء تلاحق ربيع حتّى أوصلته إلى هذا المكان

-آه

-هل أنت بخير؟

-قدمي تؤلمني، وأكاد لا أشعر بظهري !

شعر ربيع بالخيبة نحو صديقه، ومن ثمّ امتلأ قلبه بالحقد، حتّى استقرّ على حقده، هم السبب، لم يُحمِل المكروه الذي حصل له ولأصدقائه وخصوصاً أحمد الذي لم يكن له علاقة لا قريبة ولا بعيدة بالأمر على عاتقه، كان مؤمناً بقضيته

-إنها تمطر..

يحاول أحمد تغيير المسار الذي انطلق به تفكير ربيع، صديقه الأقرب، لم يرمي أيّ كلمة أخرى قد تضع ربيع في موقع الظالم أبداً، في تلك اللحظة راود ربيع شعورٌ بالذنب والأسى سويّةً، يقول صاحبه دائماً : رجلٌ صامد

أحدهم ينام ساعتين ثمّ يوقظه صديقه الذي قضى الساعتين واقفاً

على قدميه، قد حانت ساعة الراحة، يتبادلان الأدوار، هنا يمرّ الوقت بطيئاً، لا مفرّ من النجاة من ذلك إلا بالصبر.

يسمع الجميع صوت دويٍّ من خلف باب السجن، كان أحدهم يريد الدخول إليهم، يفتح الباب فيقتشع الظلام الذي يحاول السيطرة على المكان بأكمله، هنالك ضوءٌ قد وضع في الحائط وحوله أسلاكٌ من الحديد المشبّك، كان الضوءُ خافتاً وتزيد مشابك الحديد منع نقل الضوء، دخل كمال وبيده عصاً، طأطأ رأسه في استفزازٍ

-لا أريد إطالة الحديث، من منكم أصابني بقدمي ؟

يعمُ الصمت، تراشقت كثيرٌ من الحجارة عندما حاول الهروب مع عناصره، لا يمكن الجزم أو حتّى التخمين بأنّ أحد الشبّان فعل ذلك

-إذاً لا تريدون الاعتراف، أيّها المجند

-نعم يا سيدي

-في الصباح الباكر أريد جميع شبان الذين من حيّ تشرين في زنزانة واحدة وحدهم، ولأني رجل رحيم سأدعهم ينالون القليل من الراحة حتّى الصباح

لم يرغب بالبحث عن فاعلها، كان متعباً كفاية وقدمه تؤلمه، في الصباح سيتلذذ في ذلك هناك الكثير من الشباب الذين يجب أن يلتقي بهم، قد يتعرف على أحدهم أو يعترف له أضعفهم أثناء

التحقيق معه
غادر الخوف معه، الأمان الوحيد في هذا المكان هو بقاء باب الزنزانة مقفلاً، الشبّان الجدد لا يعرفون هذا الاعتقاد، القدامى فقط من يعرفون ذلك، كانت علائم الخوف الذريع ملتصقةً على وجههم
-إنه رجلٌ كاذب، ستصدقون هذه الجملة في الصباح
صوتٌ عريضٌ أتى من صدر الزنزانة، كان رجلاً ذو لحية كثيفة غير مشذّبة، ناصح البنيّة وعيناه عسليتان فاتحتا اللون محمرتان، كان مضطجعاً بكامل جسده على الأرض لا يستطيع أحد من الشباب محاورته في حقه بالجلوس أيضاً، الجميع في هذا المكان يخشون غضبه وهو لا يخاف من أحد، إنه أبو الهدى قضى إحدى عشرة سنةً من حكمه، سنتان منها في السجن الانفرادي يعرف الجميع مدى كرهه لكمال، طالما حدثهم عن ذلك لكنهم لا يعلمون السبب، لم يقل لمرّة واحدة ما السبب الذي دفعه لهذا الكمّ من الحقد الظاهر في عينيه وقوله .
تبين للجدد عدم الاطمئنان من حديث الاثنين أبو الهدى وكمال فلم يعطوا للأمر شئناً اكتفوا بالصمت
بعد ساعةٍ ونصف من الانتظار المرير للواقفين والمحاولين أخذ غفوةٍ دون الشعور الحقيقي بالراحة، يحاول أحمد الوقوف، قد حان دور الشّاب الذي وقف من أجل أن يجلس هو

-تعال
-أستطيع الصمود، لا عليك، أنت تحتاج إلى المزيد من الراحة
يفضّل ربيع الوقوف كي يستطيع الشّاب الجلوس كبديل عن صديقه أحمد
-اجلس مكاني، ارتحت قليلاً، يمكنك النوم أيّها الطيّب
-شكراً لك
يجلس في الحيز الذي تركه ربيع ظهر له بأن أحمد لا يستطيع النوم من وجعه لا سيما وقد تلقى بعض الضربات أثناء إحضاره إلى القسم
-لا تستطيع النوم ؟
يبتسم أحمد في ازدراء الجواب الذي كان يحضّره وعدّل على قوله، قد استبدله بكلامٍ عابر
-هذا حال الجدد هنا
-الحمد لله على أيّ حال
-ما أسمك؟
-ياسين، أقضي حكمي في هذا المكان، لا تسأل ما الجريمة
-أدرس الحقوق، ربما أستطيع مساعدتك
يضحك ياسين بهدوء نال الارتياح من قلبه، لم يكن الحديث طويلاً بينهما لكن ظهر ذلك التودّد بسرعة بالغة، من شأن ياسين أن يرتاح بالحديث مع أحمد بعد ذلك

- سرقة، سرقت بيت أحد الضباط وقد عفا عني لذا يتوجب عليّ أن أقضي الحكم العام في هذا المكان ثمّ العودة إلى حياتي الطبيعيّة

هذه المرة الأولى الذي يقابل فيها أحمد أحد المجرمين، لا يجب أن نؤمن بجميع التقاليد، هناك خيطٌ رفيع يفصل بين الحقيقة الظاهرة والحقيقة الذي أخفاها ياسين، كانت جليّة في حديثه عن السرقة، لم يشعر حينها أحمد بالرغبة بالابتعاد، كان يتمنى أن يطول الحديث أكثر، لم يجرِ وراء رغبته بمعرفة القصّة الحقيقيّة خلف تلك الجملة التي ألقاها ياسين، اكتفى بالشعور بها وبشعوره أيضاً أنّ هنالك شخص –من وجهة نظره- مظلومٌ في هذا المكان

غيّر ياسين نبرة صوته كأنه لا يريد الانغمار في التفاصيل

-وأنت؟

-أحمد، لا أعلم ما السبب الذي أتى بي إلى هنا

-على رسلك يا صديقي، الجميع هنا يتظاهرون بالبراءة المطلقة وسرعان ما يعترفون بجرائمهم بعد مدةٍ قصيرة من دخولهم السجن، قد لا تكون كذلك، لكن لن يصدقك أحد مهما أدعيت وصمدت

-حقاً ؟

-لم أمكث هنا فترةً طويلة لكن دعني أقدم لك أحد اكتشافاتي هنا تعيش أصناف متعددة من البشر بما يقارب مدينة بأجمعها،

هناك الشرير والطّيب والمظلوم والملحد والموسيقي واللاعن والنمام والمتمرد والكذّاب والسارق -يشير إلى نفسه-
يقابلها أحمد بضحكة صغيرة، كان ربيع يتابع حديث ياسين بإصغاءٍ شديد، قد زاح القليل من الهمّ عن قلبيهما، يكمل
-والقاتل والهارب من القتل والمعتوه والفقير والمصاب بالكآبة، كما يوجد عدد من المفكرين و الشعراء والأذكياء والأغبياء وشديدي الغباء والحالمين والملوثين وصغار الكسبة
-جميعهم!!
باستغراب، تبين لياسين أن أحمد فهم كلامه على سبيل المزاح
-أنا لا أمزح، أرجو ألا تمكث طويلاً في هذا المكان، لكن لو كنت ذكياً ستستطيع اكتشاف ذلك في مدة قصيرة
-أهنالك مزيد من الاكتشافات يا ياسين؟
-فقط عليك الصبر عندما تعرف أحدها!
ما خبئته الجملة التي قالها ياسين أخيراً عادت به إلى مأساته، هل سيعيش المزيد من الأحداث السيئة، ماذا كان يعني بالصبر، كلمة اكتشاف وحدها كانت تعني وجود أشياء مروّعة، في هذا الوقت، وفي هذا البقعة من العالم
-أعي ذلك يا صديقي، عندما أصل إلى إحدى اكتشافاتك تلك سأساعد نفسي قدر الإمكان
رجلٌ صامد!

يطبطب أحمد على كتف ياسين، لقد بلغ السرور عينيه ثم يقول
-من الجيد أنك كنت تصغي لحديثي!
-قلت لي أنّك ستعرف الأذكياء، وقد تسنى لك معرفة أحدهم الآن !
ما الذي سرقه صاحب هذا القلب الطيّب حتّى يصل إلى هذا المكان، كان كلامه أبيضاً مريحاً لسامعه وكأنّه في إحدى المقاهي الشعبيّة ويقصُ حادثةً مضحكةً لأصدقائه، خطرت الكثير من الاحتمالات لأحمد، كان يفكر ،إذا كان لياسين عائلة في الخارج، إذا كان مسؤولاً عنها وسرق من أجل ذلك، إذا كان مرتاحاً من داخله أم أنّه يصنع السعادة من اللاشيء ولا يفضل الدخول في نوبات من الاكتئاب كما كان يفعل هو في معظم الأحيان أو في مجملها!
عرف ياسين السبيل إلى قلب أحمد، اعتذر ياسين أمام أحمد عن سوء المكان الذي التقيا فيه معتقداً بأنّ أكثر الأماكن قذارةً في هذا العالم لا يمكن أن يكون جميع من فيه سيئين !
قد تغير، سنحت له الفرصة في السجن بالتفكير ملياً بكلام المقدم يحيى، عزم على النسيان كلِّ الظلم الذي تعرض له من المقدم أبي الفهد، كان المقدم يحيى أول من دفعه بتغيير جهة سفينته نحو السلام !
وما قاله للتو من حواره مع أحمد زاد إيمانه بالمضيّ في تحقيق

حلم أبيه وبالوعد الذي أطلقه على نفسه أمام المقدم يحيى، من الغريب أن يحدث ذلك داخل السجن، في الغالب شعور الجميع هناك بالظلم يصبح عظيماً
الناس يتغيرون، حتّى وإن كانت السفن مخصصةً للإيجار في الماء فقط، قد تدّعي الحاجة إلى إرسائها على برّ الأمان خوفاً من خبايا المحيط العظيم، هناك قد تغرق السفينة ولا يستطيع المرفأ الوصول إلى حطامها أو ربما لا يصل خبر الغرق من أصله ، قد نسمي الهروب بأحد الأحلام !

***

استيقظ الصباح، قد نُقِلَ جميع الشبّان الذين يعيشون في تشرين الأول إلى زنزانة ليكونوا بمفردهم، بدا أرق الليل المتواصل على وجوههم، لم تكن ليلة هادئة، يفتح الباب، يدخل كمال مبتسماً، ليلة الأمس أعطته الكثير من النشاط، قد نام اللّيل كلّه
-اممم، اطلعت على سجلاتكم وعرفتُ كلَّ شيء عنكم، سأطلب منكم ألّا تكذبوا أثناء َالتحقيق، الكذب في هذا المكان يزيد مجريات التحقيق سوءاً، أمّا بالنسبة للذي أصابني بقدمي له قوانينٌ خاصّة سأعامله بها إذا لم يعترف، أمّا إذا اتفقتم جميعاً على إخفاء الجريمة سوف تعاملون جميعاً بحكم القوانين الخاصّة، أفهمتم ؟
بظلِّ الصمت الذي حلَّ بالمكان، تُسمع صوت خطا قادمة نحو

الزنزانة، يدخل حسن مدني سرعان ما يلقي كمال التحيّة بحرارة، قد نسي وجع قدمه، يخاف من المدني كثيراً كما يخافه جميع عناصر هذا القسم، يؤشر حسن بعينيه لكمال كي يقترب منه، لا يريد لأحد من السجناء سماع ما سيقوله

-إلحق بي حالاً إلى المكتب قبل أن تبدأ بالتحقيق هناك الكثير من الأمور التي علينا ترتيبها قبل ذلك

-حاضر سيدي

يدير حسن ظهره للسجناء، عندما يصبح وجهه مقابلاً للباب، يسمع صوت أحدهم يقول

-يا سيدي

إنه أحمد، يقترب من حسن مدني الذي تنبه لصوته والتفت، بدا صامتاً يريد الإصغاء لما يودّ قوله هذا الشّاب

-سيدي، أنا لم أكن معهم في المظاهرة، لقد أخرجني هذا الضّابط من البيت

يبتسم حسن في ازدراء، كان يرمق أحمد بنظرةٍ حقيرةٍ ثمّ التفت إلى كمال

-أحقاً ما يقول أيّها الضابط ؟

-لا يا سيدي، أنا أمسكت به بيدي وسط المشاغبين!

هي لحظة خاطفة، دفع حسن بيده على صدر أحمد فارتمى على الأرض، دهس على قدمه باحتقارٍ شديد، يضغط بتناغم طرديٍّ

بين أسنانه وعلى قدم أحمد
-ألم يحدثك عن مصير الكاذبين؟
لم يكن خائفاً بقدر ما كان مذهولاً، من هو الكاذب في هذه الحالة ؟
في فينة شعر بالذلِّ، لم يرد الإجابة بتلك الكلمات، علم أنّ هذا الحادث قد يحمل الأذيّة للكثيرين حتى وإن كانوا يمشون على الرصيف كما يتطلبه القانون، رفع حسن قدمه وتابع نظره إلى أحمد حتّى خرج من الباب، أطلق كمال صفيراً محاولاً الشماتة بأحمد، ثمّ يومي له بيده الوداع
-سأوافيك لاحقاً، وداعاً
يغلق الباب، يهرع ربيع ليطمئنّ على صديقه
-أنا بخير، بخير
-كنت دائماً تقول لي أنّ المقدم يحيى رجل طيب، ربما في الحيّ فقط
تنبه أحمد بيأس إلى هذه الكلمة، هزّ رأسه بتأسف، لم يتغير شيء، كان على يقين أنّه أحد السيئين في هذه المهنة، وأنّ المقدم يحيى أحد الطيبين ولا يجوز التعميم من خلال موقف واحد وإنّ كان كمال إضافة و تغزيزاً للصنف السيء
دخل كمال بهدوء إلى مكتب حسن، ألقى التحيّة ثمّ هرع لإشعال لفافة التبغ التي انتشلها حسن من العلبة حين دخل كمال

-لن يهدأ الحيّ يا كمال
-سأتخذ كلّ التدابير لتحقيق الهدوء يا سيدي
-قلتُ لكَ لن يهدأ أيّها الغبي، أأصابك الطرش ؟
-إذاً لن يهدأ يا سيدي
-أصغي إليّ : أريد شاباً منهم كي يقوم بمهمّة في الحيّ نفسه، ويجب أن يكون صاحب سوابق
-لم أفهم !
-هذه فرصة سانحة للتفكير في مشروع الحاج فكرت، فما حصل في الفترة الأخيرة الكثير من الشباب الذين يدخلون إلى القسم بأعمال الشغب يعودون مرة أخرى لنفس السبب، أريد رجلاً منهم أستطيع الاعتماد عليه في تنفيذ الخطّة التي أرسمها بدون أخطاء، ستقوم بتأديبهم وكالعادة سيكتبون تعهدات بعدم تكرار فعلتهم، وكما فعل غيرهم بعد أن كتبوا التعهدات، سيعودون إلى الحيّ وينظمون المظاهرات من جديد
-نعم
-سيقوم ذلك الرجل بإطلاق النار عليكَ وعلى عناصرك حين تحاولون فضّ التجمعات والتظاهر
-لكن يا سيدي
- لا تخف لن تموت ولن يتأذى أحد، فقط هذا ما يجب أن يعلمه الضباط الآخرون ورئيس قسمنا الأمني، ستكون فرصة ذهبيّة

لإعادة فتح السجلات القديمة عن طريق الحاج فكرت وتذكير البلديّة بأنه مجرّد مشاع لا أكثر، وأنّه سيتولى المهمّة بإعادة إعمار الحيّ كمتعهد ومن باب الأحداث الأمنيّة السيئة التي يمر بها الحي لن يمانع أحد هذا الاقتراح، سيكون بمثابة حلٍّ مثالي

يفتح كمال فمه لا شعورياً، كان مذهولاً لشدّة عبقريّة حسن في تمهيده لخراب الحيّ!

-عُلِم يا سيدي

-كمال، لا أريد أخطاء في هذه المهمّة بالتحديد، راجع سجلاتهم من جديد، حاول العثور على أكثرهم شغباً بأن يكون له سوابق كالسرقة والنصب والاحتيال ما إلى ذلك، وأخيراً أوجد حلاً لقدمك اللعينة وإلا قطعتها

-حاضر يا سيدي، سأنفذ حالاً

يلقي تحيّة الخروج، ثمّ يهرع لتنفيذ التعليمات كما أملى عليه حسن بدقّة متناهية، لم يصل حسن إلى هذه المرتبة عن عبث، كان خرابه دقيقاً، يعرف كيف يفتت خصومه دون أن يلحق الأذى بنفسه، يستطيع أيضاً التلاعب على القوانين بذكاء، لم يكن مجرد ضابط، كان حافظاً للقانون ومطّلعاً على كلّ ما يخص السلك ويعرف أيضاً من يمكن التعامل معه من ضبّاط القسم ومن لا يقبل ذلك، من يستطيع الضغط عليه ومن لا يستطيع، ظلَّ حسن مديناً للمقدم يحيى بحياة ابنته سلمى حتّى ذلك الوقت، لم

يطلب منه أمراً غير قانوني، يعرفه رجلاً نزيهاً لا يقبل الرشوة ولا الخوض معه، ظلّ بعيداً عنه ومحافظاً على روح الزمالة بينهما كلّ تلك الفترة، ليس بدواع عدم قدرته على إيذائه، في هذه البلاد من ليس له من يحميه هو النزيه في معظم الأوقات، كان يستطيع إيذائه لكنه حفظ الودّ، لم تكن حياة ابنته رخيصة الثمن !

عاد كمال لتمحيص سجلات الشبّان، وتعزيز المعلومات التي حفظها حول الجميع، هذا الرجل هو بيت أسرار حسن، كان ملازماً له في كلّ الخراب الذي صنعه على مرّ السنوات، يعلم جيداً أنَّ ذلك بمقابل، لا يمكن لرجل ذكي مثل حسن أن يضع روحه في كفّ ضابط مُسير مثل كمال، لذا ليس لديه الجرأة في مخالفة أوامره في النية البعيدة، وفي النية القريبة كان مسروراً لحصوله على المال الوفير منه في كلّ عمل أو مشروع أو إتمام قضيّة لأحدهم.

في تلك الزنزانة، حيث كان الوقت يمضي متعباً أكثر من أعصاب الشبّان، دون معرفة القانون الجديد الذي توضع أسسه الأولى من أجل وصولهم إلى حقّ القانون الحقيقي عليهم، قد يزيد ذلك بشعورهم بالظلم أو يتملكهم بمنتهى الحقد .

***

أمام مبنى كليّة العلوم توقفت سيارة سلمى، كانت تقلُّ أختها إلى كليتها

-سأتصل بكِ فور انتهائي من الدروس
-حاولي العثور على أصدقاء أيضاً، سيكون الأمر أكثر جمالاً يا حبيبتي
تومي برأسها بالإيجاب مبتسمة، تنزل من السيارة مندفعةً نحو حياة جديدة، وقفت سلمى فينةً كي تراقبها حتى دخولها المبنى، لم تكن الأخت الكبرى على ما يرام، تحاملت لتخفي قلقها بشأن ربيع، حاولت الاتصال به في ليلة البارحة لكنه لا يجيب .
لم تكن سلمى على علمٍ بتنظيم ربيع للمظاهرات، يتشاجران دائماً حول هذا الأمر بين التأييد والمعارضة له، كان ربيع ميالاً لطرفه بتطرف وكانت سلمى تعاكسه الآراء بتطرفٍ أيضاً، قاطعها مرّةً من أجل ميولاتها السياسيّة حينها نعتها بعديمة الإحساس وأنّها من طبقة غنيّة ولن يسنح لها المال الوفير بالإحساس بحياة الفقراء، بكت وهي تغادره، لم تغير دموعها أو رحيلها عنه إصراره عندما قال هذا الكلام، لم تستطع الابتعاد عنه كثيراً، ربما كان جوُّ العائلة الخانقة سبباً في ذلك، اتصلت به بعد يومين وأخبرته بأنها لو كانت مثلما يعتقد لما أجرت هذه المكالمة معه، تعلّق بها بعد ذلك، اعتبر رأيها مسالماً بعد سماع كلماتها وهي تبكي على الهاتف، كانت تحبه أكثر مما يظن وقد اعترفت له بذلك، حاولت محاولة أخيرة، أيضاً لا يوجد رد، سيطر اليأس عليها فهبطت برأسها إلى مقود القيادة

-أرجوك، كن بخير يا ربيع !

تتردد في هذه الفترة أصداء أخبار هذه التظاهرات في المدينة، كأن تغيب في يومٍ ثمّ تملأ الأخبار في اليوم التالي، و الأسوأ أنّ هذا الأسبوع بأكمله كان متخماً بالأخبار السيئة وهذا قد يؤثّر في تخميناتها حول غياب ربيع بهذا الشكل، في لحظة ضعف لو كان بجانبها لاعترفت له بكلِّ ما أخفته حول العصبة التي تضعها حول معصمها وعن الذعر الذي عاشته في طفولتها وعائلتها مقطعةِ الأوصال، رفعت رأسها مع رغبة جامحة بالبكاء، أين كانت تخفي كلّ تلك القوّة أمام أختها رأفت! طالما كانت مصدر قوتها الوحيد، ربما كان الضعف مرتبطاً بوحدتها فقط أو لا تريد وقوع أختها في نظير مشاكلها، دائماً كانت تملي عليها النصائح خوفاً من حدوث ذلك، غيرت رأيها في لحظة، ستعود إلى البيت لن تذهب إلى الجامعة اليوم، منذ اليوم الذي تعرفت به إلى ربيع أصبح حلمها جزءً منه ومن حياته، منذ ذلك اليوم أصبحت تتابع الدراسة ثمَّ الاختصاص من أجل البقاء بجانبه أو الملاذ به من العالم الذي عرفت ظلمه !

-لوحة الإعلانات المخصصة للسنة الأولى في الطابق الثاني

-أنت !

-ما زلتِ تذكرين، ماهر في السنة الثانيّة

-أهلاً، رأفت، ما زلت جديدة، وشكراً على تقديم النصيحة

كانت رأفت تحاول العثور على جدول الأسبوع لدروس السنة الأولى، نفس الممر الذي شاهدها به لأول مرّة حينما كان يتحدث مع مرام في ذلك اليوم، تبادلا أطراف الحديث، غالباً ما يبدأ صداقاته مع الفتيات الجدد بالحديث عن الدراسة ومشاقها وعن عزمه بالوصول إلى السنة الثالثة، نسي أنّه يبحث عن مرام التي كانت تراقبه من آخر الرواق، لم يتغير، كلُّ الوعود التي يقطعها مجرّد كذبة ليصل إلى ما يريد، رأفت ليست ككلِّ الفتيات إذا ظنّ ذلك، ليست كمرام، تستطيع التلاعب على أحدهم إذا أظهرت قناع وجهها الحقيقي، قد تكون جميلة الوجه، لكنها من الداخل نسخة مطابقة لأبيها حسن، يصرّ بدعوتها إلى كوب قهوة بحجة إعطائها النصائح كي تتكون لها الخبرة حول مجال العلوم، نفس المعلومات التي كان يمليها على الفتيات الجدد الأخريات، ليست هذه الفتاة كالباقيات، طالما كانت ملمّة بالمجال قبل دخوله، مجرّد شاب لطيف لا أكثر، هذا لا يعني أن أرفض مرافقته بصحبة كوب من القهوة، أوصتني سلمى بالتعرف إلى أصدقاء كي يكون الأمر أكثر متعة، ربما سأحظى ببعض الأصدقاء في مدّةٍ وجيزةٍ هذا ما كانت تفكر به، حيث تبسمت بالقبول، ابتعدت مرام إلى آخر الرواق كي لا يستطيعا رؤيتها، راودها الشعور بالهزيمة، إنّه أحد الكاذبين لا أكثر، لم يكن عادلاً، لم يقدم لي بالمقابل، عادت في الاتجاه نفسه، لا تريد خلق خلافات بينهما، بمجرّد أن تمنع ماهر

من الحديث بحريّة مع رأفت سيكون ذلك إنجازاً، إنها الخطوة الأولى للخروج عن صمتها المتكرر وفرصها الضّائعة أو المستقلّة من قلبه لمصالحه الشخصيّة وليس من أجل علاقتهما سويّة!
تعجل خطواتها كي تلحق بهم، قد أصبحوا في الخارج متّوجهين إلى مقهى الكليّة
-مرحباً
يلتفت ماهر، سرعان ما تغيرت خطته
-أهلاً
-بحثت عنك في كلِّ مكان أيها الشّاب، أين كنت ؟
-نعم، صادفت رأفت، أتذكرينها يا مرام، تلك التي . .
تقاطعه باستفزاز، كانت تريد فعل أيّ شيء لتثأر
- نعم أتذكرها، كيف حالك يا عزيزتي
-بخير، شكراً لكِ
-إذاً رأفت. .
-نعم بالتأكيد
-رافقينا، سنتناول كوباً من القهوة سويّة، سيكون أمراً مسلياً
رفقته بنظرة استهجان، لو استطاعت فقط لصفعته أمام الجميع، نسي كلّ تلك الوعود التي قطعها، كم يبدو لطيفاً في ذلك الوقت !
-نعم سأذهب، بالتأكيد سأرافقكما .
قد يؤجل حديثه المنمق إلى وقت آخر، مرام إحدى الفتيات اللواتي

سمعن نفس الحديث في فترةٍ سابقةٍ، بادلها نظرتها بنظرةٍ لطيفةٍ، كان يراوغ شكوكها بأنها مجرّد فتاةٍ لا أكثر بالنسبة له
-هلّا تفضلتما
بطبيعيّة، تتصرف رأفت كأنها لم تلاحظ أيّ شيء من حديث العيون الذي دار أمامها لم تفارق الابتسامة وجهها، علمت الكثير من الذي حدث للتو لكنها حافظت على لطف اللقاء الأول، قد تعرف أنّ ما وضعته من شكوك سيصبح حقيقة في فترة لاحقة أو قد يكون مجرّد شك
الآباء شديدو العداوة والأبناء في صددِ إقامة صداقةٍ مبدئيّة في الجامعة، ربّما هذا الأمر يزيد العلاقة تعقيداً.

***

ما زال كمال محتاراً في اختيار الرجل المناسب للقيام بالمهمّة الصعبة، يقلب بين السجلات التي رشحها لهذا الفعل، يختار ما وقع كرهه له، إنّه أحمد، يتمتم في استهزاء
-ذلك الوغد، أيّها المجند. .
-حاضر سيدي
-اجلب لي أحمد
-عُلِمْ
يفتح باب الزنزانة، توضع قطع القماش الثقيل حول عيني أحمد، أصبح أعمى، يمسك بيده المجند كي يجري معه إلى مكتب كمال،

يمرّ من الرواق بالصدفة المقدم يحيى، كان يقصد مكتبه أيضاً، أطال النظر إلى أحمد، ماذا يفعل أحد الطيبين في هذا المكان، بعد الخدمة التي قدمها لياسين بات يشكّ بالكثير من القضايا، منعت قطعة القماش عيني أحمد من إلقاء نظرة المظلوم على عاتق يحيى، يود أن يقول شيئاً، ذلك ليس من صلاحياته، القضية ليست قضيته ولا يرغب في دخول معركةٍ مع حسن، يعلم يحيى حقّ العلم من هو كمال وما علاقته بحسن، فضّل إكمال سيره

-أحمد، نعم إنه أحمد، لا أصدق، هذا الشاب لا يستطيع أن يؤذي أحداً، أعرفه حقّ المعرفة

دخل إلى مكتبه لم يستطع إكمال المسافة ليجلس خلف الطاولة، استهلّ أقرب كرسي، شغلهُ التفكير في مصير أحد الفقراء عن منصبه

-يا إلهي ما الذي حصل، يجب أن أعرف كلّ شيء حول دخوله إلى هذا المكان، بحقكَ يا أحمد ما هو الجرمُ الذي ارتكبته ؟!

كي لا يشتَم أحد الضباط رائحة العفن التي تنبعث من أعمال حسن، كان يجري هكذا تحقيقات بمنتهى النزاهة،على فقير، أو سرقةٍ بسيطةٍ ثمّ ينجح في إيهام الجميع بأنه ضابطٌ متفاني وفي ذات الوقت لا أحد يعلم بقضاياه المزوّرة، كان ذكياً في التعامل معهم

تُرفع العصبة عن عينيّ أحمد فيجد نفسه في مكتب كمال، يومي كمال بيده للمجند كأمر بالخروج، رفع كمال قدميه ووضعهما

على المكتب لتقابلا وجه أحمد مقيّدِ اليدين، يحمل كمال بيده نكاشة يحاول بها تنظيف القذارة من بين أسنانه

-لا أنكر أني معجبٌ بك، لم يتمتع أحد بجرأة الكذب في وجه المقدم حسن بذلك الوجه بالغ البراءة !

-أنا لم أكذب

يطلق كمال ضحكة طويلة، تتبعها عدة كحات

لم يقع الاختيار على أحمد ليقوم بتلك المهمّة أو الجزء المجهول من خطّة حسن، كان يريد الانتقام منه فقط، ما تحمل إصراره على صدقه ولم يرتح لشخصيّته، يريد أحد السيئين وليس أحمد

-لن يقنعني أحد في العالم أنّك لم تصبني في قدمي لو لم أخرجك بيدي من بيتك، عليك الاعتراف بمديني لك أيّها اللعين

-منذ متى يشكر الظالم على ظلمه ؟!

يشتاط المستمع غضباً، يسحب قدميه بهدوء وهو يتابع النظر إلى عينيّ أحمد وقد بلغ فيها البؤس حدّ اللامبالاة بما قد يأتي أو يزيد، إنّها ليست النهاية، بل لشعور أحمد بفقدان كلِّ شيء، بات مستعداً لتلقي أيّة هزيمة أخرى تؤدي به إلى موتٍ حتمي، قد مات قبل كلّ ذلك ما عاد الموت الأخير مهماً، ليس هنالك شيء يستحقّ أن يطأطأ رأسه مجدداً أو أن يستسلم بحجّة العيش، سنحت له العصبة التي وضعت على عينيه أثناء جلبه إلى كمال في التفكير مليّاً بأمرٍ يستحق أن يحارب لأجله، كان مغمض العينين،

في عالم آخر من فراغ، يتردد لزيارة حلم يقظةٍ طالما اشتهاه، كان يتخيل عروبة على منصّة العريسين تستقبله بضحكة بيضاء وعيون دامعة من الفرح، في فوضى الحضور لم يشعر بأحدهم، مدت يدها لتعانق خاتم حبيبها وتصبح له، تتقدم أمه من بين الحضور سليمة معافاة لتهنئهما، طالما وضع أمر عجزها على عاتقه وبأنها أصبحت عاجزة من أجل تربيته وتربية أخيه وعليه مساعدتها حتّى تستعيد عافيتها من جديد، لم تراوده تلك الصورة وهو مقيد وفي طريقه إلى كمال، جلّ ما رآه هو ظلمة العصبة الدامسة، كان حلماً أبيضاً رغم ذلك !

يبتعد كمال عن كرسيه وقد ابتدأ بحديثه، يذهب جيئةً وإياباً من جانب أحمد، بدا مستمتعاً في حديثه، ربما يستردّ بعضاً من ثقته بنفسه، التي زعزعها أحمد ببعض الكلمات

-عندما دخلتُ كليّة الشرطة، وفي اليوم الذي قُبلت فيه تحديداً، عدت إلى البيت لأوضّب أغراضي من أجل الدورة التدريبيّة، كان ذلك اليوم تاريخيّاً يا أحمد، دخلت أمي إلى غرفتي بينما كنت أغني إحدى الأغنيات المنتشرة بين الضبّاط الأغرار، من تلك التي تبعث على الثقة والقوّة، توقفت عن الغناء عندما شاهدتها باكية، كما وقعت الأغراض من يدي دون أن أشعر، إنها أمي يا أحمد، كانت تريد أن تملي عليّ كلماتها قبل أن أسير باتجاه الحلم الذي انتظرته طويلاً، قالت لي يومها: سأغضب عليك إن ضربت

أحدهم دون ذنب و اعلم يا بني أن من سلك طريق الخير ناله و اعلم أني راضيةٌ عنك أمام الله ما لم تعذب بريئاً، كلّ الأمهات يكرهن أن يصاب أولادهم بأذى. ماتت أمي عندما أصبحت ضابطاً لذلك عاهدتُ نفسي على ذلك، أريد الحفاظ على رضاها، لكن أمي لم تقل شيئاً عن اللقطاء يا أحمد، أنا أتذكر كلامها جيداً
يعقد بحاجبيه، أصبح مقابلاً لأحمد
-متأكد تماماً أنني إذا ضربتك، سأضربك حتّى تُدمى ولكن لا أريد أن تتسخ أشيائي الجميلة في هذا المكتب بدمك مجهول الهويّة، أتعلم من تكون؟ أنتَ مجرّد نزوةٍ عاطفيّةٍ قذرة لأحدهم !!
يغوصُ الكلام في روح أحمد حتّى يبلغ العمق الأكبر، كالرصاصة لكن ببطءٍ شديد، ذلك الألم هو وجع الكلمات فقط !
-أيّها المجند !
-نعم يا سيدي
-خذه وهيئه لي، أريد الإشراف بنفسي على تعذيبه
-حاضر يا سيدي
لم يقل الرحمة ولا تبادر لذهنه أبداً أن يطلب ذلك، بدا وكأنّه يتلذذ بلحظات ضعفه فحسب، برودٌ في روحه، رجلٌ صامد، لكن كانت هذه الفجوة عظيمة، سمع الكثيرين يتحدثون عن هذا الشأن لكن ليس وجهاً لوجه، كان يصله كلامٌ من أحدهم أنّ شخصاً ما قد نعته باللقيط، لم يقلها أحدٌ في وجهه، كان ذلك

يندرج تحت مسمى النميمة من بينهم أبو قصي والد عروبة، دائماً ما كان يتحدث عنه بلهجة سيئة وأنّ والديه الحقيقيين لو كانا جيدان لاعترفا به وما رمته أمه على طرف الرصيف غالباً ما تسمع عروبة ذلك الحديث وتكتفي بألم الصمت، مع هذا القيد الذي يحكِم على يديه لن يستطيع فعل شيء سوى أن يمتلئ بالحقد

يمسك المجند بيد أحمد، لم يمانع السجين ذلك، غيّر اتجاه عينيه إلى الباب ومضى مع المجند بهدوء، كان مستسلماً لكلّ ذلك أو مازال يستحيل عليه تصديقه، أصبح كمال خلف أحمد يريد استغلال ضعفه قدر المستطاع، أحدهم كلّما شعر بالذل كلما شعر الآخر بنشوة الذات، يغافله مسدداً ركلةً على ظهره، يدفع أحمد يديه ليحمي رأسه من الاصطدام بالباب أثناء السقوط، قد أفلت المجند يده كي لا يدّعي كمال مساعدته لأحمد، سقط على الأرض، يطلقُ كمال ضحكةً شريرة الصدى

-خذه

يرتبك المجند من إثر معالم كمال مشتاطةِ الغضب، لم يفعل أحمد شيئاً، لم يقل شيئاً حتّى ينفعل كمال ويغضب، ربما لأنه لم يشاركه الحديث عن أمه ووصيتها، لم يبدِ التأسف على كلامه، كان مشغولاً في التفكير فيه، يساعد المجند أحمد بسرعة، يصرخ فيه كي يخلصه من يدّ كمال في هذه اللحظة فقط، يقف ثمّ يضع عينيه أرضاً

ويخرج، لم يجرأ على الالتفات وإلقاء نظرة عبوسة
-ستكون الأمور بخير أيها الشاب، سأساعدك
-لا عليك، أنا بخير

تترتب الناس من وجهة نظر أحمد حسب احترام الآخرين، ومن وجهة نظر كمال في استغلال الآخرين، وتدور حكايتنا لن يبقى الضعيف ضعيفاً إلى الأبد ولن يبقى القوي قوياً إلى الأبد، هذا إذا كان القويُّ مستمداً قوته من قهر الضعيف وإغراقه في محيطٍ من الذلّ، وإرغامه على ملاحقة الرغيف فإمّا أن يلحق به ويقتات يومه أو يموت وهو يشعر بالجوع، لا شيء آخر لرجلٍ صامد، يغرز سكيناً في صدره ولا يبالي، كلُّ صنفٍ من أصناف الألَمٍ أصبح بحكم العادة، يتجلى مع الصمود والوقوف مجدداً يا أحمد، ما كان يدفعه لرفض مساعدة ذلك المجند الطّيب هو منع شعور الشفقة بالسيطرة عليه، ربّما كانت غايةً مسلّماً بها في قوله دائماً (رجلٌ صامد) أو أمراً حسّاساً لا يريد الحديث عنه، قد يفتح ذلك الحديث أبوابه نحو حياته القديمة وعائلته الغامضة، كان كمال أول السابقين في الولوج من أحد هذه الأبواب نحو روحة، قد صوّب بدقة القناص المحترف إلى تلك الزاوية المعتمة التي يخشى أحمد بنفسه استكشافها

لم يبكِ، هنالك لحظات تعصى على البكاء فهي أقسى منه، سرعان ما تعود الدمعة أدراجها، إنه الحقد إذا تجمع بعد أمدٍ من الحلم

واللين !

***

تجري الحياة في حيّ تشرين الأول بهدوء الأحياء الفارهة، سيطر الحذر بعد أحداث ليلة البارحة الطويلة، يخرج الناس لقضاء لوازمهم فقط، بدت الشوارع فارغة من ضجيجها المعتاد، تضجّ الأحياء الشعبيّة بفوضى الحياة وشقائها، وكأنّها قد لاقت مصرعها بفقدان عدد كبير من شبّانها الآن، كان محمود يتبضع من بقالية أبي محمود، أخذ كيساً من الأرز، ثمّ أعاده إلى مكانه، كان أبو ممدوح يراقبه، دائماً ما كان يأخذ طعاماً جاهزاً ومعلبات أعاده! ما خطب ذلك الرجل ؟! يقترب نحو أبي ممدوح الذي اصطنع الانشغال عن مراقبته، بدا مرتبكاً وراجف الصوت

-في الحقيقة، أريد أن أحدثكَ في أمر جديٍّ عمي

-سأوافيك في لحظة

يخلع نظارته الطبيّة عن عينيه ثمّ يعيد دفتر الديون الذي ادّعى تمحيصه ثمّ ظهر عليه الإصغاء

-عندما كنّا في بيتك قبل يوم من ذهاب ممدوح حماه الله إلى الجيش

-أتذكر جيداً، تبدو مرتبكاً يا محمود

-قليلاً، قلت لي حينها أنّك ما زلت مستعداً لتكون وليّ أمري إذا عزمت على الزواج

-وما زلت يا بني
-في الحقيقة، أريد التقدم لإحداهن، لقد قررت
-أنا جاهز، وفي الحال
-عمي أبو ممدوح، أنا أحترم الظروف التعيسة التي يمر بها الحي، أريد فقط إخبارك بالأمر
-في الأزمات لا تتوقف الحياة يا بني، أفهم من حديثك أنّ الفتاة من الحي ؟!
-نعم، إنها عروبة بنت أبي قصي
-خير ما اخترت، هل رأيتها يا محمود ؟
-لا، أقسم أني لم أكلمها أبداً، جلست بجوارها في الحافلة عندما تعطلت سيارتي وبعد أسبوع شاهدتها تخرج من البيت لتقصد الجامعة
-يطلق أبو ممدوح ضحكة غفوية ثمّ يطبطب على كتف محمود في حبٍّ
-لا عليك يا بني، لم أقصد ذلك، سأوافيك في المساء كي نتقدّم لها
-اليوم ؟!
-نعم، اليوم، لن أغيّر رأيي، سأعلم أبا قصي بذلك الآن، اذهب لتجهز نفسك
-حاضر يا عمي
رحل في ابتسامة لا تفارق وجهه، لم ينتظر أبو ممدوح لحظة

أخرى، رفع سماعة الهاتف الأرضي وطلب أبا قصي، كان يحب محمود لأنّه شاب نقي و أبيض القلب، وقد وعده بهذا الأمر منذ فترة طويلة وعليه أن يفي بوعده

-ماذا تخبئ لكِ الأيام إذاً يا عروبة

تحدث عروبة نفسها وهي تطالع الرسالة السادسة التي كانت سترسلها لأحمد قبل العدول عن قرارها، عندما كتبتها شعرت بأنّها تظلم أحمد وتظلم نفسها، لم يكن الكلام كما كان عليه في الأعوام السابقة، مهما بلغ الحبّ من مرتبة فائقة القدسية في الكلمات يبقى في حكم المجهول ، راودها الشك في تصديقها لكلماتها ما بعث على شعورها بظلم نفسها وظلم أحمد، ثمّ عزمت على قرار الانفصال بدعم يؤيد ذلك من صديقتها سعاد، وبعد يوم واحد تعود إلى تلك الرسالة فتشتمُّ رائحة الطين الذي كانا يلعبان به في صغرهما منبعثاً من الكلمات، كانت عالقة بين قلبها الذي يأكله الندم وعقلها المشغول في التفكير به !

-حبيبي، أعدك ألّا أكون إلا لكَ، وأن أحارب معك مهما طالت الحرب ومهما كانت مريرة، كلُّ عام وأنت بخير

كانت تلك المرّة الأولى التي ستقول له تلك الكلمة -حبيبي- ستُّ سنين ولم تنطق بها، وهو أيضاً كان سيشعر بالذنب الكبير إذا خرجت هذه الكلمة من فمه، خبئها لغير زمان عندما يصبح من حقه قولها !

إنّها بحكم الضائع، ذلك المكروه الذي أصاب أحمد مؤخراً صنع لها رغبةً كبيرةً في زيارة الذكريات، ألقت نظرة الخجول إلى أصدقاء الأمس بعد الفراق !

رنّ الهاتف الأرضي بجوارها، صوتها المرتجف لا يساعدها في الردّ على أحد المتصلين حتّى لو كانت سعاد، لم تفكر بها، كانت منهكة من الحرب الدائرة بين عقلها وقلبها، تبدو في هذا اليوم منجرةً أكثر لمزيد من التعب، قلبها يحاول استعمال خدعة الحبّ لنيل النصر، تطوي الرسالة الأخيرة وتعيدها إلى مكانها في صفحات أحد الكتب الدراسيّة، سمعت والدها للتو يتحدث لأحدهم وتخشى أن يدخل الغرفة قبل أن تجهز نفسها على أنّها على ما يرام وتريد أن تتحاشى اطمئنانه عليها

-نعم، أهلاً وسهلاً، في الساعة الثّامنة، بالطبع، وداعاً

يتضح لها أنّ أحد أصدقاء والدها سيأتي لزيارته في السّاعة الثامنة، ليس أمراً مهماً، على العكس، كانت دائماً فرصة مناسبة لفعل شيء لنفسها، تدخل أمها على عجلة دون أن تطرق الباب، تبدو فرحةً لأمرٍ ما، هذه المرأة تعيش حياتها بقدر بالغ من التظاهر، هذا يعدّ أمراً مؤسفاً لعروبة، توقعت أحد تلك الأخبار عن الموضة المعاصرة للحقائب أو المعاطف

-كنت أعلم أنّ الله سيرسل لكِ نصيباً مميزاً، هيا تعالي، سنقوم بتحضير بعض الأشياء، سيحضر ضيوفنا في الساعة الثامنة، ليس

لدينا الكثير من الوقت يا ابنتي
-لم أفهم أمي ؟!
غيرت طبقة صوتها إلى الطبقة التي تشير إلى الخوف على مستقبلها، ارتبطِ بصوتها الخافت وعيناها المتلألئتان، شرحت لها، لم تبدِ عروبة أيّة ردّة فعل، اكتفت بالذهاب مع أمها إلى المطبخ، كان أمراً عادياً، لم تعرف من هو المتقدم لخطوبتها، أخبرتها أنه شابٌّ ميسور ويملك الكثير من المال، وأنّه سيعيش برفقة عائلته في كندا، هذا كلُّ ما يهمُّ أمها!
راودتها فكرةٌ واحدةٌ قبل أن ترى الشّاب، أحياناً يكون الإنصات لنظريات والدها شيئاً مفيداً، هي الآن لا تريد الزواج، كلُّ ما تريده أن تكمل دراستها، كان والدها يحترم هذا الشأن ويفضل عودة القرار إليها في التعليم، قد يكون ذلك مفيداً لتقديم حجّة لرفض العريس، كانت تشعر بالرغبة الكبيرة في إيفاء وعدها المكتوب في الرسالة، لم يقرأها أحمد وهي طلبت الفراق وانتهى الأمر !!
كانت مزاجيّة جداً، ذكيّة وصاحب قلبٍ مرهف، قد تكون هذه الصفات مؤهلات الحاسّة السادسة لكن في الحقيقة تبدو الحياة متعبة جداً لأصحاب هذه الظاهرة النادرة !
على بعد عشرة فراسخ كانت يد أمّ أحمد مرفوعتان إلى السماء تطلب من الله الرأفة لأحمد وربيع، نظرت إليها سعاد بعينين

حالمتين، اختارت البقاء معها اليوم بأكمله بعد اختفاء ربيع وأحمد
-خالتي، يجب أن تأكلي
-لا أستطيع، لا أستطيع يا سعاد وأنا لا أعلم ما هو حال ولدي
-ماذا أقول عن أخي، بإذن الله سنراهما قريباً، خذي مني
في بهو المنزل، هزت رأسها سعاد وهي تلقي الجملة الأخيرة على مسامع أمّ أحمد، بدت عجوز كهلة بعد الحادثة الأخيرة، قرّبت سعاد الصحن أكثر، كان حساءً ثمّ طالبت أمُّ أحمد بشربه
-هيا خذي مني
-ستبقين اليوم بجواري، لن أدعك تنامين وحدك في البيت يا طفلتي
-سأفعل ذلك
-نامي في غرفة أحمد، كي لا تبقَ فارغة، أنتِ ابنتي الوحيدة !
هزت رأسها بالإيجاب، غرفة أحمد التي تحب وتخشى دخولها كونها أحد المراقبين بدقة لعلاقة الحبّ الطويلة بين أحمد وعروبة
عادت سعاد لإكمال أعمال المنزل بعد أن اطمأنت لعدم رفض أم أحمد الطعام، كانت تعتبر نفسها مسؤولة عن هذا الشأن منذ أن عجزت أمّ أحمد عن القيام بأعمال المنزل
بدت السماء سوداء ملبّدةً بالغيوم، سيحمل هذا الشتاء الكثير من الخير وسيحمل معه الكثير من شوائب البشر، كان البهو مفتوحاً، هذه فرصةٌ سانحة للمطر بأن يهطل بحريّة

تساعد سعاد أم أحمد في الوصول إلى غرفتها بعد أن أنذرت الغيوم بحباتٍ لطيفة من المطر على خدِّ سعاد

-ارتاحي قليلاً خالتي

تغلق الباب بعد خروجها وتلتفت فيقع طرّفها على غرفة أحمد، كانت النسيم بارداً، طوت يدها معانقة جسدها و عجلت خطاها متّجهة إلى غرفته، تنهدت وهي تهبط بمقبس الباب، رائحته في كلّ مكان، أغلقت الباب من الداخل ثمّ ارتكت عليه، أغمضت عينيها متبعةً ذلك بشهيقٍ طويل، إنّه الأمان !

كانت تمرر أطراف أصابعها على كلّ ما تمرُّ به من أشياء، خزانة الثياب، طاولة الدراسة، وتدع نظرها حراً بين أركان الغرفة، أصبحت أمام سريره المتواضع، كان قميص أحمد مرمياً على السرير غير المرتب

أعادت النظر إلى الباب، لم يكن في البيت سوى عجوزٍ مقعدةٍ وطفل صغير، الشيء الذي دفعها للتأكد من عدم وجود أحدهم، أمسكت القميص بيدين مرتجفتين ثمّ عانقته بغير وعيٍ، إنّها سعاد !

سقطت دمعةٌ على القميص، كانت تتنفس بتعبٍ شديدٍ كأن يتقطع النفس إلى أشلاء، ثمّ انجرّت وراء رغبتها، أخذت تشتمُّ ذلك القميص بشهيق واحد دون تقطيع، لا شيء يفسر لها ما هي فاعلة، فقط وجدت نفسها جالسةً على الكرسيّ بجانب الطّاولة

وبيدها القميص، لم تعِ ما حدث أبداً، تمتمت من غير ندم :
-كم أهواك، لم استطع الاحتيال على قلبي يا عروبة !!

***

-لم أعد قادراً على السكوت أكثر، أنت من قادنا إلى هنا أيّها الطبيب
كان زيدون يريد إلحاق التهمة بربيع، يريد أحدهم أن يتّفق معه بهذا الشأن لكن الجميع صمتوا منتظرين ردَّ ربيع
-أنتَ لا يحق لكَ الحديث حتّى ولو كنت متسبباً في ذلك
-لماذا، لا ذنب لي، سأقول هذا الكلام أمام المحقق
يتبادلان الحديث وهما جالسين بعيداً عن بعضهما، كلُّ واحدٍ في ركنٍ من الزنزانة، يسمع ربيع هذا الكلام فينتفض من مكانه
-ماضيك هو صفحةٌ بيضاء! أعلم أنك لست من المحتجين، ولا أبالي بما ستقول، الذي جاء بك إلى هنا هو أحد أعمالك من السرقة والسلب وليس ما كنّا نقوم به
يرمقه زيدون بنظرة عبوسة وهو ينتفض محاولاً ضرب ربيع، يُفتح الباب في تلك الأثناء ثمّ يُرمى أحمد ويُعاد إحكام الباب، كان يصرخ من الألم، يسرع ربيع إلى صديقه، يكتفي زيدون بمراقبة المشهد بكثيرٍ من التمنيات بالألم
-ماذا حصل ؟
-ظهري، ظهري، آه

-ساعداني في حمله

يأتي شابّان ثمّ يختفي صوت أحمد، قد غاب عن الوعي

-برفق يا شباب، حاولا إجلاسه، يجب أن نوقظه بسرعة

ظهرت بقع الدّم من أثر الضرب على ظهر أحمد و قدميه، ينبه ربيع بعدم إرخائه إلى الحائط فبقيا يمسكان بيديه ويشدانهما إلى الأمام

يدخل ربيع في فوضى من أمره، يتطلع إلى قليل من الماء لينقذ صديقه، يأتي أحد الشباب وبيد كوب بلاستيكي فيه القليل من الماء، كان ملوّثاً بالشعر، لم يبالِ ربيع، خلع القميص عن جسد أحمد ثمّ أغرق طرف يده بالماء ومسح به وجه أحمد، حرّك أحمد حاجبيه محاولاً الاستفاقة

-آه، ماء

ينظر ربيع إلى كوب الماء، لم يكن متّسخاً فحسب، فيه من القذارة ما يجعله مسبباً للأمراض هذا كلُّ ما يتوفر في هذه البقعة السوداء من الأرض، وضع الكوب على فم صديقه العطش ثمّ عاد ليمسح وجهه

-أخبرني ما لذي حصل؟! من فعل بك كلّ هذا ؟!

-ضربني بسيخ من الحديد

خيّم الخوف على قلوب الجميع إلا ربيع كان يتألّم من وجع صديقه، أتبع أحمد قوله بعد أن أخذ فترةً من الزمن، كان مشغولاً

بالشعور بالألم
-لا أشعر بجسدي يا ربيع
-تحامل قليلاً، سأحاول فعل شيء
يتّجه نحو الباب ويضربه بقوّة، كان يصرخ
-أيّها الحرّاس، من هُنا ؟!
لا يجيب أحد، يزيد القوّة، إنّه يحتاج لمساعدة عاجلة
يفتح الباب فيظهر أحد الحراس بشع المظهر، يمسك ربيع من سترته ويرميه خارجاً ثمّ يعيد إغلاق الباب بغضب
من سوء حظّ زيدون أنه عاد إلى الحارة في الفترة بين هروب كمال مع عناصره و عودته بالتعزيزات، كان بحوزته كيسٌ قد وضع فيه مجموعة مختلفة من الساعات اليدويّة المسروقة، بحث عن صفوان فور دخوله البيت، لم يجده وعندما طرق الباب ظنّ أنّه هو، فتح على عجلة فناوله أحد العناصر لكمةً على وجهه ورماه خارج البيت، في تلك الأثناء كان صفوان في بيت هيثم يضع الجزء الثاني من الخطّة ويقوم بشرح تفاصيلها لحسام وطارق
بعد ساعة وربع من تعليق ربيع بخيطٍ ممدودٍ من السقف دون أن تلامس قدميه الأرض، يدخل إليه كمال، كان يشعر بتمزق أربطة يديه شيئاً فشيئاً
-إذاً أنت ربيع، لم يقل لي أحدٌ ذلك، أنت مشاغبٌ جدّاً و أنا متأكد أنك من تنظم أعمال الشغب في الحيّ

يمرُّ من جانب ربيع وهو مشبك اليدين، يرخي إحداهما ثمّ يطبطب بها على صدره، يستطرد في حديثه بعد أن قام بإشعال لفافة تبغٍ

-لا تنصحون بالتدخين، أنا أكره الأطباء، أتعلم؟ أنتم جميعاً لا تشعرون بلذّة الحياة أبداً، تقضون وقتكم في الدراسة وبعد ذلك يُلقي على عاتقكم إنقاذ الآخرين، هل البشر يستحقّون أن تقضي حياتك من أجلهم؟ عدا عن ذلك كله، لا تشربون الويسكي ولا تدخنون ومعظمكم نباتيون، أنا أكره الأطباء يا ربيع ويزيد كرهي لكم عندما استجاب طبيب السجن لنداءك، ربما سيكون صديقك اللقيط في حال أفضل بعد علاجه

يضع كمال يده على وجهه كما لو أنّه يفكر

-انتظر، لقد خطرت لي فكرة، أيّها الحارس ؟

-نعم سيدي

يومي كمال برأسه، يفهم الحارس من ذلك حلّ رباط ربيع، سرعان ما يهبط كتلةً واحدة، كان لا يستطيع تحريك يديه، يقترب منه كمال مبتسماً وهو يحِكُ لحيته في استهزاء، تمختر بجانب ربيع المضنى من الألم، قد سمع كمال حديثه، يضع كمال قدمه على بطن ربيع ويميل بجسده ليتكئ عليه، يتحدث بهدوء مستفز وهو يرمي رماد لفافة التبغ فوق وجه ربيع

-الفكرة هي أن أقطع الرأس كي يصبح الجسد أعمى، أفهمت ؟

يطفئ لفافة التبغ براحة يد ربيع اليمنى، يصرخ من ألمه، كان لا يستطيع مدَّ يده الأخرى ليمنعه من ذلك، يقاطع كمال صراخه ويسدد رميّةً إلى بطنه بعد أن عاد بجسده بعيداً عنه

-بعد قليل لن يستطيع طبيب السجن سماع صوتك، سأخفيه تماماً، وهكذا يرتاح ضميري تجاه قدمي، أعرف، يمكن ألا تكون أنت من أصابني لكن الخطّة خطتك

عرف كمال نصف الحقيقة، نعم الطبيب استجاب لدعوة ربيع لكن بأمرٍ من المقدم يحيى!!

غالباً ما يتماطلُ أطباء السجون في تقديم المساعدة لأحد المصابين، كان يحيى يراقب تحقيقات الجميع، خاصة بعد الذي حدث مع أحمد، هناك شكٌّ يراوده بحدوث أمرٍ ما، قد يغير السيء إلى الحسن بمدّة وجيزة لكن الحسن يحتاج لمدةٍ أطوال حتّى يصبح سيئاً، الناس يتغيرون لكن حسب أماكنهم وانتمائاتهم في التنقل بين الخير والشّر، ليس حدثاً اعتباطياً !

كان يعرف حسن جيداً ومنذ مدّة طويلة لم يتغير وربما لن يتغير أمّا أن تنقلب وجوه الناس في حارته التي ولد فيها فهذا من شأنه أن يستغرق القليل من التفكير!

-قرأت رواية -البؤساء- لكاتب يدعى فيكتور هيجو، كان يريد إثبات نظريّة -النّاس يتغيرون- أنا أؤمن بذلك وقد زاد إيماني عندما قرأتها ولكن بأسلوب يختلف عن الأسلوب الذي اتّبعه

جان فالجان في إثبات تلك النظريّة لجافير وإقناعه بها، الشيء السيئ أنّ جان فالجان استغرق وقتاً طويلاً لإثبات تلك النظريّة، وأنا في مدّةٍ وجيزةٍ جداً أستطيع إثباتها.

في غرفةٍ معتمةٍ حمراء كي تُخفي ما ينزفُ من الدم، كأن يختلط اللون الأحمر للغرفة مع لون الدّم فيزداد غمقاً حتّى يصبح قريباً للأسود، يجلس كمال على كرسيٍ بلاستيكي وقد وضَع قدمه اليسرى فوق قدمه اليمنى، بدا مرتاحاً في الحديث، بجانبه طاولة حديديّة وضِع عليها قدرٌ غميق من الماء فقط، يقف ربيع مكبّلاً أمام الطّاولة ومن خلفه أحد الحرّاس يمسكه بمتانة جيث يضع يداً على يدي ربيع المكبلتين من الخلف ويداً على مؤخرة رأسه ليتحكم بإيقاع حركته.

يحرك كمال سبّابة يده اليمنى نحو الأسفل، يستقبل السجّان الإشارة ويدفع رأس ربيع نحو قدر الماء، يبدأ كمال بالعد ببطء

-واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستّة، سبعة . .

تكتمل خمسين ثانية من العدّ، يحرك سبابته نحو الأعلى بتناسق مع شهيق ربيع محاولاً العودة إلى الحياة من جديد

-أعترف أنّ هذا الأسلوب يجدي نفعاً !

هو لا يستطيع التنفس حتّى يدلي باعتراف كاذب !

يومي بإصبعه مجدداً، إنّه التعلق بالحياة في الرمق الأخير، كان يحارب من أجل البقاء حيّاً، كأنما أصابه الهلع، يرفع السجّان رأسه

مجدداً، يعدّل كمال جلسته ثمّ يسمح لنفسه بإلقاء نظرةٍ على وجه ربيع الذي بدا مُزرقاً، يتمتم في أذنه

-أعلمت كم الحياة غالية يا ربيع؟ صدقني لا يوجد شيء يساوي ثمنها، لا القانون ولا العدل ولا الإنسانيّة، يؤسفني أن أقول لك أنّ جان فالجان كان أحمقاً، ضحى بحياته من أجل هذه الترّهات، لا تكن غبياً مثله !

لا يريد كمال تعذيب ربيع من أجل كفهِ عن الأعمال التي ينظمها في الحيّ، بل يعمل كمولدٍ للانفجار حسب الخطّة التي رتّبها حسن، لذلك قال له الكلمات الأخيرة

يفعل ذلك لأنّ لا أحد يمنعه من ذلك، للإنسان حاجتان لا تلتقيان، الحاجة للخير والحاجة للشّر، تغلب إحداهما الأخرى، فإمّا أن يصير خيراً ذلك بفعل الأعمال التي تشبع هذه الحاجة وشبيه الأمر بالنسبة للشّر كان كمال يشبع رغبته بقسوةٍ نادرة

كان الهدوء أحد أفراد الزنزانة، من يفكر بمصيره الذي يرتِب نفسه بعد قليل ومن يئنُّ جسده من الألم، في مثل تلك اللحظات عندما لا يستطيع التحدث لأمّه عن سوء حاله، كان لا يريد أن تسوء حالتها أكثر، يلجأ إلى عروبة، هي الفتاة الوحيدة التي تستطيع أن ترى كلّ ما يقع عليه نظره، يدخل غرفته ببؤسٍ ويخرج منها بتفاؤلٍ كبير، ييأس من الحياة وسرعان ما تعيده للقتال في الصفّ الأول، مرّ يومان فقط، كأن الوقت ليس بحليفه، كم يبدُ الأمر

سيئاً إذا ارتبط الألم بالوقت !

يميل برأسه المرتاح على الحائط، لا يوجد من يمكن أن يضعه على كتفه، بدا الناس من حوله تماثيل لا تبكي ولا تفرح، لا تتكلم ولا تيأس ولا تتذمر، لا تشعر بالألم حيال كلِّ ذلك أيضاً

يفتح عينيه بعناءٍ شديد، كان الاحمرار يطوقهما، يفتح باب السجن ويُقذفُ ربيع إلى الداخل، يتحسس أحمد صوته بعد أن هرع الجميع لمساعدته، لم يكن الأمر سيئاً إلى درجةٍ كبيرة، تظهر آثار بعض الكلمات تحت عينيه، يحرك يديه لكن بصعوبة، كان ذلك نتيجة تعليقه وشده بالحبل

-أنا بخير، أنا بخير

للشبان، بعد إطلاق زفرةٍ طويلة، طلب مساعدةً للجلوس في مكانه بجانب أحمد، طالما كان يشعر بالذنب تجاهه، هو الوحيد الذي يستطيع أن يلوم الجميع على الظلم الذي يتعرض له

يقلّب ربيع طرّفه بين الشبان، فينتبه لعدم وجود زيدون، كان غاضباً من كمال، قد ألحق به الألم على أصعدته كافّةً، تذهب الكلمات من ذهنه ثمّ تعود لقراءة نفسها مجدداً، هنالك شيء يدفعه أكثر نحو التصعيد فيما يؤمن به، إنه الكلام الذي ينطق به المحقق كمال

يدفع أحمد بيده خاصرة ربيع في تنبيه، يحاول الميت إسعاد القادمين إلى المقبرة، ابتسم أحمد في وجه صديقه العابس الذي

كاد يميل إلى البكاء من فرط القهر، تترنن الكلمات مجدداً في فم أحمد

-رجلٌ صامدٌ يا صديقي !

يؤدي كمال تحيّة الاحترام للمقدم حسن ثمّ يأخد الإذن بالحديث

-سيدي لقد عثرت على الرجل المناسب للمهمّة، و وددت أن تكلمه بنفسك

-حتّى الآن لا تثق بنفسك أيّها المحقق

يقترب كمال بصمت نحو طاولة حسن ويضع سجل زيدون عليها

-هذا سجله يا سيدي، إنه في مكتبي

-أريده في المكتب خلال خمس دقائق

-حاضر يا سيدي

لم يتعرف زيدون إلى حسن من قبل لكنّهما يعرفان بعضهما جيداً، الاثنان يمتلئان بالدناسة والشرور، الاثنان يحملان الضغائن والأهواء النتنة، تلك الدورة الترتيبيّة التي فرضت نفسها على الإنسان وفرضت أحداثاً يجب أن يقف عندها ويقول -لا لن أفعل- بحجّة الوطن، الإنسانيّة، لئمِ الجراح، الحب، الاثنان لم يقفا دقيقة على روح تلك الأشياء حتّى !

يدخل زيدون برفقة كمال إلى مكتب المقدم حسن، كان التساؤل يسيطر على معالم زيدون، لم يضربه كمال أثناء التحقيق بل عامله بقمة اللطف، ثمّ الآن يتحرك حسن من خلف مكتبه فور دخوله

كأنه أحد الأصدقاء الودودين له، يطلب منه الجلوس على الكرسي المحاذي للطاولة بمنتهى الذوق ثمّ يبدأ حديثه وهو يقدم كوباً من النسكافيه الساخنة التي أعدها بنفسه لزيدون، لا يعقل؟ كان كمال واقفاً بجوار الباب، وأنا أحد المتّهمين بأعمال الشغب؟ تقدمُ لي القهوة ومِن من؟ أحد الضبّاط الكبار في التحقيق !!
كان مشغولاً في التفكير بما يحدث عوضاً عن تصديقه
-تفضل يا زيدون
-شكراً، شكراً يا سيدي
-لقد اطلعتُ على سجلك للتو، أنت مواطن متفاني بكل ما تعنيه المواطنة من معنى
ماذا سيفعل بعد سماع ذلك، يقول شكراً لك، أم ينبه حسن على الكوارث التي دخل من أجلها السجن، قد أحدث الكثير من الفوضى في أوقاتٍ سابقة، يضحك حسن من غرابة الوجه الذي أظهره زيدون، يدير حسن وجهه مكملاً ضحكته باتِّجاه وقوف كمال ثمّ يهزُّ برأسه، كانت البداية مغريةً لحسن وزيدون معاً !
-اسمع يا زيدون، أعلم جيداً أنّ ماضيك أسود مثل وجهك وأعلم أيضاّ أنه لا علاقة لك بما يفعله الشبّان في الحيّ، لكن وجدنا في بيتك كيساً من الساعات الرجاليّة الفاخرة، هي مسروقة بالتأكيد إضافةً إلى مجموعة متنوعة من المجوهرات الأنيقة، هل تريدني أن أقول ذلك في التحقيق ؟! هنالك صفقةٌ ستعقد بيننا بعد

قليل، عليك أولاً أن ترتشف من قهوتك يا زيدون، لقد أعددّتها لك بنفسي

-حاضر يا سيدي

يرتشف من قهوته دون أن تفارق عيناه النظر إلى حسن، كان يراقبه، تسلل الخوف إلى جوفه يجب أن يصغي لكلامه، دخل إلى السجن مراتٍ عديدة ولم يحدث شيءٌ من هذا القبيل

-بمقابل أن تعود مواطناً سجله نظيف، أعني بالتحديد كما ولدتك أمك، بالمقابل يا زيدون عليك تنفيذ ما أطلب، هل أنت موافق؟ لا توجد شروط هنا يا عزيزي أنا أعقد الصفقات بطريقتي الخاصّة وقانوني الخاص

-موافق يا سيدي

-إذاً أصغي، بعد مدّة ستخرجون من السجن جميعاً، لا أعلم متى، ولكن ستكون في مدّةٍ أقصاها شهر، ستسارع لشراء مسدسٍ، أراهن أنّك تعرف أحد تجّار السلاح في المنطقة، ثمّ ستنتظر الفرصة التي سيخرج فيها هؤلاء الشبّان للثأر من تعذيبهم، كالعادة سيقومون ببعض أعمال الشغب، عليك أن تكون حذقاً، يجب أن تختار الفرصة المناسبة لتطلق الرصاص قريباً من رجال الأمن، أقصد في الوقت الذي سنحاول فيه فضّ الأعمال التي يقومون بها

-لكن يا سيدي

يهرع كمال مسرعاً ويصفع وجه زيدون وهو يردد

-لا تقاطع سيادة المقدم أيّها الأحمق

يصمت حسن في وقار ثمّ يكمل حديثه، يجب أن يضع بعض المغريات !

-سيكون من حليفك بعض المال، عدا عن ممارستك لأعمالك السيئة بالقدر الذي يحلو لك، لكن يا زيدون يجب أن تختفي من الحي فور قيامك بالمهمّة

يقف حسن عن الحديث قليلاً بحجّة إشعال لفافة تبغ، يطرح الدّخان خارج صدره وهو يحرك حاجبيه للأعلى، كان ينبه زيدون لاحتساء النسكافيه مجدداً

-بالتأكيد لن تتجرأ على التلاعب معي، حياتك بأكملها بين يديّ، أليس كذلك ؟!

يهز زيدون برأسه بالإيجاب، يستطرد حسن حديثه عائداً للهجته اللطيفة

-من اليوم لن تقيم مع هؤلاء المجرمين في مكانٍ واحد، خصصت لك غرفةً بعيدة عن السجناء ستكون مرتاحاً إذا نجحت في إبرام هذه الصفقة، أنا أحب الذي يحبني يا زيدون وأقتل الذي يكرهني ويخذلني

يدير رأسه إلى كمال فيتقدم الثاني إلى زيدون لأخذه، ما زال لا يفهم أنّ اللقاء انتهى، يقف فيما كان مذهولاً، كلُّ ما عليه الآن هو الانتظار لتنفيذ ما يأمر به حسن، لم تكن هذه الطلبات بدرجةٍ

بالغة من السوء، هنالك الكثير من المغريات، ربما يستطيع بعد تنفيذ المهمّة تجارة المخدرات دون الخوف من أحد أو التحسُب لأحد أثناء التنقل بها، كلُّ ما عليه هو إخبار حسن بالعمل الذي سيقدم على القيام به، مهما كان سيئاً وهو سيوفر الأمان لذلك، هذا الصنف الحقير من البشر !

تتكدس الغيوم بعد هدوءٍ دام من المساء الأخير، أصبحت الساعة الثانيّة بعد منتصف الليل، كلُّ الأمور تجري لصالح حسن، قد ذهب إلى بيته ليرتاح من عبء العمل ومشاقه

لم يكن أحد السجناء من الحيّ لكن يبدو أنه على هذه الحال، لا يستطيع فعل شيء سوى المراقبة، شاهد زيدون وهو يخرج من مكتب حسن، عرف مؤخراً أن حسن أمر بتوفير غرفة له، ما الذي يحدث؟ كان يعرف جيداً أن هذا الرجل سيء كفايّة كي لا ينال ذلك، زيدون! كان كلُّ قاطني الحي يعرفون قصص نصبه الدنيئة، يعرفون كلّ احتيالاته على الناس، يضع رأسه على الطاولة أمامه، إنّه الإحساس بالاستسلام، قد يكون الخير أضعف بكثير من الشر في فترةٍ ما لكنه لا يموت

راوغه النعاس، كما لو أنه يرغب بالنوم للهروب من عجزه، كان يوماً متّبعاً للجلادين والضّحايا !!

***

بدأ الصباح التالي، كانت السماء مكتئبةً محمرّة الغيوم، لا صوت

منها ينذر بشيء، كأنّ شيئاً ما حدث كإعادة تكوين هذا اليوم، لا يبدو هذا الصباح مشرقاً، كانت الغيوم كثيفةً هادئة الحركة، الجوُّ بأجمعه ينتمي إلى المساء

-نعم، بعد ساعةٍ كاملة، فريدة أنتِ تعرفين البيت، لا تكوني غبيّة، غصون الفتاة التي تكرهيها، أرسلتها إلى هناك

-أنا جاهزة، سأجعلها عبرة لكل الفتيات الأخريات، تلك الوضيعة

-انتظري قليلاً، الحاج فكرت يتّصل على الهاتف الأرضي

تبعد الهاتف النقّال عن أذنها وتجيب بسرعة على فكرت

-صباح الخير يا حاج

-صباح الخير أم تحسين

-أخبرني كيف كانت الفتاة ؟

-لطيفة، شكراً لكِ

-هذا واجبي يا حاج

-أتيت إلى مكتبي في وقت مبكر شعرت بالضيق حيال أمرٍ لم أعلمه، أعتقد أنّ الغبار يحتاج إلى تنظيف، هلّا أرسلتِ إحدى العاملات

-ما عاش الذي سيشعرك بالضيق، حالاً، سأرسل بطلب إحداهن

-مع السلامة

-اتصل بي في أيّ وقت يا حاج، نحن بالخدمة

تغلق الهاتف الأرضي ثمّ تعود لمكالمتها مع فريدة

-ماذا يريد هذا الشهواني ؟
-يريد عاملة لتنظيف مكتبه
-لأول مرّة أُسيء فهمه! من سترسلين إليه ؟
-صفيّة، أرملةٌ فقيرةٌ ولديها ثلاثة أطفال، ستجني بعض المال لإطعام أطفالها
-أووه، يا صاحبة القلب الحنون !
-اهتمي بأمر غصون الآن، اهتمي بعملك، واعلمي جيداً أنك إذا استطعتِ ضمّ هذه الفتاة إلى قائمة فتياتنا سنصبح أثرياء بسببها، إنّها جميلةٌ يا فريدة، جميلةٌ جداً
-حسناً
-أرسلتها منذ نصف ساعة، أعتقد أنّ صاحب البيت غادر مع زوجته إلى مزرعتهم، غالباً لن يعود حتّى المساء، تأكدي من خروجه من البيت ثمّ افعلي ما كنت تفعلينه في كلِّ مرةٍ
-عُلم
-رافقتك السلامة
في كلّ مرة ترسل فيها ام تحسين فتاة جميلة لبيت أحدهم تعود بائعة هوى تحت إمرتها أمّا عن الفتيات الأخريات أو الكبيرات في السنّ فهنّ يقمن بالعمل دون أيّ إزعاج منها ويكسبن رزقهنّ دون أيّ مضايقة، كانت أمّ تحسين ترسل الفتاة الجميلة التي كانت تطلب العمل عندها في المكتب لكسب المال بداعي الفقر

إلى بيت أحد الزبائن الذي طلب عاملة لتنظيف بيته، بعد ذلك تقوم أم تحسين بإخبار فريدة بأنّ الفتاة أصبحت بالمنزل وهنا تنتقل المهام إلى فريدة

بدايةً تتأكد أن أصحاب المنزل خرجوا كي يقضوا اليوم بأكمله في إحدى الأماكن حتّى يتسنى للعاملة ان تعمل بحريّة ودون مضايقة من تجولهم وحركتهم داخل المنزل، تطرق الباب ثمّ تدّعي أنّها من إحدى معارف صاحب البيت وأرسلها لجلب بعض الأغراض، سرعان ما تقتنع العاملة وتدخلها، تسارع فريدة لسرقة أثمن الأشياء وأصغرها حجماً ثمّ تخرج دون أن تشعر الخدّامة بفقدان شيء، يعود صاحب البيت يفتقد أشيائه، يطالب الخدّامة بالسرقات ويتصل بمكتب الخدم، لن يصدق صاحب البيت أنّ هناك امرأة من طرفه، طرقت الباب وطلبت بعض الأغراض وأنّه هو من أرسلها، تأتي أم تحسين وتتعهد له بعودة الأغراض مقابل إطلاق سراح الخادمة، قد ألقوا التهمة على عاتقها !

كي تثبت التّهمة أكثر تعطي فريدة المسروقات لأم تحسين بخفاءٍ عن الجميع ثمّ تقوم أم تحسين بإعادتها لصاحب البيت مع جزيل الشكر لها !

هنا، الفتاة تخيير بين خيارين دون أن تعلم أنّ المسروقات عادت لصاحبها، إما أن تعمل كبائعة هوى لصالح هاتين الامرأتين أو تقضي باقي حياتها في السجن، كان أصحاب البيوت يهددون

بالسجن، هذا ما يفعله أيُّ إنسان عندما يتعرض للسرقة، كانت غصون الضحيّة التي تنتظر حدفها !

لا أحد يستطيع رفع أصابع التهم إلى مكتب أم تحسين، الكثيرون من أصحاب البيوت والخادمات يشيدون بأخلاقها، استطاعت الحصول على هذه الشهرة من خلال إرسالها للعاملات الباقيات اللواتي لا تهتم لأمرهنّ، كانت لطيفة جداً معهن وتزيد الأجر لهن دائماً، لا يعرفن أنهن مجرد غطاءٍ لتخفي فيه أعمالها وأعمال فريدة، بل يثنين عليها ويتحدّثن عن طيّب معاملتها وحسن أخلاقها، هذا من شأنه أن يشجع الكثير من الفقيرات لطلب العمل، إنه السباق إلى المصيدة هو ان تكون الفريسة محاطة بالأشرِكة من جميع الجوانب، لا تستطيع سوى القبول بالعمل القذر الذي تُجبَر عليه والنجاة بحياتها وسمعتها، كانت أم تحسين تتكفل بعدم معرفة ذلك من أيّ أحد، تقدم الحجة المعتادة: هل سيكون الأمر أقل سوءاً إذا دخلتِ السجن، سأذيعُ صيتاً بين الناس بأن التهمة هي دعارة حينها سيتخلى أهلك عنك أيضاً أو أنّهم سينتظرون خروجك من السجن حتّى يتمكنوا من قتلك

وقفت فريدة في آخر الشارع بجانب البقاليّة تنتظر خروج أصحاب البيت، تقوم بالبحث قبل القيام بهذا العمل عن مكان البيت و ممتلكات صاحبه حتّى لا تتعرض لأيّ مفاجئةٍ أثناء قيامها بعملها، يظهر صاحب البيت متوجهاً إلى سيارته، كان ميسور الحال،

ينادي باستعجالٍ زوجته، ترمي فريدة قشور حبّات الفستق التي كانت تتناولها على الأرض، بعد مرور عشرين دقيقة تشرع للقيام بالعمل، ذهب صاحب البيت مع زوجته بسلام، تتسارع خطا فريدة متوجهةً إلى البيت، تطرق الباب في لين، كانت تعلم من هي العاملة التي ستفتح الباب لكن الثانية لا تعرف فريدة أبداً

-صباح الخير

-صباح الخير

-أرسلني أبو عماد صاحب البيت، طلب مني جلب بعض الأغراض التي نسيها، كان على عجلةٍ من أمره، فلم يستطع العودة إلى البيت

-ومن أنتِ ؟

-أنا زوجة الحارس في المزرعة التي يمتلكها، كنتُ أجلب بعض الأغراض وطلب مني ما نسيّهُ عندما علم بوجودي في المدينة

-تفضلي

تتوجه إلى غرفة الزوجين، حيث يمكن أن تجد شيئاً ثميناً، كانت تحمل حقيبة صغيرة، تفتحها ثمّ تبدأ التفتيش بهدوء، فتحت خزانة الملابس، أثارت انتباهها الفساتين المثيرة التي تمتلكها زوجة أبي عماد، طالما تتمنى أن تكون سيّدة مجتمع !

تمدّ يدها كي تتحسس ملمسهم، عيناها لم تشبع رغبتها في ذلك، حركت إحدى الفساتين فانتبهت لوجود درج مخفي في مؤخرة

الخزانة من الأسفل، شكت بأمره وسارعت لفتحه، كان يحتوي على قطعتين من الذهب، لم تكونا ثمينتان جداً لكنهما يلبيان الغرض إذا أخذتهما برفقة قطع الفضّة والمجوهرات المتبقيّة، أخوت الدرج ثمّ أغلقته بلطف كأنها تشكره، كانت تتمنى أخذ الفستان الذي أثار إعجابها بشكلٍ كبيرٍ، كان وردياً وعليه نقشُ زهرةٍ تتدلى من الصدر حتّى منتصف الفستان، مخنصر، له جنادتان ضيقتا البداية من الصدر، تتسعان في نهايتهما، أغلقت الخزانة وهي تتطلع لأخذه، ابتعدت بخطا هادئة، كانت غصون في المطبخ ستبدأ من هناك رحلة عملها، تخرج وهي ترتب حديثها

-أنا ذاهبة يا عزيزتي، شكراً لكِ

-مع السلامة

-سأبلغ أبو عماد بلطفك، سيكون مسروراً لذلك !

تبتسم عائدةً إلى المطبخ، كانت فريدة بمنتهى اللطف، لا تبدُ لعينةً بالكمِّ الذي يسكن داخلها، تغلق الباب مع زفيرٍ طويل ثمّ تستعيد نشاطها، تلك القسوة تعود دفعة واحدة

-تمّت المهمة !

كانت صفيّة تكنس مكتب الحاج فكرت، ظلّ جالساً خلف مكتبه يراقب حركتها، لعبت عينيه على هذه الأرملة، كانت أضعف من أن تقف في وجهه وتمنع فعل شيء، أخذت فكرة جيدة عنه بسبب اللقب الذي يسبق اسمه، ارتاحت عندما سمعت بكلمة

-الحاج-، تبدو علائم الشقاء على وجهها، حتّى محا ما بقي لها من أثر الأنوثة، لكنها تحمل كلّ المواصفات التي يحبها الحاج فكرت في المرأة !

-اقتربي يا صفيّة

-نعم

-اقتربي كي تنظفي المكتب

نظرات عينيه لم تكن غريبةً عليها، شجعتها السبحة التي كانت تصدر صوت طقطقةٍ أثناء تحريك أحجارها واحدةً تلو الأخرى، تقترب في حياء، تحمل المسكينة ما تستطيع حمله من الأغراض التي وضعت على المكتب، تنحني كي تضعهم على الأرض، يمد يده محاولاً لمس ساعدها، تبتعد بفزعٍ بالغٍ، كانت الفجأة أشد ذعراً من طلبه إياها

-لم نبدأ بعد يا عزيزتي، كوني هادئة

يحمل جسده الثقيل ليبتعد عن كرسيه، كان يتوجه نحوها وكانت تراقب ظلها حتّى لا يتمكن من الإمساك به، إنّها لن تخسر المزيد، قد تكون وحيدةً أرملةً تعمل كي يعيش أطفالها لكن هذا السبب بنفسه يدعي التخمين بأنّها امرأةٌ مستقيمة

-إياكَ وأن تقترب مني

رفعت قطعةٌ من زجاج، كانت ما تزال تحتفظ بها، لم تضعها على الأرض مع بقيّة الأغراض، تصاعدت أنفاسها، من شأن الخوف

أن يصنع ذلك، كلُّ ما تريده هذه المرأة أن تعيش في هذا العالم بسلام !

-أعدكِ بأن تكوني راضية

-لآخر مرّةٍ أقول لكَ ابتعد عني

في تلك اللحظات ينسى المرء أشياءً كثيرة، يبقى خائفاً مستعداً لحدوث مكروه ما، تدلت خصلةٌ من تحت الوشاح لتلامس عينيها، سارعت بيدها اليسرى لتعيدها إلى تحت الوشاح، كانت تعني لها الكثير، إلى أي درجة هذه الحياة ظالمة ؟!

ربما لم يعِ الحاج فكرت ماذا يعني ذلك، أن تقف أمامه امرأة أرملةٌ وحيدة وضعيفة، أن تستطيع القتال من أجل الحفاظ على شرفها، هذا كلّ ما بقي لها بعد أطفالها الثلاثة، تستفزه بقوتها وعدم رضاها بمغرياته، يقترب بهدوء المحارب وهو يرفع يده طالباً السلام، ترددُ في ضيق وكأنها لا تريد إيذاءه ولكنه سيرغمها على فعل ذلك

-لا تقترب

- اهدئي

تحاول الوصول إلى الباب كي تلوذ بالفرار، يصل حدس فكرت إلى غايتها قبلها فيحاول التهجم عليها، ذلك المفترس، ترميه بقطعة الزجاج بقوّة، تصطدم برأسه ويسيل دمه على وجهه، قد فرّت هاربة، لقت من الذعر ما يزيد عن تلقيه لتلك الضربة

-تلك اللعينة
قد أرسل رجاله بعيداً عن مكتبه كي يختلي بها، منذ دخولها المكتب كان يخطط لذلك، لا يوجد أحد في المكتب لمساعدته، قد شعر بدوار خفيف، تناول الكرسيّ بجانب طاولة المكتب وبعض المناديل الورقيّة ليقلل من ضخِّ الدم من رأسه، كان الجرح طفيفاً لكن الصدمة قويّة أحدثت له دواراً
-آه، لو أني لم أصرف أولئك الأغبياء لكانت الآن تحت أقدامي
يمرر يده التي تبللت بدمه الفاسد حتّى تصل إلى الهاتف الأرضي الموجود بزاوية الطاولة، يطلب أم تحسين، بصوت مرتفع، كان يشتاط غضباً
-أصغي، أريد صفيّة تحت أقدامي وإلا أنهيت أمرك وأمرها
-تحت خدمتك يا حاج لكن ما لذي حدث ؟!
-لا تسألي، نفذي فقط
يغلق، تتمتم أم تحسين محدّثة نفسها في تساؤل
-ما الذي فعلته تلك الوقحة ؟!
أتى المساء، كان شبيهاً للصبح لكن سقوط العتمة منحه المزيد من الخوف، ضمّت أم تحسين وفريدة فتاة أخرى إلى القائمة، إنها غصون، سارت الخطّة كما يجب، عاد أبو عماد إلى بيته ليجده مسروق، كانت زوجته تودُّ وضع الذهب الذي تحمله في الدرج فوجدته فارغاً، قصّت غصون ما حدث معها، لم يصدق أبو عماد

ذلك فسارع في طلب أم تحسين التي تقبلت الموضوع برحابة صدر وتكفلت بإعادة المسروقات شرط أن يسامح أبو عماد غصون على فعلتها وحدث ذلك، لم يبلّغ الشرطة بالذي حدث، أصبحت مغلوبةً على أمرها !

كان عقل أم تحسين مشغولاً بإرضاء الحاج فكرت، ما الذي ستفعله من أجله، يستطيع الحاج إغلاق مكتبها ورميها في السجن متى يشاء، يعلم كلَّ أسرارها و قذاراتها، ذهبت إلى بيت فريدة بعد إنهائها المهمة بنجاح، حدثتها، هي تلك الذكيّة التي تجد حلاً للكثير من العقد التي يصعب حلها، فريدة توعدت بإلقاء صفيّة بين أقدام الحاج فكرت ولكن على أم تحسين أن تذهب إلى بيتها و تعتذر لها عما حدث، ذلك بعد أن تتساءل عن عدم قدومها بعد انتهاء عملها في مكتب الحاج فكرت إلى مكتب الخدم، كأنها لا تعرف شيئاً عمّا حدث، عليها أن تتأسف وتشتم الحاج وتعطيها بعض المال ثمّ ستقوم فريدة بما بقي من الخطّة، نالت الفكرة إعجاب أم تحسين، دائماً ما كانت تبهرها بحلولها حتى أصبحت تثق بكامل حلولها، كانت فريدة من اقترحت فكرة قائمة فتيات الهوى بتلك الطريقة بعد أن كانت أم تحسين تعمل بالطريقة التقليديّة، توعدت فريدة بجني الكثير من المال بهذه الطريقة ولن يستطيع أحد كفهما وبالفعل جنت الكثير من المال وكانت الأمور تسري بمنتهى الأمان

لو فرضنا أنّ ما تفعله فريدة ذكاءٌ نادرٌ هذا يعني أنّ ما يقاتل البؤساءُ من أجله من الشرف والحريات والكرامة محضُ مقاومةٍ لن تصمد طويلاً أو قصّةً يعرف الممثل أحداثها قبل الشروع في تمثيلها لكن هذه الحياة بقداسة قدرها يستحيل التنبؤ بخيرها وشرها، في بيت أحدهم ينام القاتل هنيئاً مرتاحاً لما فعل وكأنه لم يفعل شيئاً، وفي بيتٍ آخر ينام البائس من فرط القهر، قد تعب من زيارة الحلم فحمله النوم بعيداً ليرتاح من ألمه المتواصل، يريد إنقاذه قبل التفكير بحيلةٍ تخلصه من الحياة بأسرها، لا القدر أعمى ولا الحياة ساذجة، فقط هكذا الدنيا تسير في بقعةٍ ما على هذه الأرض !!

***

-موافقة

ألقت عروبة هذه الكلمة على مسامع أمها وكأنها تدلي اعترافاً بذنب، كانت هذه الكلمة تحتاج إلى جهد الرسول في إيصال رسالته فور وصوله، قبل أن يلتقط أنفاسه، شعرت بلين قلبها في ترديدها فعاودت الكرّة بقسوة !

-موافقة، قولي لأبي أني موافقة !

انحنت أمها لتطبع قبلتين على خديها، بالكاد تستطيع عروبة الصمود، قد أعطت كلّ الفرحة لأمها، هكذا بدا الأمر!

-مبارك يا طفلتي، سأذهب لأخبر والدك، عليه الاتصال بأبي

ممدوح وإعلامه بموافقتكِ
تجلسُ على سريرها بجوار سعاد، هذا الصمت ليس بالمكان الصحيح، لا ترتبط سعادة الفتاة به في أغلى لحظات حياتها، لو استطاعت سعاد أن تسألها: وأحمد ماذا عنه؟ لتتأكد وتشبع رغبتها ببتعادها عنه للأبد
غمرت عروبة وجهها بيديها
-الحمد لله
ضمتها سعاد إلى صدرها، ربما أيُّ كلمةٍ ستدخلها في نوبةٍ من التعاسة، هذا الحضن يكفي بالنسبة لعروبة
-سعاد
-نعم
-سأشتاق إليكِ كثيراً يا صديقتي
طبطبت على كتفها وهي تردد باكية، غير أنها لم تعرف السبب في بكائها، لخداع صديقتها أم لفقدها !
-وأنا أيضاً
تقدم محمود لعروبة وأعلم والدها بأنّه سيسافر برفقة زوجته إلى كندا، هناك سيعيش مع عائلته، أخبره بأنه لن يتأخر في زواجه بعد الخطوبة، لن تتجاوز المدّة عشرة أيام، وبينما يجهز أوراقه وأوراق زوجته للسفر سيمكثون عدّة أيامٍ في إحدى المناطق الجميلة في البلاد فور زواجهم، وضع والدها احتمال رفضها بسبب دراستها

بل كان متأكداً من ذلك –بينه وبين نفسه- فاجأته بذلك القرار، لكن طالما كان الشأن شأنها والحياة حياتها، هكذا رباها، دخلت كليّة الحقوق لتشارك أحمد حياته بكامل تفاصيلها وبداعي غيرتها الكبيرة، الآن قد تركته، ربما لم يعد لدراسة الحقوق أيُّ معنى، وافقت لأنّ ابتعادها عن البيت الذي يقابل بيت حبّها الطفولي ثمّ عن الحيّ ثمّ عن البلاد سيساعدها في النسيان أكثر، عروبة لا تريد جلب المشاكل لأهلها، شيءٌ من العرفان ستقدمه لأهلها، كم كانت تريد الرحيل حالاً كي لا يستطيع رؤيتها وهي على ذمّة رجلٍ آخر، كانت تعتقد أنّ الوقت كفيلٌ بقتل كلّ ما يصعب عليها، الوقت حليف النسيان !

وافقت لأنها إن بقيت هنا ستبقى على قيد هواه حتّى لو عزمت على نسيانه، كلُّ المحاولات ستبوء بالفشل، لم تستطع التمرد على قلبها !

***

بعد الاستقرار في حيّ الضباط، كانت هذه الليلة الأخيرة للرائد بلال، سيذهب في صباح الغد إلى حلب كي يقوم بالمهمّة التي وكِّلت إليه، قد تستغرق شهراً أو أكثر من ذلك

أتى يحيى مصطحباً زوجته لتوديع أخيه الصغير قبل الرحيل، جلسا في تقابل، يتابع يحيى حركات أخيه ويقارنها بنفسه، لم يكن مطمئنّاً لما يحدث بعكس أخيه تماماً، بدا بلال مرتاحاً للمهمة

الموكلة إليه، لا يريد يحيى زيادة التوتر على زوجة أخيه فلم يفتح حديثاً يتعلق في الأحداث التي تدور في البلاد، بل كان يشارك الجميع بهجتهم، أجّل ذلك الحديث إلى حين فراغه بأخيه، كانا وحدهما عند الباب

-لا أريد تنبيهك على نفسك، كن حذراً

-وأنا أيضاً، لا أريد تنبيه أخي الكبير، زوجتي والأولاد في أمانتك

يضحك وهو يداعب خدّه بصفعةٍ خجولة

-لم تكبر بعد، اسمع يا بلال، ربّما الذي أخمنه سيحصل لكن أفضل أن أكون مجنوناً على أن يحدث ما أُخمن !

-أوه، أخبرني وأنا سأقرر

-لن تستمر الأمور بهذه الدرجة من الانضباط، هناك مخططات للنيل من هذه البلاد، سيرغموننا على القتل فيما بيننا، وحدنا سندفع الثمن لن يتكفلوا بثمن رصاصةٍ واحدة يا أخي، يجب أن تعي ذلك، كلُّ فردٍ من البلاد يجب أنً يعي ذلك، لا أعرف من هم، من أين، من الداخل أم من الخارج! لكن ما أنا متأكدٌ منه أنهم يريدون جرّنا إلى الخراب بأيدينا، يريدون تحويل هذا المكان من أرض الحبِّ إلى أرض الدّم، لن يهنأ أحدهم حتّى يشاهد في عناوين الأخبار أنّ أحدنا قتل أخيه، أنا أشعر بالحقد المكبوت في صدورهم تجاه هذه البلاد

كانت عيناه لامعتان صادقتان، كأنّه يقول كلاماً حدث بالفعل، لم

يعطِ بلال لكلام أخيه الشأن الكبير، طالما كان أنانيّاً تجاه وطنه، أجاب بابتسامة ودودة وهو يفتح يديه ليعانق أخيه الأكبر

-سنكون بخيرٍ جميعاً

يودعه، قبل أن يطول الحديث أكثر، يصل صوت زوجته من الشارع، كانت تستعجله

-زوجتك في انتظارك، هيّا يا رجل

-إذاً وداعاً

-مع السّلامة

غير أنّ يحيى علم أنّ أخيه لم يعطِ لكلامه أيّ شأنٍ ولم يأخذه على محمل الجدِّ، كان يخاف عليه، منذ وفاة والدهما وقد تولى مهمّة رعايته وهو من أقنعه بالدخول إلى الجيش وهذا الأمر يلقي على عاتقه أيّ مكروهٍ قد يتعرض له أخيه عدا كونه المسؤول الأول عنه، كان في مرتبة أبيه، لا يشعر بأنّ بلال قد أصبح برتبة رائد ولديه ثلاثةٌ من الأطفال، سيبقى في نظره طفلاً إلى الأبد

***

استقبل محمود خبر موافقة عروبة بسرور بالغ، أحلام أحدهم تقبع فوق خراب آمال الآخرين !

-عليك إعداد الكثير من الأمور، ليس لديك وقت كافي للاحتفال

-لن أقلق لذلك، خالتي أمُّ ممدوح سوف تتكفل بالواجبات التي تتعلق بالنساء

-يحقُّ لك، اليوم تلقيت خبرين جيدين، الأول هو أني نجحت في المهمة الموكلة إليّ اتجاهك

-و الثاني ؟

-اتصل ممدوح، قد بدأ خدمته الإلزامية، كان فرزه إلى حلب !

-الحمد لله

وتدور الحكاية، تمر تسعة أيام، ودّع تشرين أخاه الأول، كان الانتظار طويلاً على الجميع، أحمد ومحمود وعروبة، سلمى وربيع، سعاد، والمعدين لسرقة البنك والمنتظرين شارة الموافقة لدخول شحنة المخدرات إلى المدينة

من السيء أن يقف المرء مكتوف الأيدي، أحمد لم يعرف شيئاً إلا تعاقب الليل والنهار، كان يشكر اليوم الذي يمضي بسلام ويطلب السلام من الآتي وغيره ، لم يعد مكترثاً لضياع الأيام، مرت كثيرها حتّى أخطأ في عدِّها، لا يأبه أبو الهدى إذا كان في داخل السحن أو خارجه، ينتظر ياسين اليوم الذي يخرج فيه، يحفظ ذلك التاريخ، يبطء الوقت كلما اقترب منه

-هل ننفذ الأمر يا سيدي ؟

-على الفور، أخرجوا كلَّ من شملهم قرار العفو

-حاضر يا سيدي

صدر عفو قطع انتظار الجميع، خرج كلّ الشبّان في اليوم العاشر، كان للفرحةِ مكانٌ بينهم في الزنزانة عندما دخل أحد السجّان

وقرأ عليهم قرار العفو، دخل السجّان إلى الزنزانة التي يتواجد فيها أبو الهدى وياسين، كان العفو يشملهما، فرح ياسين وزاد تفاؤله بدا مندفعاً للحياة بقوّةٍ، قضى ياسين سبعةً وعشرين يوماً وكان أكثر السجناء فرحاً، وأبو الهدى الذي قضى ما يقارب إحدى عشرة سنة لا يبالي، بعد إملاء السجّان القرار عليهم، يدخل كمال لإلقاء نظرةٍ عليهم وهم بمنتهى السرور لذلك، تقع عينيه بعين أبي الهدى هذا الرجل الوحيد الذي لا يهابه، يعمّ الصمت في المكان بأسره كان الجميع إذا دخل كمال أو حسن، أصغوا بعد التزامهم بالصمت، حدّق دون أن يكسر عينه، مرّت إحدى عشرة سنة وما زال يتذكر تفاصيل ذلك اليوم، كلُّ يومٍ يمضي يزداد حقده على كمال، أصبح مدنيّاً الآن، هذا الرجل لن يخرج ليكمل حياته بسلام، هناك الكثير من القصص التي يجب أن يعاد نشبها وإعادة سردها بالمثل، إحدى عشرة سنة وهو يفكر بشيء واحدٍ كيف سيعذب كمال عما فعله به !

كان أحمد يتكأ على كتف صديقه ربيع، يقفان أمام باب السجن، يريد أحمد الاطمئنان على ياسين صديق الصدفة والسجن

-ربما لم يشمله العفو يا أحمد !

-لا أعتقد ذلك، خرج الكثير من الناس، ربما هو بينهم ولكن لم يحن موعد خروجه

تأخر كمال في إخراجهم، كان يريد إيصال معلومة لأبي الهدى أنّه

مهما تبدل حاله سوف يبقى الأقوى وسيبقى أبو الهدى في المرتبة الأضعف

-هيّا يا أحمد، نال منا التعب

يفقد الأمل، يلقي نظرةً على باب السجن الصدئ، كأنّ الدنيا مرّت من هنا، من أمام الباب وهي تعيش حياتها بسلام، في الخراج بعيداً عن الضجيج الذي يحدثه كمال أثناء تعذيبه لأحدهم، بدا السجن من هذا المكان كيمامةٍ اعتادت على كسب لقمتها من يدي أحدهم دون الذعر منه، عشرين متراً إلى الداخل وتتحول اليمامة إلى وحشٍ فتّاكٍ يقتات على أصوات الألم والأجساد والأرواح، يرفع يده الثانيّة ويضعها في يد ربيع، سيجد صعوبةً كبيرة في المشي وحده، ربيع الذي لم يكن بحالٍ جيدة لكنه أقلُّ سوءاً من صديقه أحمد

-بحذر يا صديقي

شغلت الجملة التي نعته بها كمال الجزء الأكبر من دماغه، أيعقل أن تكون الحقيقة بهذه الدرجة من السوء يا أحمد؟ أنا مجرّد نزوةٍ عاطفيّة قذرة لأحدهم، مجرد نشوةٍ عابرة لم يكترث أحدهم أنها ستنمو وستصبح طفلاً، ترك ربيع صديقه شارداً، كان منشغلاً بمراقبة الطريق علَّ أحدهم يمرُّ ويقلهما في طريقه، قطعا مسافة مئة وخمسين متراً بعيداً عن السجن

- أبعد يدك عني يا ربيع

-ماذا ؟
-قلت لك أبعد يدك عني، اتركني وحدي
لا يمتثل ربيع لأمر أحمد، يعصي كلامه ثمّ يدفع قدمه نحو الأمام راغباً بإكمال سيره بعد أن وقف أحمد وألقى كلاماً غريباً، كانا ملتصقين ببعضهما، يرفع أحمد يده عن كتف ربيع ويجلس على الأرض جلسة القرفصاء، يتأمله ربيع في تعجب
-أرجوك يا ربيع، اذهب وحدك
-هل تدرك ما أنت بصدد فعله أيها الرجل الصامد ؟
-يرفع رأسه ليستطيع رؤية ربيع، كان قد هبط برأسه إلى الأرض، وقتها تسنى لربيع معرفة اليأس الذي وصل إليه أحمد
-هل تعلم ماذا قال لي أحد المحققين؟ كنت خجولاً من حقيقتي طوال تلك السنين يا صديقي، أُحاول التلاعب عليها حتّى أبدو إنساناً عاديّاً، قال لي: أنت مجرد نزوةٍ عاطفيّةٍ قذرةٍ لأحدهم، ما أقبح الكلمات ؟!
إنّه ليس أحد الأيتام حتّى يقول ربيع كلاماً في هذا الشأن، كان فارساً عارك الحياة وانتصرت عليه، لم يمت بل أحكمته بضربةٍ قضت على إيمانه فقط، لا يريد الصمت بعد سماعه الكلمات المؤلمة من صديقه، ولا يعرف شيئاً يجب قوله في هكذا لحظات، صرخ في وجهه دون أن يعي ذلك :
-ماذا تريد أن تفعل، أن تستسلم، هيّا استسلم، أو أنّك تريد

تصديق ما قاله أحد الأنذال، كان يستغلُّ نقطة ضعفك البشري فحسب وأراه نجح في ذلك !

يتحرّك فم أحمد، كان يريد قول شيء لكن الاحتراق الذي في داخله منع أيّ محاولةٍ، بدا كشجرةٍ يابسةٍ تأكلها النيران شيئاً فشيئاً ولا تعرف كيف توقف ذلك، التوَتْ الكلمات في قوله، كنطقِ الحروف في أوّل الطفولة، تلك النّار أكبر من أن تُطفأ بدمعة

-أنا متعبٌ جداً، أنا متعبٌ جداً يا صديقي

يندفع ربيع نحوه، يمسكُ بيده وينهضه بقوّة الصديق، رغماً عنه، تحامل على جسده المضنى من التعب، لن يترك أحمد في هذا المكان وحده، يحاول إبعاد ربيع عن مساعدته، لا جدوى، ذلك الحبِّ الذي يكنّه له لن يذهب سدى، حتّى وإن كنت ترغب بذلك، وإن كنت ستسامحه إذا تركك أو ستبغض عليه إذا حاول انتشالك، لن يقف مكتوف الأيدي أمامك، كان أحد لا يستطيع رفع يده عن كتف ربيع، قد ثبّتها بقوّة يديه وأرغمه على المشي برفقته فبدا جسداً واحداً يتحامل على بعضه حتّى ينسى ما فيه من وجعٍ، يصرخ أحمد منهكاً

-اتركني، قلت لكَ اتركني، اتركني أيّها اللعين

-اخرس، لا أريد سماع صوتك أبداً

للحظة ما، كان يرغب بضربه، ما تجرأ على قول -رجلٌ صامد- خانه الأمل حتّى أصبح عارياً في وجهه اليأس، تمر إحدى السيارات

على الشارع العام، يومي ربيع بيده طالباً المساعدة، يقف صاحب السيارة في شفقة، يفتح ربيع الباب الخلفي للسيارة ويركن صديقه بهدوء، يمتثل بجوار السائق ثمّ يقدِّم له الشكر على المساعدة، حدّق سائق السيارة في وجه ربيع، كانت بعض الكدمات لها مكانٌ تحت عينيه وبقعة دمٍ متخثرة في النّاحية اليسرى لفمه، لم يسأل، كان يشعر بالخوف، ربما ندم على إقلالهما في سيارته، تأسف ربيع في نفسه عندما فهم ذلك، بدا انطباع الاشمئزاز جليّاً على وجه السائق، لم يكن أحمد واعياً لذلك، قد دخل في حالةٍ من الهذيان، لم يعد أحمد يستطيع التركيز بأكثر من جملةٍ واحدةٍ نطق بها كمال في حقّه، من شأن هذه الجملة أن تعيد ذكريات سبق له أن نسيها، فيها الكثير من كلامُ الآخرين حول حقيقته واستهزائهم به، أغلق عينيه، يريد أن ينسى من يكون، في عتمةِ خياله لم يرَ أحد، سمع صوت عروبة، كانت تلقي قصيدةً يحبها، كان الصوت قريباً جداً، الصوت فقط، سمع أزيزاً يشبه صوت حركة عجلات كرسي أُمه المقعدة، تخيل عروبة تدفع الكرسي باتجاهه وهي تلقي القصيدة، كان الكرسي بلا جليس، فارغ فحسب، صنع ذلك في خياله الضيق، شيءٌ من التمني في خضمِّ الحلم، لم يكن له متسع أمل في حلمه أو ثمن شمعةٍ ليشعلها ويتأكد من وجود عروبة بجواره في الحلم فقط، كان يتمنى !!

ليس لديّ الكثير من الذكريات الجميلة

لأقولها لكِ
ولا أحفظ الشعر أو أكتبه
كلُّ ما أجيد الحديث فيه هو أنتِ
أنا بلا هويّة
وبلا ذاكرة
وأحبكِ أيضاً . .
أخبري باب البيت أنّ العالم ينتهي عنده
أخبري أباكِ
أني أُحبكِ أكثر منه
أنتِ في كلِّ مكان
قهوة المساء
بين كانونٍ وكانون
وصفحات الكتب الدراسيّة
المطر. .
طفولتي الأولى
ابتسامة أميَّ
وشهر تشرين
أنتِ النهايات السعيدة يا حبيبتي
لم نبتعد سوى عن الأيّام
ما زالت فيروز كلَّ يومٍ تغني لنا :

أهواك بلا أملِ !

وصل جميع الشبّان إلى الحارة، فضّل أحمد المشي إلى البيت وحده، حاول ربيع البقاء معه حتّى يصل إلى المنزل، لكنه رفض ذلك أمره بالدخول إلى منزله، كانا يقفان أمام بيت ربيع، استعان بالحائط حتّى استطاع الوصول إلى البيت، لم تكن المسافة طويلة، على بعد بيتين وخرابة، كان كلما اقترب، كلما ازداد الضجيج أكثر، صوت تصفيق نسائي مع زغاريد وغناء متداخلاً بدبدبة طلبة، كان ذهنه مشتتاً حتّى يعرف مصدر الصوت ولم يكترث لذلك، إنّه يوم زواج عروبة ومحمود !!

وضع المفتاح في مقبسِ الباب ودفعه، عرفت أم أحمد أنه هو، كانت في البهو رافعة اليدين وتدعي لله، دفعت عجلات كرسيها كي يتسنى لها النظر في الممر المؤدي إلى باب البيت، إنّه أحمد يستند إلى الحائط ويحاول الوصول إلى حضن أمّه، كأنّه ما زال طفلاً يتعلم المشي لأوّل مرة

-ولدي!! تعال يا ولدي

ينكبُّ على فخذيها، ربما لم تكن أمّه لكنّه طوال الفترة التي عرفها بها فضّلها على أمّه الحقيقيّة، كان مطمئناً لإيوائها، مسحت على شعره باكيةً

-من فعل بك كلّ ذلك يا ولدي ؟

يرفع أحمد رأسه في فزع، قد تناسى ما فيه من ألم، وقف على

قدميه وتوجه إلى منتصف البهو، كان يبحث بين الأغراض التي تستعملها أمّه في تيسير أمور البيت من الطبخ والمهام التي يمكن لمقعدةٍ فعلها، يمسك سكيناً بيده اليسرى، يفتح كفه الأيمن ثمّ يطالب أمّه بالنظر إليه

-انظري يا أمي، أنا أشعر بالألم ، آه

قد أحدث جرحاً بعرض كفه بأكمله، انسكب الدم على طول ساعده حين رفع يده المجروحة إلى الأعلى، كان يصرخ

-انظري يا أمي، أنا أستطيع الشعور، أنا لست حجراً، أنا من لحمٍ ودمٍ وعصب، اللقطاء من الجنس البشري يا أمي، اللقطاء يشعرون بالألم يا أمي

تحاول منعه عن الصراخ وإجهاد نفسه أكثر، ما لذي ستفعله وهي مقعدة! كان قيصر يراقب أخاه من نافذة الغرفة التي تطلُّ على البهو، الغرفة التي ينام فيها برفقة والدته، لم يفهم ما يقول أحمد، طلبته أمُّه فأتى مسرعاً، أرسلته في طلب ربيع كي يُضَمِدَ جرح أحمد، هدأ لأنّه لم يعد قادراً على الصراخ، ترك يده حرّةً كأن لم يصبها شيء، كان الدم ينسكب بغزارةٍ، ترك أمّه في بهو البيت، تلك التي حافظ على ألّا يشاركها في حزنه فانفجر بأعظمه، دخل غرفته ورمى بنفسه فوق السرير، وصل ربيع في الحال، هرع مسرعاً إلى غرفته بعد أن رأى في عيني أمّ احمد طلب المساعدة

-مجنون، ماذا فعلت بنفسك ؟

قد فقد شهيّة الحديث، كان ضغط دمه مرتفعاً جداً، ساعد الجرح الذي أحدثه في تخفيف الضغط عبر خروج الدم، وضع قطعاً من القماش على يده بعد أن نظّفها وتأكد أنّها لا تحتاج للخياطة، لحسن حظه لم تكن السكين في تمام الحدّة، ارتاح، كان يحدِّق إلى السقف بوجهٍ متعرقٍ

-أريد الاطمئنان على عروبة

كلُّ ما يهم ربيع الآن هو تضميد جرح أحمد، كان قد علم أنّ الضجيج من أثر العرس، يحاول إشغاله

-لا يجب عليك التحدث، لست على ما يرام

-طوال عمري لم أكن على ما يرام، كيف لي أن أطمئن على عروبة ؟

يزفر ربيع بعد أن أحكم الشاش الطبيّ حول يد أحمد، بربطه جيداً وبصوتٍ خافتٍ، بدا أخفض من صوت الضجيج في الخارج

-أحمد، هذا الضجيج الذي في الخارج، لا أعلم ماذا أقول! اليوم زفاف عروبة ومحمود، تقدّم لها ونحن في السجن ويبدو أنّ الزواج قد رتّب له سريعاً، انسى أمرها يا صديقي

لم يتحدث، اكتفى بنقل وجهة نظره إلى الحائط، بعكس الجهة التي كان يجلس فيها ربيع، كان مستلقيّا فحسب

-عندما دخلت إلى البيت كانت أختي تعدُّ نفسها للذهاب إلى حفل صديقتها، كلمتني عن ذلك، وأوصتني بأن أبلغك، تخلصت عروبة منك، لم تعد تحبك، كلُّ ما عليك فعله هو النظر إلى حياتك

بدونها، كما فعلت هي !
-بهذه السرعة!! أنا. . أنا لا أريد منعها من ذلك، كان يكفي أن تقول لي أنّ محمود سيتقدم لها وأنّها ستوافق، لن أقارن بيني وبينه إذا كانت تخشى ذلك، إذا كانت تخشى تركها لي لهذا السبب فأنا سأحزن لو علمت، نعم يا ربيع هنالك فارقٌ كبير بيني وبين محمود، من حقِّ عروبة أن تختار، لا أن تتركني بلا سبب !
يستجمع كلماته ثمّ يكمل :
-هذا ما كنت أخشاه يا ربيع، أن تبقى عروبة أمام ناظري وهي ليست لي، أن أراها سعيدةً مع غيري بعد أن فشلت في تحقيق ذلك، آه، لو بقينا أطفالاً فحسب، كانت الحياة بسيطةً في نظرنا، منتهى السعادة القليل من الطين برفقتها، لو أننا لم نكبر!
رفع نظره مجدداً إلى السقف، كان ينتظر ربيع حتّى يتكلم
-قد تتنهد الحياة لكثرة العابرين، لكنها لا تتأسف لرحيل أحدٍ يا صديقي . .
-الحمد لله . .
يستطيع سماع الأصوات التي تؤكد له أنّ عروبة فارقته لكنها لا تستطيع سماع ما قال، لم تعرف أنّ أحمد خرج للتو من السجن، لم تخبرها سعاد بذلك، طالما كانت الابتسامة تعلو وجهها وتدّعي الفرح أمامها، بدت عروبة كأنّها مفارقة وليست في أقدس أيام حياتها، لو علمت أنّه في البيت، لن تستطيع فعل شيء، بل ستحرق

أكثر، جاء محمود وألبسها الخاتم، أصبحت زوجته
عاد ربيع إلى بيته، أصبح وحيداً بين أفكاره التي طالما حاربته، كانت المسافة قريبة، يستطيع سماع أصوات مزامير السيّارات المفتوحة على آخرها، خرجت عروساً لغيرِكَ يا أحمد
كانت تلقي نظرة من تحت الوشاح المطرّز الأبيض إلى باب بيته وكأنها تقول له وداعاً يا أحمد، عيناها قالت إلى اللقاء!
لهذه الحكاية بداية طويلة ثمّ نهاية قصيرة، إنّه الحبّ الذي يطوق الحياة ولا حياة فيه، عرفت سعاد كيف تقطع شريان الدم بين قلبيهما، أقنعت الاثنين بقرار الانفصال دون أن يشعر أحدهما بأنّها خلف كُلِّ ذلك التدبير
نهض من فراشه، فتح درج طاولته، رغبته جامحة بتمزيق كلّ ما أهدته إيّاه من رسائل عبر خمس سنين، كانت الرسالة الأولى مفتوحة فاستطاع قراءتها فور وقوع عينه على الرسائل : عيناكَ لم تتغير وكذلك قلبك، أحبك بالقدر الذي عجنا بهِ طيناً
تمر الرسائل واحدة تلو الأخرى بين يديه، كأنّه لم يقرر قبل فينةٍ أن يمزقها جميعها، بعد أن قرأها أمسك القلادة بيده المجروحة وغمرها، كان يشعر بكلا الألمين معاً ألمُ الروح وألمُ الجسد !
في عتمة تلك الغرفة كان يتمتم في انكسار، قد هدأت الأصوات في الخارج
-أحبك يا عروبة، أحبك، هل يعقل أن تفعلي كلّ ذلك وأنا في

السجن، لا أصدق، لن تنسي طين الطفولة أبداً، لو أستطيع لموت، كان أسهل عليَّ من هذا اليوم

يفتح يده محدِّقاً إلى القلادة، قد أُتخم حزناً في هذا اليوم، يقول بروحه المتعبةِ في صوته:

-رافقتك السلامة . . يا حبيبتي

وصل أبو الهدى إلى الحيّ الذي يعيش فيه، كان يتمختر كأنّه قضى يوماً واحداً في السجن، سرعان ما انتشر الخبر في أرجاء الحيّ، كلعنةٍ حلّتْ على الجميع، طرق باب البيت بقوّة، فتحت له أخته جمانة في تعجّبٍ كبير

-أخي، حمداً لله على سلامتك

-ابتعدي

يدفعها بيده، كانت تريد عناقاً بعد إحدى عشرة سنة من سجنه، دخلَ إلى البهو، كانت والدته تحاول إطعام والده، بدا بحالةٍ صحيّةٍ حرجة، لم يكن مريضاً أو على عكّازٍ حين دخل السجن، فُطِرَ قلبه لكن وجهه بقي عبوسَ الملامح، يضع الحقيبة التي كان يحملها بجواره و جثو على ركبتيه

-أبي، أنا محمد ديب، ألم تعرفني ؟!

كانت الماء الزرقاء قد ملأت عينيه، لم يرَ إلا غباشاً، هزَّ الوالد رأسه بالإيجاب، ميّز الصوت فقط، شهقت الأمّ بعد رميها للملعقة في

الصحن، كان الأبُ يرفض الطعام على أيّة حال
-والدك لم يعد على ما يرام يا محمد ديب، لم يعد بكامل قوته، مضى وقتٌ طويلٌ على رحيلك
داعبت شعرهُ بيديها، فضل القيام علاوةً على أن يفكر بكلام أمّه وهو محدّقُ النظر إلى أبيه شبه الميت، راودته الصور مجدداً، رفع رأسه ليلقي نظرةً إلى السقف العلويّ، ركام الأحجار كما كان عليه قبل أحدَ عشر عاما
تعود ذاكرته لتعرض أمامه الصور، كان أبو الهدى مشاغباً جداً، يقوم بجرائم بسيطة مثل النشل في الأماكن المزدحمة أو نصب مبلغ زهيد من المال على أحدهم، لم يهنئ لمرّة واحدة بالمال الذي يجنيه، سرعان ما يدخل إلى السجن، وييأس من نفسه، لم تورِّث له عمليات النشل والنصب سوى السمعة السيئة، كان يندب حظه في غرفته التي ما زالت حجراً وإسمنت وفقر! لا يتقن حِرفةً أو صنعةً حتّى يعمل بها أيضاً، الفقر هذا كلُّ ما كان يدور في مخيلته، دخل إليه أبيه، كان ذو جثّةٍ كبيرة، عريض المنكبين، يُطعم أُسرته من جمع النايلون والبلاستيك وفوارغ الكولا من حاويات النفايات، يستخدم درّاجة هوائيّة للتنقل بها، ثمّ يبيع ما يجمع ليحصل على المال، لم يكن وافراً لكنه استطاع بناء بيت صغير وإقامة عائلة فيما بعد
-أتعلم لم الله فعل بك ذلك ؟!

يرفع أبو الهدى نظره مصغياً، يحتاج إلى الإجابة، كان السؤال نفسه يدور في رأسه، يستطرد والده في الحديث

-لأنّه يحبك !

-يريدك أن تغير طريقك لأنه يحبك، قلبك أبيض يا ولدي، لا تحاول تلويثه فهو يرفض ذلك، حاول أن تكون ما يجب أن تكون ألقى كلماته ثمّ ابتسم متفائلاً وهو يقرر الرحيل، إنّها الصحوة، كان أبو الهدى ينتظر الصباح بفارغ الصبر حتّى يستطيع البحث عن عملٍ في الخارج، تعلّم شيئاً مفيداً وأصبح يجني المال، لم يأبه للتعب الذي لقاه كونه لم يعمل من قبل، جلُّ التعب يزول عندما يجد أنّ الله يدفعه للأفضل، كان ذلك جليّاً في زيادة رزقه، في سنة واحدة قرر الاستقرار والزواج، بنى غرفةً على السقف كانت أول إنجازٍ له، وضع فيها ما يملك، عدا أنّه وفر للزواج ماله، وفي إحدى الليالي كان يساعد عمّال البلاط في إعداد غرفته، كان بمنتهى الرضا، وقفت سيّارة البلديّة أمام باب البيت، في هذه المنطقة لا يسمح بإعمار المباني مهما صغر حجمها بدون إذنٍ رسمي من البلديّة، كانت العشوائيّات تبنى بفوضى كبيرة، طُرِقَ الباب، على الغالب لا يقف في وجه رجال الدولة أحد، الجميع يستسلمون للأمر الواقع، وقف أبو الهدى في وجههم ومنعهم ثمّ دفع الباب بقوّةٍ في وجههم، عادوا مرة أخرى برفقة رجال الأمن بقيادة كمال، لم يحتمله عقله عندما شاهد أول عمال البلديّة وهو يرفع المدقة

الضخمة عالياً ليمنحها القوّة في تحطيم السقف الإسمنتي، هجم عليه بدون وعيٍ وضربه، وتوعد الجميع بضربهم إذا فعلوا ذلك، تقدم إليه كمالٌ وطلب كفّه عن فعله وادّعى أنهم سيقومون بعملهم وسيرحلون دون أن يضطروا لأخذ أحدهم معهم، ما استطاع أن يرى تعب السنة يهدم في خمس دقائق، رفض ذلك في وجه كمال، اشتاط الثاني غضباً، ما لذي سيفعله رجلٌ مدني أمام ضابط برفقة دوريّة كاملة، صفعه، ما تبادر لذهن أبو الهدى إلا ضربه، ضرب كمال، لم يستطع أن يسدد إليه أيّ ضربةٍ بعد الصفعةِ، ولم يتمكن عناصره من الإمساك به إلا بعد أن توهن، جره كمال إلى السجن وبعد فترةٍ من تعذيبه دخل عليه، كان معلّقاً رأساً عل عقب عبر حبلٍ مثبت في السقف، جلس كمال على كرسي بجواره، كان يقلّبُ في هاتفه النقّال

-سأريك فتاتين تجيدان الرقص فوق الركام يا أبا الهدى، انظر، قالوا لي أنك موسيقي

ذهب كمال إلى بيت أبي الهدى وهدم له الغرفة بأكملها ثمّ أجبر أمه وأخته الرقص مع موسيقى شعبيّة يحبها !!

جُنَّ جنونه عندما شاهد مقطع الفيديو، كان يبكي وهو يصرخ غضباً ويضحك عليه كمال شامتاً، ظلَّ يداعي بقضيته، بأنّ محمد ديب قد اعتدى على ضابطٍ حتّى وصل به الحكم إلى خمسة عشر عاماً، تغيرت فيها قناعته، ربما عاد أسوء مما كان عليه، حتّى

ملامحه تغيرت، يظهر وجهه بتمام العبوسيّة، لا يضحك، ولا تخرج من فمه إلّا الألفاظ القاسية، حوّله كمال إلى وحش دامي

يهبط بنظره متأملاً أخته جمانة المسكينة، قد بلغت الثلاثين من عمرها ولم يطلبها أحد، سمعته السيئة طالت حياتها أيضاً، يُدَقُّ البابَ بقوّةٍ وبتتابعٍ غليظ

-أنا آتٍ

يفتح الباب

-لا أصدق، معلم، قالوا لي وكذّبتهم حتّى رأيتك بأمِّ عيني

ينكبُّ في عناقٍ معه وهو يقول: أهلاً يا غيتار

-لم يكن سوى يومٍ أمضيته مع الأشباح، أين باقي الفرقة الموسيقيّة؟

-ينتظرونك، هلّا أتيت معي !

-حالاً

كان أبو الهدى موسيقيّاً هاوياً يعرف العزف على آلة الكمان و الغيتار المفضلان له ويدندن قليلاً على العود، تعرف على مجموعةٍ مكونةٍ من تسعة شبابٍ وتعلّم النشل والنصب في فترةٍ سابقةٍ، كان ذو شخصيّة قويّة وذكاء حاد في ممارسة تلك المشاغبات، حتّى فرض على الجميع اسمه وأصبحوا ينادون له المعلم، في الفترة التي عمل فيها قاطعهم جميعاً شرَّ قطيعةٍ، ثمّ بعد مرور كلّ تلك السنين يجد السوء على باب بيته، كانوا تسعة رجالٍ أطلق عليهم الفرقة الموسيقيّة، ألّف الاسم من وحيه المثقل بالموسيقا، هم لا

يعرفون عن العزف شيئاً: غيتار، كمنجة، عود، بوق، بيانو، فلوت، قانون، مزمار، وكان آخرهم نحيل البنيّة وغبي، ميزه أبو الهدى عن الجميع الذين يملكون بُنى قويّة وأطلق عليهم اسم طبلة ركبا في سيّارةٍ تتبع للهلال الأحمر!

-ما زلتم في نفس البيت ؟

-منذ دخلت السجن غيرنا البيت، نحن نقيم في أطراف المدينة يا معلم

-من أين أتيتم بهذه السيّارة، هل هي سرقة؟ كيف تجرؤون على سرقة هكذا سيّارات أيّها الأبله؟! إلّا إذا أصبحتم مؤيدي الإنسانيّة

-إنّها مزورة واللباس الذي ارتديه مسروق، هي مجرّد حيلة لنقل المخدرات والأسلحة يا معلم

-هناك الكثير من التطورات

-لدينا عمل في هذه الليلة، ستعلم بكلِّ شيء، كم كنّا نحتاجك طوال تلك السنين، تتوقف السيّارة أمام بيت كبير له حديقة واسعة وقد عُلقت على بابه لافتة تدل على أنّ هذا المكان يتبع للهلال الأحمر، يدخل أبو الهدى متعجباً، يجد أفراد الفرقة الموسيقيّة جميعهم، يبادلون عناقه واحداً تلو الآخر، ويتهامسون، ما زالت له نفس الهيبة بل وتزيد، قد طالت لحيته وأخذ الشيب منها نصيباً كبيراً، تحت عينيه هالتان سوداوتان مفزعتان، كان كلما نظر وجد سلاحاً وأكياس مخدرات

-تطورتم في العمل
-نعم ولكن منذ هذه اللحظة ستتولى تطويره أنت
تعمّ الضجّة بين الجميع بالإيجاب لما قاله غيتار، يهزُّ رأسه أبو الهدى بالإيجاب لذلك، هذا ما كان يودُّ الوصول إليه، ينطلق طبلة إلى إحدى الغرف مسرعاً وبعد فينة يعود ومعه حقيبة آلة الغيتار الخاص بأبي الهدى
-تفضل يا معلم، خبأتها لك كلّ تلك المدّة
ذُهِل، إنه غيتاره المفضل، يتكشّف معالمه لأول مرّة، يفتح سحّاب حقيبته ببطء كي يتلذذ بلحظات اللقاء، كي تطول، يخرج الغيتار ويقرّب أنفه منه بعد أن مرر يديه وحواسه عليه، أخذ شهيقاً، كم يعني له هذا الغيتار، يزفر وقد لمعت عيناه إثر انحلال دمعتين فيهما
-شكراً لك يا طبلة. . .
يطلب الجميع أن يدندن لهم على غيتاره، إلا أنه ما عاد قادراً على ذلك، نسي الكثير من الأشياء وهو في السجن، اعتذَرَ، احتسوا الشاي ثمّ طلب كمنجة من الجميع تجهيز أنفسهم للذهاب للعمل، يقترب في هذه الأثناء طبلة منه ويعطيه بندقيّة رشاشة ومخزنين رصاص ممتلئين
-إنه لك يا معلم
يأخذهم، ثمّ يتلمس البندقيّة، منذ زمن طويل وما عرفها ولا عرف

التصويب بها، ربما منذ أيام الجيش، استعدّ الجميع، يخاطبهم غيتار الذي كان يتولى أمرهم

-اليوم سيكون معلمكم هو أبو الهدى

يرفع المسدس الخاص بالمعلم من على خصره، ويقدمه لأبي الهدى، يطبطب على كتفه مردداً

-أهلاً بك مجدداً يا معلم

يقفون على إحدى الطرقات المؤديّة إلى المدينة ليلاً ويقومون بعمليات التشليح وسرقة الناس، كانوا يختبئون ثمّ إذا مرّت إحدى السيارات يخرجون بكثرتهم طالبين وقوفه تحت تهديد السلاح، يطالبونه بكلِّ ما يملك من ثمّ يدعونه يرحل بسلام، لأخذ الحيطة أكثر يبقون طبلة في مكان قريب بسيّارة الهلال الأحمر فإذا حدث أيّ مكروه أو كمين يستطيعون التواصل معه ليقلّهم

كان الشارع فرعيّاً، يؤدي إلى زاوية من زوايا المدينة، تنتصب أشجار السّرو والصّنوبر على جانبيه، اختبئوا خلف الأشجار ينتظرون مرور إحدى السيّارات، كانت حركات المرور تَقِلُ في الساعات المقتربة من منتصف الليل، تصل الأخبار إلى المدينة بحوادث السرقة تحت التهديد والخطف وأحياناً القتل، تمرُّ إحدى السيارات فيندفع نحوها البوق أعنفهم، يلقّم بندقيته بحرفية وسرعة وهو يصرخ في وجه السائق الذي توقف خائفاً

-أطفئ الأنوار، ارفع يديك للأعلى واخرج في غضون ثانيتين

كان الجميع قد حاصروا السيّارة، يتقدم إليه أبو الهدى، كان الجميع يضعون أشمخةً على وجوههم ويرتدون بذلاتٍ تشبه بذلات الجيش
-ماذا تفعل في هذا الوقت المتأخر من الليل ؟
-عدت للتوِ من السفر، كان حجز طائرتي ليلاً يا سيدي
-أعرف أنّ العائدين من السفر يأتون بالكثير من المال، أخرج ما معك حالاً
-حاضر يا سيدي
يقترب من سيارته تحت رقابةٍ مشددة ويخرج كيساً أسود ويعطيه لأبي الهدى
-وكم فيه ؟
-ألفي دولار
-هذا كلُّ ما تملك ؟
-نعم بصدق، هذا كلُّ ما لدي !
-فتشوا السيارة يا شباب وإذا وجدتم ليرة واحدة سآخذها كثمن للرصاصة التي سأرسلها بين عينيه
لا يرحم أحد وما رقَّ قلبه، كان مصمماً على كلامه، لم تكن حيلةً لإخافته كي يعطيه ما يملك من مالٍ قد خبأه لنفسه
-لا شيء يا معلم
-اصعد بسيارتك وامضِ دون أن تشعل الأضواء وإيّاكَ والنظر

خلفك
-حاضر يا سيدي
يفعل ما أُمر به، الحياة أغلى ثمناً
-مزمار ؟
-نعم يا معلم
-خذ المال وأبقه معك
-إن الله يكتب لنا التوفيق لوجودك يا معلم
ما لبث أن انتهى من كلامه حتّى لمعت من بعيد أضواء الكشّاف البعيد للطريق، كانت سيّارةٌ أخرى، أسرع الجميع للاختباء، يخاطب أبو الهدى الجميع من خلف أشجار السرو
-كمنجة ومزمار خُذا مسافة أمانٍ خلفنا، بوق وغيتار وبيانو ستنقضون على السيّارة فور وصولها، قانون وفلوت تحاولان الزحف لتصبحوا خلفها في الوقت الذي سيكون فيه بوق وغيتار وبيانو في حالة الهجوم، لا أريد هجوماً مشتتاً أيّها الأبطال
كانت السيّارة تسير بسرعةٍ والغرض من أضوائها الكشّافة إنارة الطريق إلى أبعد حد، أمر أبو الهدى فرقة الانقضاض بالهجوم قبل وصول السيّارة بمسافة كي تستطيع التوقف دون عنائهم أو هرب صاحبها، يطالبونها بالوقوف، كان السائق يحاول الفرار، داس المكابح محاولاً الدوران والعودة من حيث أتى فيظهر في وجهه قانون وفلوت فيجبر على الوقوف، تمت السيطرة على

الموقف، يهجم أبو الهدى على السيّارة، يفتح باب السائق ثمّ يوجه لكمة على وجهه

-تحاول الهروب، قد زدت الأمور سوءاً، الآن لن أتركك على خير أيها الحقير

يبصق في وجهه فور انتهائه من الحديث، يتغير لون وجه السائق، كان يميل إلى الغضب، شعر أبو الهدى بحركة يده اليمنى التي تختفي في جسده، كان ذكيّاً، رفع بندقيته ورماه بثلاث طلقاتٍ في صدره، أذهل الجميع، اقترب أبو الهدى من الجثّة

-انظروا يمتلك سلاحاً، اللعين، فتّشوا السيارة ودعونا نرحل بسرعة

ينفذون الأوامر، يؤجلون حديثهم عن قلب أبي الهدى القاسي، أخر مرّةٍ جلسوا معه انتهت بطردهم، كان يدّعي تغيير حياته، كم كان حالماً في ذلك الحين !

يهرول كمنجة نحوه

-وجدنا عشرين ألف ليرةٍ فقط ولكن لفتت انتباهي هذه الحقيبة التي كانت بجواره، لم أجد فيها شيئاً مهماً، فيها أوراق، أعتقد أنّه أحد الضبّاط، وجدنا في جيبه بطاقةً أمنيّة

-أعطني إياها، على الجميع الرحيلُ حالاً

يعودون إلى البيت، كان متلهفاً لمعرفة ما يحمل القرص القابل للنقل، أخذ الحاسوب النقّال التابع لطبلة وذهب إلى إحدى الغرف طالباً الجلوس وحده، لا يريد من أحدهم أن يعرف ما

بداخلها، شكّ بأمر ذلك الضّابط بعد قراءته للأوراق وفهمه لما تحمل، لماذا اختار وقتاً متأخراً في الليل للعودة أيضاً، قام بتشغيل الفيديو، كانت عمليّة انشقاقٍ لضابط يدعى أبو الفهد، أعاد تشغيل الفيديو فلم يلاحظ وجود تاريخ في إحدى زوايا الشاشة ولم ينطق به الضّابط أبو الفهد

هناك الكثير من الأحداث التي يجب على أبي الهدى معرفتها، قد يكون هذا الأمر مهمّاً بالنسبة لأحدهم، يقوم بنزع القرص القابل للنقل من حاضنة الحاسوب النقّال ويطلق صوتاً من الغرفة

-غيتار ؟!

يأتي إليه مسرعاً

-أعطني هاتفك النقّال واذهب وأخبر الجميع أنني لا أريد أن أراهم خلال نصف ساعة ثمّ عُد في الحال

رتب رقماً على لوحة الهاتف واتّصل

-مساء الخير، كيف حالكِ يا نجلاء ؟

-أهلاً، عذراً لم أعرفك

-أنا أبو الهدى

-أبو الهدى! لم تمت بعد، ظننتك متَّ منذ زمن

-غيرني الزّمان كما يبدو انّه غيّرك، اسمعي سأرسل لكِ سيّارة كي تأتي بكِ في الحال

-كما تريد يا عزيزي، سأعطيكَ العنوان

نجلاء هي الفتاة التي كان يحبها أبو الهدى قبل دخوله السجن وكان يريد الزواج بها، أيضاً هي لم تكن سيئة قبل دخوله السجن، كانت هي من تشجعه ليتغير ونجحت في ذلك أو كانت طرفاً في ذلك

يدخل غيتار إلى الغرفة ويعلمه بأنّ الجميع رحلوا ولم يبقَ سوى هو، يعطيه العنوان ثمّ يطلب منه جلبها ثمّ الرحيل

وقع في نصف ساعةٍ من التوتر الشديد حتّى تصل نجلاء إليه، كيف سيكون شكلها بعد تلك السنين، قد شعر عبر الهاتف بلهجة بعيدةٍ عن نجلاء القديمة

أوصلها غيتار إلى البيت ورحل، دخلت في فضول، قد أصبحت في البهو

-أين أنت أيها العجوز ؟

يظهر أبو الهدى متأملاً من خلفها

-قد كبرتِ كثيراً، ربّما أكثر مني

تتسارع خطاها لترمي نفسها في أحضانه

-كم اشتقت لرائحتك

يبقى صامتاً إلى حين أن تبتعد عنه

-كم تغيرتِ ؟

-أخشى أن أقول كثيراً، ربّما أنت السبب، منذ دخلت السجن وانقلبت حياتي رأساً على عقب، رُميت في الشارع، بالطبع، كما

كنت تتوقع، أخوتي منعوني من الميراث ومن حصتي من البيت، ورموني في الشّارع، وأمي أيضاً فضلت البقاء مع ذلك الرجل الغني، لا أعتقد أن هنالك أمّاً بهذه القسوة، عملت بائعة هوى لا أستطيع العيش، توقعت أن تصفعني عندما ستسمع ذلك !!

-لم أعد أكترث لشيء بما في ذلك أنتِ !

-إذاً لماذا دعوتني لمرافقتك ؟

-كي أرى فيكِ وجهي القديم، لساعةٍ واحدةٍ فقط ثمّ سأعود كما أنا !

يجلسان سويّةً، يحتسيان النبيذ ويتكلمان عن الأيام القديمة، قد مرّت إحدى عشرة سنة، ما تحدثا بشأنهما! فقط الأيّام القديمة، حيث كانا سويّة !

نجلاء الفتاة الوحيدة التي عرفها أبو الهدى والتي أحبّها، كانت وما زالت تعرف ضعفه وهي التي لا تخشَ وحشيته مهما بلغت، كان لأيامهما القديمة الكثير من الحب، طالما كانت مطمئنّة له وطالما كانت سكناً له، كبرا وتغيّرا لكن تلك الأشياء لم تكبر وتتغير !

***

كان القسم الأمني في حالةٍ من التأهب، يدخلُ حسن إلى مكتب كمال على عجلة، كان كمال يحتسي كوباً من القهوة على أنغام فيروز، اعتاد لمدّةٍ طويلةٍ إملاء رغبته بالقراءة في هذا الوقت، يقف بسرعة الخوف ويلقي التحيّة

-أخرجْ زيدون حالاً، وضع أحد عيوننا في الحيّ لمراقبته
-حاضر يا سيدي، لكن من سيكون جزيلاً بأمر مراقبته ؟!
-نفس الذي أخبرك بأمر أعمال الشغب
-لكنها امرأة !
يقترب حسن من الطاولة، لم يعد يطيق الحديث أكثر، يغلق الكتاب ثمّ يوبخه بلطف
-فريدة الأسطواني ليست امرأة! إنّها رجل، إلا إذا كنت عديم الذوق في هكذا أمور !
-كما تريد يا سيدي
-أنا خارجٌ الآن، قد وصلتني إحدى الأخبار بوجود مجموعة مسلحة في إحدى بيوت المدينة، احرص أن يكون أمر زيدون منتهياً قبل عودتي
-حالاً يا سيدي
يخرج زيدون بعد فينةٍ من وصول حسن إلى البيت الذي سيداهمه، كان مدججاً بالعناصر والأسلحة، لم تكن الفرصة سانحة لأحد العابرين في الشارع بمعرفتهم، فهم يرتدون ملابس مدنيّة ويخفون أسلحتهم في سياراتهم، بعد القيام برحلةِ ذهابٍ وإياب من أمام البيت، كان غرض حسن استكشاف المنطقة دون بثِّ الريب في نفس أحدهم في ذلك المنزل، قد أمر عناصره بالبقاء في مكانٍ بعيد وترك أربعة بحجج مختلفة، بيع أوراق اليانصيب

وآخر يسأل المارّين في الشّارع عن مكانٍ يجهله وآخر يتبضع من البقالية التي بجوار البيت وآخر يجري مكالمة هاتفيّة، وقد كان هنالك قناص قد اعتلى سطح المبنى المقابل للبيت وكشف الشارع بأكمله

-طبلة! أين أنت أيها الغبي؟

-نعم معلم، بين يديك في أيّ وقتٍ تريد

-اذهب واجلب لنا شيئاً نشربه

-سأعدُّ لك الشاي، لا داعِ للخروج

-أيها الغبي، أريد ويسكي وليس شاي

-فهمت، حالاً يا معلمي

لم يعرف أبو الهدى أنّ البيت مراقب بشدّة، ما زال يحاول التلذذ بما حدث في ليلة البارحة، كان الحديث دائراً في رأسه دون ملل، يعود ليقصه على نفسه كلّما انتهى، كانت مهمّة حسن مداهمة بيت أبو الهدى !

يخرج طبلة من البيت، سرعان ما يراه القناص، يخبر العنصر الذي يشتري من البقالية عبر أجهزة اللاسلكي الخاصة بهم، يمشي العنصر خلف طبلة دون أن يثير شكّهُ، يقترب منه، وفي لحظةٍ غفل فيها طبلة يضع العنصر المسدس في أسفل ظهره

-لا تتكلم، امضِ دون أن يشعر أحد، أفهمت ؟

كان خائفاً وهو أغبى من أن يتوقع ذلك

-حاضر

يحضره إلى مكان وجود حسن وعناصره، يقدّم حسن الشكر للعنصر على حسن معاملته مع طبلة ثمّ يأمره بوضع الصفد على يديه وركنه بالسيّارة، جلس حسن بجوار العنصر الذي يتولى قيادة السيّارة بعد أن أمر العنصر الأوّل بالعودة إلى عمله حيث كان

-ما اسمك ؟

-شريف

-لا تبدو هكذا! اسمع سأعدك أن تكون بخير إذا أخبرتني ماذا يوجد في البيت

يصمت طبلة في غير رضا، لا يريد التحدث بشيء، كانت المهلة كفيلة بإشعال حسن لفافة تبغ

-هيّا تكلم

-لا أعرف

يترجلُ حسن من السيّارة، كان الغضب صديقه، سحب طبلة من السيّارة بعنف، قد وقع على الأرضِ، يمسك قدمه اليسرى ويجري به ليستقرَّ أمام إحدى عجلات السيّارة، أصبح رأسه على بعد نصف متر من العجلة، ثمّ يأمر السائق

-تحرك نحو الأمام

-أرجوك يا سيدي

أصبح نظر طبلة ضيّقاً لم يستطع رؤية سوى اللون الأسود لإطار العجلة

-هل ستتكلم، أم ستدع رأسك يتفجر تحت مركبةٍ تزن طنّاً !

قد تلكأ بالحديث من خوفه، علم بأنّ هذا الرجل جاد ويمكن أن يفعل ذلك!

-سأتكلم يا سيدي، سأتكلم

يشده حسن من قدمه مجدداً ويقرّ له ما يملكون من أسلحةٍ وذخائر ومالٍ في البيت

-اسمع أيّها الجميل، ستعود إلى البيت بمنتهى الهدوء، لا تحاول فعل شيء هناك، القناص يراقب دقّات قلبك، ستدخل إلى البيت وتحافظ على بقاءِ الباب مفتوحاً، أفهمت؟

فعل طبلة كما أمره حسن وبعد دقيقتين من دخوله، كان عناصر حسن في أهبة الاستعداد للدخول، كان ذلك الوقت من أوقات الرّاحة لأبي الهدى وفرقته الموسيقيّة، دخل العناصر وفي غضون دقائق سيطروا على المكان بأجمعه، لم يطّروا لإطلاق رصاصة واحدة!

أصبح المكان آمناً دخلَ حسن وقلّب نظره بين وجوه أفراد الفرقة الموسيقيّة، كانوا مصفدين جاثين على الأرض، آخرهم مازال لا يركع، يرمق أحد عناصره بنظرةٍ حادّة، شغل الصوت حسن، فاقترب

-أبو الهدى !!
-نعم إنّه أبو الهدى يا سيدي
-البارحة خرجت من السجن، ما هذه السرعة في ارتكاب الجرائم، يومٌ واحدٌ يكفي لتشكيل مجموعة مسلّحة مدججة بالسلاح ؟
-أطلب منك الحديث بمفردكِ يا سيدي
يطلق حسن ضحكةً قويّةً ثمّ يطلب من عناصره إخراج أفراد الفرقة الموسيقيّة إلى حديقة المنزل، هدأ المكان، يطلب حسن بسخرية من أبي الهدى قول ما عنده
-هذه الحقيبة التي بجوارك فيها أوراق تخصُّ ضابطاً يدعى مراد خليل الموسى، يبدو أنها مهمةٌ جداً لحياته، قضايا اختلاس وتزوير علاوةً عن كل ذلك قضايا بيع الأسلحة والتهريب
يفتح حسن الحقيبة ويتأكد بنفسه، كان متعجباً ومسروراً في ذات الوقت
-أين عثرت عليها يا أبا الهدى ؟
-يومٌ واحدٌ استطعت الحصول على هكذا أوراق مهمّة ماذا سيحدث إذا بقيت في الخارج، أنا تحت إمرتك يا سيدي !
يعيد حسن زرَّ الحقيبة ثمّ يرمي أبا الهدى بنظرةٍ حادّة، كان يحلُّ أصفاده
-احذر من تخييب ظني
يخرج حسن من المنزل، أمر عناصره بالتّراجع وترك الجميع،

مدّعياً بحصول سوء فهمٍ، كان المتّهمون من منظمة الهلال الأحمر فحسب!

دون اعتراض من أحد العناصر تعود الأمور كما كانت في المنزل، في نظر أبي الهدى لم تكن مشكلةً بأن يتحكم به ضابط ويطلب منه فعل ما يقع تحت مصلحةٍ حتّى لو أدى ذلك إلى إلحاق الأذى به وبفرقته الموسيقيّة، لا يجب التفكير بذلك، كان فقط ينتظر مهمّةً من المقدم حسن حتّى يقوم بها ويعلن الولاء، كأن يصبح ذراعاً لحسن أقوى من ذراع كمال فيتخلى حسن عنه!

***

-رجلٌ صامد

ابتدأ يومه بهذه الجملة، مرّت أربعة أيام كالعادة لم يصل إلى نتيجة من اليأس الذي عاش به، قد استطاع المشي والتحرك قليلاً، لم يكن مستعداً للعمل لكنه فضّل ذلك، يريد أن يُشبعَ رغبته بتحقيق هذه الجملة، يودع أمه بابتسامة لطيفة، كلُّ ما عليه الآن أن يفتح باب البيت وأن ينظر إلى الحياة بحرية، لا أن تضيق عند باب بيت عروبة أو تنتهي عنده !

-آه، أحمد! حمداً لله على سلامتك

في المساء السابق قرر محمد الذهاب لقضاء أسبوع في اللاذقيّة برفقة زوجته ريثما تتجهز أوراق سفرهما إلى كندا من القبول وغيرها، طلبت عروبة رؤية أهلها قبل الرحيل، لم يرفض، في ذلك

الوقت تحقق ما تخشاه عروبة أن يراها أحمد وهي على عصمةِ رجلٍ آخر، كانت سترحل مع زوجها، وضع يده على مقبض باب السيّارة يودُّ الصعود فإذا بأحمد خارجاً من بيته، كانت عروبة تتلفظ الأنفاس بصعوبة وهي تتابع ما يحدث وهي تجلس بمقعد جوار السائق

-شكراً لك، كنتُ مسروراً لسماع خبر زفافك، مباركٌ إن شاء الله

-حفظك الله

تعلو ملامحه ابتسامةٌ متعبة، كأن تطفو، ليست محاربة البحر بالغرق أكثر، ذهبا، زادت المسافة بينه وبين السيّارة حتّى اختفت، هل تغيرتي يا عروبة؟! إنّها عروبة برفقةِ زوجها يا أحمد، لقد رأيتها للتو، إنّها ليست ملكي، لقد ذهبت معه!

تلتصق قدماه في الأرض، كأنه لا يستطيع الخروج من هذا العالم الضيق، يردد في ضيقِ كلماته

-رجلٌ صامد!

ارتفعت قدمه ثمّ ركض مسرعاً، يريد الابتعاد أكثر عن عروبة أو ربما عن نفسه، كانت عينا عروبة مرآتين تعكسان صورة قلبها، لكن محمود لا يعرف قراءة هذه اللغة، لم تعد تستطيع التفريق بين ما تخشاه وما يحدث في الحقيقة، وأحمد في أول مرةٍ يقع في الشّك وليس في الحب !

ربّما نسيء فهم أحلام اليقظة، نسيء فهمها حتّى نظنُّ بأنها جزءٌ

من حياتنا، وعندما نُصدم بالحقيقة نجد أنفسنا أمام خرابنا الأخير!
هذا ما صنعناه بأنفسنا وليس علينا أن نتذمر من الحقيقة، كلُّ ما علينا فعله أن نتلقى نتائج أعمالنا بصدرٍ رحب !!

***

تلصصت النظر إليه، كانت سلمى في تمام التركيز والمتابعة مع أُستاذ إحدى المواد الدراسيّة حتّى دخل ربيع متأخراً، اعتلى المدرّج وجلس في إحدى الكراسي في نهاية المدرج، كان يبحث عنها بين زملاء دفعته، لم يجدها، كانت فرصة مناسبة لتسرق بعض النظرات، لا زالت علائم الضرب على وجهه، انتهت المحاضرة فهمَّ الجميع بالخروج، لمحها بينهم، تبعها، كم كانت مشتاقةً للحديث، لكن تحتاج لتفسيرات كثيرة قبل كلّ ذلك، فضّل ربيع تقديم ذلك، كان يعلم ماذا تعني قلّة الاهتمام لسلمى، جلست على أحد الكراسي في حديقة الجامعة ولم تنظر إليه، كان يحاول لفت انتباهها بأعذاره، كان يقف نصب عينها
-هل يعقل أن تحزني قبل أن تلتمسي لي عذراً، إذا كان ما تفعليه أمراً جيداً فليس علي تفسير ما حدث في الأسبوع الأخير
-لم تكلّف نفسك بمكالمة هاتفيّة واحدة ولا حتّى بالإجابة على مكالماتي الواردة، كلّ ما يهمك هو نفسك
-ها عزيزتي، هل يوجد في السجن هواتف نقّالة، انظري إلى

وجهي، أيعقل أن أكون بنزهةٍ بمفردي ولا أريد أن يعكّر أحدٌ صفوي؟! ألا ترين آثار الضرب ؟!
كانت تشكُّ في ذلك، علّه لم يكن ما اعتقدته صحيحاً تنظر بإمعان، كان قلبها منفطراً لجروحه ولا تريد استخدام عاطفتها في ذلك، قد يفهم ربيع ذلك بأنّها توافقه في الأعمال التي يقوم بها، تمسك بيده بقوّة وتدفعه للجلوس بجانبها على الكرسي
-ربيع حبيبي، لا أعتقد أنّ هنالك شيء جميل في الذي تفعله، انظر إلى وجهك، إنّهم مجموعة من المخربين هدفهم واحد وليس ما تعتقده أنت
-أرجوكِ، منذ البداية اتفقنا ألّا يحاول التدخل في رأي الآخر
-لا أتدخل! لكن لن أسمح بخسارتك يا ربيع، أتريدني أن أبقى صامتاً على بعد هاويّة من الموت، عد كما أنتَ يا ربيع !
-ما هو المنطق الذي تتحدثين به؟؟ لا أعرف! أنا لم أتغير يا سلمى ثقي بذلك، لكن هذا الأمر مسلمٌ به، إذا كنتِ لا تؤيدين هذه القضيّة، دعيها عنكِ، هنالك من سيقوم بواجبه اتجاهها
-والذين يقومون بواجبهم في مكافحة الخونة من يكونون ؟
-خونة! لو دخلت إلى السجن ستعلمين من هم الخونة يا عزيزتي! أنتِ قاسية القلب، لا تشعرين بأحدٍ غيركِ، لم تقتنعي حتّى بأن الذي على وجهي هو من أثر الضّرب في السجن، لماذا كلُّ هذا الولاء وفي النهاية أكون مجرّد خائنٍ لوطني، هل انتظرتني لنصف

شهرٍ كي تقولي لي: أنتم خونة !
يرمقها بنظرةٍ حادّةٍ، كان يودُّ الذهاب لكنها لم تفلت يده، ضغطت عليها بقوة، هكذا تفعل الأنثى عندما تقول لأحدهم أنا أريدك، ابقَ معي
-حاول مرّةً أن تفهمني يا ربيع، أنا أخاف عليك، لا أريد أن تكون أحد المجرمين، أنا أحبك ولن أدفعك لمكروهٍ مهما كنت تخالفني !
-ما نطقتِ به أكبر من ذلك يا سلمى، لقد خيبتي أملي، لم أتوقع أن قلبك يحمل كلّ هذه القسوة التي يحملها ضبّاط السجون !
وكأنّ كلٍ منهما من عالمٍ غير الآخر، نصفُ شهرٍ فقط كان كفيلاً بتغيير عالمها وليس هما!
تخار قوّة يدها فتفلت يده، يفهم ربيع ما تقصده دائماً، كانا يتحاشا الحديث في هذا الشأن، لكنّ الفترة الأخيرة كانت كفيلة بجلب الكثير من المتاعب، ربيع لن يتوانى عن إكمال ما قد بدأبه، حتّى وإن كان على حساب حياته مع سلمى، تابعت النظر إليه، لم يلتفت ليجد لديه الرغبة بالصلح أو ربما كان عتاب الحب إذا أوشك إلى نهاية!
ما لذي دعاها أيضاً لتدخل في خضمِّ هذه المسألة؟ كانت تخاف عليه، ما تابعته من أخبار في الصحف والتلفاز كان سبباً في ذلك وآثار الأذى على وجهه، والسبب الأهم أنّها تؤيد الطرف الأول، الآن ازدادت الأمور سوءاً، لم يكن ربيع منحازاً لطرفه بهذه الحدّة

قبل دخوله السجن وربما هي كذلك! قد أحدث هذا الأمر فجوةً بينهما !

كان يجب على هذا الحب أن يبقى بلا انتماء بعد انتماء الوطن !

***

أصبحت رأفت متوددةً بعض الشيء لماهر، يقضيان مع بعضهما معظم الوقت في الجامعة، كان يحاول التهرب من مرام بطريقةٍ غير مقصودة كي لا تشعر رأفت بذلك، كانت تشكّل عائقاً، لا يستطيع الارتياح والحديث مع رأفت إذا كانت موجودة يتخلى عن الكثير من الكلمات التي قد تنبه رأفت بإعجابه بها، لا يريد تحويل اهتمامه إلى رأفت بشكل تام، هذا الشّاب انتهازي يرغب بالفوز فقط، حتّى لو كان ذلك بإبقاء مرام معلقة دون أن تعرف مكانها في قلبه

كان ماهر يجهز نفسه للبدء بحديث أنيق يدعو إعجاب رأفت به، قاطعته مرام التي كانت تحترق كلما رأتهما سويّةً، غالباً ما تجد ماهر برفقتها أو ينتظرها حتّى تنتهي من دروسها، ما كان يحضر الدروس، ألقت السّلام، تصرفت بطبيعيّة، كانت تعلم أنّها قاطعت حديثه الشيق معها، ربما لبّت رغبتها في ذلك، كانوا يقفون بساحةٍ مغلقة من ضمن مبنى الجامعة تطلُّ على الحديقة بنوافذ كبيرة، أعارت رأفت اهتمامها لأحد الجالسين على مقاعد الحديقة، كأنه ينتظر أحداً، لم ترَ وجهه، موضع الكرسي يسمح لها

برؤية ظهره وظله
-أعتذر، سأعود، سأعود بعد قليل
تهرع مسرعةً إلى الخارج، كان ماهر ومرام يراقبانها حيث تسمح لهما رؤيتها من النافذة الواسعة، اقتربت منه ووضعت يدها على كتفه في امتغاض
-ألم تقل لي أنّك ستسافر؟! أنت كاذب
-عفواً
يرتعد ياسين لقولها ثمّ يلتفت
-آسفة، اعتقدت أنك إحسان، شخصٌ ما أعرفه، لا عليك أنا آسفة
تبتعد عنه كما لو أنّها هاربة من شيءٍ ما يطاردها، كان ياسين نسخة طبق الأصل لإحسان، يثيّر الأمر غرابة ياسين، ثمّ يتبسم لطرافة هكذا موقف، تأخّر علي، لم يخبره بأمر خروجه من السجن، كان يعدُّ له مفاجئة، بأن يأتي بنفسه إلى كليّة العلوم ويعانق صديقه، يراه من بعيد وهو يخرج من مبنى الكليّة، يناديه بصوتٍ عالٍ
-أيها الفاشل
ما لبث بحثاً عن مكان الصوت، حتّى هرع بكامل قوّته ليعانق صديقه
-لا أصدق، أنت ياسين أليس كذلك، حمداً لله على سلامتك يا صديقي
كان المزاج عالياً، والرغبة للانجاز عالية، كلُّ ما تغير في هذا العالم

خلال الفترة التي قضاها في السجن لا يعني له بثمن، عليه القيام بالكثير من الوعود التي قطعها على نفسه فحسب

يحتسيان القهوة سويّةً، كان علي يراقب الاندفاع في عينيّ صديقه، قصّ له ما حدث في السجن من سماح الضابط يحيى إلى لقائه بأحمد، أمضيا اليوم سويّةً، كان الأفضل لكليهما، طالما شعر علي بالضيق الكبير

لم تعد رأفت إلى صديقها، اكتفت بمراقبة ياسين من بعيد، كان يشبه إحسان كثيراً وربما أكثر لطفاً، أمّا عن ماهر فقد شعر بالضيق الكبير عندما رآها تكلم ياسين، قد تركته لتذهب إليه، ما كان يعتبر وجوده من قبل حتّى يعتبر وجوده بعد خروجه من السجن

تحجج ماهر بذهابه إلى البيت قبل نهاية دوام الجامعة فقررت مرام الذهاب معه، كانت فرصته لإيصالها بالسيّارة لبيتها وكانت خطةً منه لإبعادها عن الجامعة كي يعود ويستكشف ما الأمر الذي دفع رأفت للتحدث مع ياسين،فعل ذلك وعاد، بحث عن رأفت ثمّ قصّ لها سماح أبيه في أمر ياسين وأنّه لص ولو كان الأمر بيده لأبقاه في السجن لمدّة طويلة، لم تكن رأفت مصغية تماماً لكلامه، وقعت عينها بعين ياسين عدّة مرّات وهو غارقٌ في محاولات إقناعها بأنّه مجرّد لصّ، في شرود روحها تصنع حديثاً

معه، إن لم يكن إحسان فقد شغلها عنه ياسين !!

***

عندما يقدم حسن لفعل أمرٍ خبيث يحتسي الكثير من القهوة ويطلب الجلوس مع نفسه، كان هذا الهدوء مطلباً لكلّ أفراد هذه الأسرة، سلمى أوصدت باب غرفتها وأوصدت باب الحاضر عليها بقيت عالقةً هناك في الذكريات، كذلك رأفت لكن بطعم أول الحب

شرب حسن خمسة أكواب من القهوة، كان يُعِد لأمرٍ كبير، رفع هاتفه النقّال

-تحياتي آغا معتصم

-إليك التحيّة

-أود إخبارك بأنّه يمكنك إدخال الشاحنة غداً قد رتبت كلّ شيء والأمور على ما يرام، تستطيع نقل ما تريد بين السّاعة الرابعة و الخامسة مساءً !

-حسناً شكراً لك، سوف أرسل الجزء الثاني من هديتي فور وصول الشّاحنة إلى المدينة تقبّل امتناني

-مع السلامة

ينهي المكالمة، يرسل معتصم آغا وراء رحيم ويأمر بإعداد سعيد لقيادة الشاحنة، شعر بتمام الثقة، لم يخيب ظنه حسن لمرّةٍ واحدة، استطاع كسب ثقته في تحمل مسؤولية الطريقة التي

ستسلك أكبر شاحنة مخدرات نحو المدينة

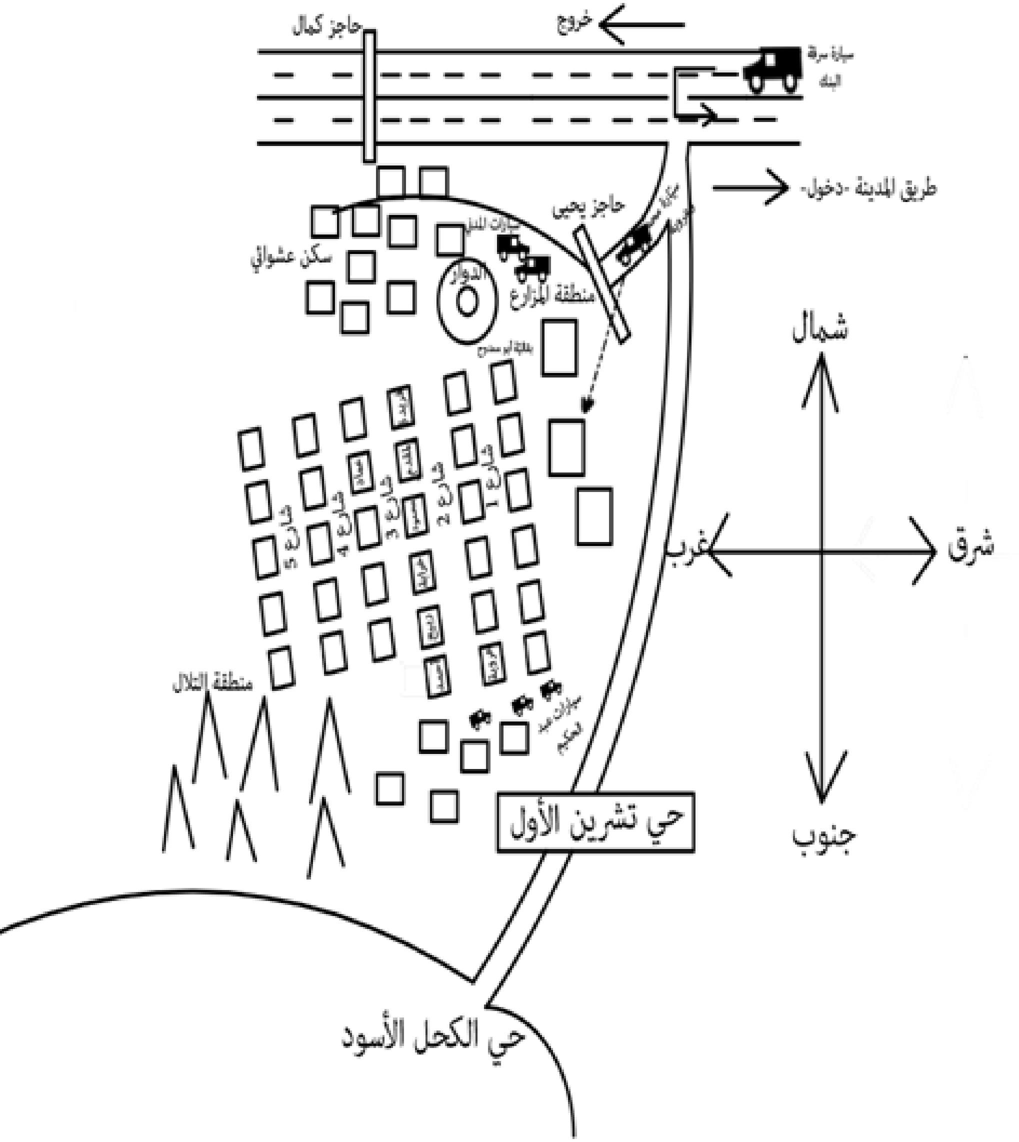
شعر حسن بالنشوةِ، كأنّ العالم يمتثل لأمره بعد أيّ مكالمةٍ هاتفيّة، يرتشف قليلاً من القهوة، كان يتلذذ بكوبه السادس كأنّها أول رشفةٍ من الكوب الأول، يرفع هاتفه مجدداً كان مرتاحاً لما يخطط

-أبو الهدى

-نعم يا سيدي

-لديك مهمّةٌ يجب عليك إنجازها غداً، أصغي لما سأقوله لك !

***


حاجز كمال
خروج
سيارة سرقة البنك
طريق المدينة -دخول-
حاجز يحيى
سكن عشوائي
الدوار
منطقة المزارع
شمال
شارع 1
شارع 2
شارع 3
شارع 4
شارع 5
غرب
شرق
منطقة التلال
سيارات عبد الحكيم
حي تشرين الأول
جنوب
حي الكحل الأسود

فصل أرض الدم

اجتمع ربيع وعماد وعدد من الشبّان في بيت عماد، كانوا يريدون الابتعاد عن مكانهم الأول الخاص بالاجتماعات وهو بيت ربيع، قد خططوا لمظاهرةٍ عارمة في يوم الغد كانت نفوسهم مشحونة من الشتم واللعن الذي تعرضوا له في السجن أكثر من ألم الضّرب، رفع ربيع هاتفه النقّال واتّصل بعبد الحكيم، يجب أن إخباره بأيٍّ نشاطٍ سيقومون به، سيعدّون اللافتات وسيخبرون باقي الشبّان عن موعد المظاهرة الكبيرة

كانت عروبة منفصلة عن روحها، لم يحظَ محمود بالجسد حتّى!! من شأن الرجل أن يشعر بخطبٍ ما لم يكن مسروراً، هنالك خطبٌ ما يحول بينه وبين عروبة، استأجر شقّةً بجوار الشاطئ، كان يخطط لقضاء بعض الأيام السعيدة برفقة زوجته، كان محمود كلّما حاول التغزل بعروبة تسارعت أنفاسها وتحججت بصنع أيّ شيء، ربّما تكون هذه الردود كنتيجة سلبيّة لزواجها في وقتٍ وجيز هكذا كان يعتقد، حاول أن يكون هادئاً، خرج من الشقّة ثمّ عاد ببعض السمك المشوي، شعرت عروبة بالأمان عند خلوّ الشقّة فأخذت قسطاً من الراحة، دخل محمود الشقة وبحث عنها دون أن يُصدر صوتاً كان رجلاً طيّباً، وجدها مستلقيةً في

الفراش، ابتسم متأملاً جمالها ثمّ خطا بهدوء نحوها، تمتم باسمها وهو يمدُّ يده نحو خصلة من شعرها، انتفضت عروبة من فراشها مذعورة كأنّها كانت تعيش كابوساً، اعتذرت منه وطلبت غسل وجهها، لحقها محمود نحو المغسلة

-سيكون كلُّ شيء بخير يا عروبة، أنا أعتذر إذا أخفتكِ

يترك الشقّة ويتوجه إلى الشاطئ، لم يكن بعيداً، ثلاثين متراً يمكن لقدميه أن تداعب صدى الأمواج، إنّه المساء، كانت الشمس تتدلى إلى النصف الثاني من الأرض، بحث في نفسه عن مشكلة تدفع عروبة لتفعل ذلك، لم يجد، كان يفكر في معالجة الأمر بعد أن أقنع نفسه بأنّها مشكلة بسيطة نشأت لدى عروبة ويمكن حلُّها، يتنهد مرتاحاً لمنظر تدافع الأمواج ورحيل المساء، تظهر من خلفه عروبة، قد ظلمته كثيراً ولم يُظهر ذلك لأحدٍ من أسرتها، كانت تأنِبُ نفسها على ذلك، شعر بخطاها تقترب منه

-أتعلمين، لا أريد ترك هذه البلاد لكنَّ أمي ستغضب إن لم أسافر إلى كندا، الوطن سيغفر لي إن عدت في يومٍ ما لكن يا عروبة أمي لن تغفر لي إن لم أسافر إلى حيث هي في كندا

تبقى صامتةً، ما زال أحد الغرباء الذين تراهم في كلّ مكان عدا أهلها وأحمد

-سأعود إلى هذه البلاد عندما تتعافى، أعدك بذلك يا عروبة

تومي برأسها بالإيجاب، فجأة يقرر محمود العودة إلى الحي! قد

خطط للبقاء لأسبوع كامل، لكن لم يحظ بالسعادة التي تصورها مع عروبة، كان يريد التقرب أكثر من عروبة ومن أهلها، قد شعر بأنّها لا تثق به الآن، لم تشاركه بحديث حتّى! سيغادران في يوم غد

علمت عروبة الأسف الكبير الذي يشعر به محمود حيالها قد خيبت أمله كانت كرهينة لديه، لم تستطع الانخراط في حياته أبداً سبقها محمود إلى الشقة كان يريد توضيب الأغراض وإعداد السيارة بقيت وحدها على الشاطئ كلما أبتعد عنها كلما ارتاحت أكثر، شبَّ حريقٌ في داخلها ولم ينطفئ إنَّهُ أولُ النَدم !!

حدَّثت نفسها بعد أن وجدت وحدتها فرصة مناسبة للبكاء

-لا أستطيع يا محمود كلما اقتربت مني تخرج حواسّي عن سيطرتي، لا أريد البقاء بالقُرب منك قد تزداد الأمور سوءاً عند العودة إلى الحي يا محمود أرجوك لا أريد أن أظلمكَ أكثر !

أنهكَ أحمد نفسه في العمل كي لا يتسنَّ لذاكرته العمل كان هذا أهم أهدافه غير أنَّهُ لم يستطع حتّى لآن استقبال باب بيت عروبة بصدر رحب كان يتحاشى النظر إليه كما لو يتحاشى النظر إلى وجه عروبة بعد زواجها، قد طلَّ صباح اليوم التالي يوم لطيف لمن يود البدء به على حاله دون أن تدخل في رونقه مشاكل الحياة فتفسده أو تفسد العين الناظرة إليه لن يذهب اليوم إلى العمل قد أستطاع الحصول على مبلغ جيد من المال وقد قرر

الذهاب إلى الجامعة في هذا اليوم للالتحاقِ بدروسه لن تتوقف الحياةُ على رحيل أحدهم هكذا قال صديقه ربيع وسيعملُ على ذلك، ربيع كان منهكاً في الحفاظ على سريّة المظاهرة كما كان يتوق لمعرفة من يقوم بإيصال أخبار المظاهرات إلى القسم الأمني حلَّ المساء كان الحيُّ منتعشاً بالحياة في العادة يسبق المظاهرة عدّة تجمعات للشبّان يكون ذلك بمثابة إخبار الآخرين منهم بالخروج فيها، كانت هذه المرة منظمةً وعارمة خرج جميع الشبّان دفعةً واحدةً تنقلوا بين الشوارع وهم يرفعون لافتاتهم ويرددون شعارات الحريّة كان الصوت عالياً سمع زيدون الأصوات هرعَ مسرعاً كان يحتسي الشاي في البهو أحضر المسدس وملأهُ بالرصاص قد وصل خبر المظاهرة إلى القسم قامت فريدة بالعمل على أكملِ وجه

وضعَ زيدون شماخاً على وجههِ وأعتلى سطح بيته كي ينفذ أوامر حسن لاحظتهُ فريدة كانت مختبئة على سطح منزلها تتلصص النظر إلى الشبان محاولةً معرفة أحدهم تركته على هواه بعد أن حافظت على هدوئها قد شاهدت المسدس في يده انشغلت بمراقبته عوضاً عن مراقبة الشبّان كان حسن يجهز نفسه للحضور وبرفقته يحيى وكمال

لم يستطع يحيى قول أيّ شيء أو فعل أيّ شيء حسن قائد حملة الشغب وعليه الامتثال لأمره يتحدث حسن عبر جهاز اللاسلكي

-كمال ؟
-نعم سيدي
-أريد منك أن تصنعَ حاجزاً أمنياً على الشارع الرئيسي ذهاباً وإياباً أريد منكَ تفتيشَ الداخلِ إلى المدينةِ والخارجِ منها
-حاضِر سيدي
يدير الموجة ليكلم المقدم يحيى
-سيادة المقدم
-نَعم سيدي
-ستقفُ مع عناصركَ عندَ أولِّ الحيّ وستمنعُ أحدهم من الدخول دون تفتيش سأدخلُ مع عناصري وسنوقفُ هذه المهزلةَ بأسرع وقت .
-عُلِمْ
لم يأمر حسن أيَّ عنصرٍ من عناصره بفضِّ المظاهرة انتظر الشبّان عند أول الحارة بالقرب من الدوار، خرج الشبان من الشارع الثالث لم يعرفوا أن الحي قد طوِّقَ بأكملهِ من قبل رجال الأمن كانوا يخططون بسرية، قد ظنوا ذلك وقفوا في أماكنهم قد اختفت أصوات الضجيج ما لبث أن اعتلَتْ، تقدموا نحو رجال الأمن بخُطى ثابتة وقف عدد من العناصر على صفٍ واحدٍ وبأيديهم عصي مكافحة الشغب في غفلةِ الجميع لحدوثٍ أمر ما كان الشبّان يقتربون وصفُ العناصر يقفون بثبات تُسمع أصوات

إطلاق نار قد شعر بعض العناصر باصطدام الرصاص بهيكل إحدى سيارتهم تعُمُّ الفوضى فيأمر حسن بإلقاء القبض عليهم بأيّةِ وسيلة لاذَ ربيع بالفرار وقد ألقيَّ القبض على عماد يأمر حسن عناصره بالبقاء بالقرب من السيارات خشية حدوثِ أيّ اشتباك قد صُفِدَ جميع المعتقلين من الشبان وأمر حسن العناصر بمراقبتهم وإبقائهم خلف الحافلات يراقب الأحداث التي خطط لها سابقاً من قبله قد هدأت المعركة كما يجب أن تهدأ يذهب إلى حيث المعتقلين يأخذُ فترةً من الصمت ثم يأمرُ أحد العناصر بفتح باب الحافلة محدثً أولهم كانوا مصطفين بجوار هيكل الحافلة

-من منكم أطلقَ النار علينا ؟

-صدقني يا سيدي لا أعرف

يرميه في الحافلة ثم يكرر السؤال للثاني

-من منكم أطلق النار علينا ؟

-أقسمُ أنني لا أمتلك السلاح ولم أره بيد أحدهم يا سيدي

يسدد حسن لكمةَ إلى وجهه ثم يحشرُ رأسهُ بين يديه ويضغطُ عليه وهو يحدثه

-ومن أطلق النار قبل قليل كم أكره الكذب !

يرمي وجههُ بلكمةٍ أُخرى ثم يأمرُ أحد العناصر بمرافقته إلى الحافلة كان الثالث عماد

-من منكم أطلق النار علينا

-ليس فينا من يحمل السلاح أو يبحث عن طريقةٍ لحملهِ !

يبتسم حسن في استهزاء كان يتمختر بجواره رفع سبابته في وجه عماد

-ما اسمك يا بني ؟

-عماد

-إذاً يا عماد سأعلمك درساً في آدابِ الحديث لكن في القسم وليس هنا !

ثمَّ يرميه في الحافلة للتوِ تصلُ إحدى الحافلات تتبع للنقل الداخلي من وإلى المدينة كان العناصر على أهبةِ الاستعداد يتجهُ حسن نحو عناصره قد هبط أربعةٌ من النساء من الحافلة وشابين أحدهما أحمد نزلَ أحمد من الحافلة قلَّبَ نظره في محاولةٍ لاستكشاف ما يحدث قد أثار فضوله تفتيش الحافلة على حاجز المقدم يحيى قبل دخولها للحي غير أنَّهُ لم يتسنَ لهُ رؤية يحيى وقع نظرهُ بنظر حسن أما الشباب الآخر فاكتفى بالمضي إلى منزله دون الالتفات لأحد قد استطاع تفسير ما ينطق به حسن من بعيد عبر حركة شفتاه

-أحضروا هذا اللقيط !

أنتظر في مكانه للحظةٍ واحدةٍ أعادت له ذاكرتهُ كُلَّ ما تعرضَ لهُ من تعذيب في السجن تخيلَ كمال وهو يروي له قصة وفاةِ

والدته وهو معلقٌ بحبلةٍ مدلاةٍ من السقف هزَّ رأسه بالمعارضة يميناً ويساراً كان يقول في نفسه: لا لن يحدث ذلك مجدداً!
خطا خطوتين إلى الخلف كانتا في ريب ثمَّ قرر انطلقَ مسرعاً ليدخل الشارع الثاني والعنصران يركضان بسرعة خلفه قد دخلَ الشارع الثاني وهما دخلا لتوهما بعده، وصلا إلى الخرابة لم يكن له أي أثر، كانا يقفان بمنتصف الشارع ما زالت كما هي، عربةُ الفولِ مركونة في زاويتها للحائط وهنالك سيارة صغيرة مركونةٌ صوب الحائط الآخر من آخرها تحدَّثَ أحدهما للآخر بصوتٍ خافت

-اختفى !

-اششش !!

قد سمع الثاني صوت حركةٍ من خلف عربة الفول نبَّهَ صديقهُ الأول بمهمةِ مراقبتهِ وخطا بهدوء نحو العربة كان الاثنان بكامل عتادهما واستعدادهما أصبح بجوار العربة أخذَ نفساً عميقاً وهجمَ بسرعةٍ فائقةٍ ليكشف ما خلف العربة كانت مجرّدُ قطةٍ تبحث عن الطعام وقد أحدثت القليل من الضجيج استدار بعد أن أخذ وضع الاستراحة فوجئ بصديقه وقد وقع رهينةً بين يدي أحمد !!!

-بهدوء ضع سلاحك على الأرض وارجع للخلف !

***

-خلال خمس ثوانٍ يجب أن تكون أنتَ والمال خارج البنك
تمت العملية بنجاح دخل صفوان إلى البنك دون أن يشعر أحدٌ من موظفي البنك بغرابةِ الأمر قد حَلَقَ صفوان شعره ولحيته و وضع عدسات لاصقة كي تشبه عيناه في لونها عينيّ الحاج فكرت وكانا الاثنان يتشاركان صفة البشع !
حمل مئة وخمسين مليون ليرة سورية من العملةِ الصعبة، وامتثل للخروج من مكتبِ حسام، من ضمنِ الخطة أن يتغيب هيثم عن العمل لهذا اليوم يجب أن يأخذ مكان سائق السيارة خرجَ مسرعاً وحملَ المال عن صفوان انطلقت السيارةُ بعيداً عن البنك أطلقَ صفوان صفيراً طويلاً تعبيراً عن فرحتهِ بعد تأكده من إتمام الجزء الأول من الخطة أركنا السيارة في زقاقٍ صغيرٍ أصبحا في أحدِ الأماكن التي تخلو من زحمةِ الحياة رفع هاتفه النقال و قام بإرسال رسالةٍ إلى طارق
-بقيَ عليكم توديع البنك نحنُ بانتظاركم
يقرأ طارق الرسالة وهو يتمتمُ: إنَّ الله إذا وهب فلا تسألنَّ عن السبب !!
ارتدى سترتهُ وقد علّقها فوقَ كرسيه في الصباح ثمَّ أتجهَ خارجاً كانوا سيخرجون من البنك دون إعلامِ أحد ستُثبتُ التهمةُ عليهم فيما بعد - إذا بقوا- أو سيتحملون نتيجةَ ذهاب المال خارج البنك دون إجراءات رسمية وطلب من الحاج فكرت هذا سيحصل إذا

كانا موفقيّن خلال التحقيقات يتقدم طارق إلى مكتب حسام كانا يبتعدان عشرين متراً عن باب البنك .

-السلام عليكم سأخرج خلسة الحق بي مباشرةً حافظْ على هدوئك وأنت خلفي واسمع إذا صادفنا أحد الموظفين وسألنا عن سبب الخروج فأنا سأتكلم

يهزُّ برأسهِ بالإيجاب

-أنا جاهز

خرجا ولم يعترضَ طريقهما أحد ما زالت الجريمة في مكان ضيقٍ بينهم كأن تجري الأمور على ما يرام في البنك

-الحمد لله والشكر لله قد دعوت واستجاب

يستقلان سيارة أجرة بعد معرفة مكان هيثم وصفوان حان وقت الجزء الثاني من الخطة، الذهاب إلى البيت الذي يمتلكهُ صفوان في أطرافِ المدينة انطلق هيثم بالسيارةِ مسرعاً تبدو النفوس أقل توتراً وهم على الطريق العام الخارج من المدينة قرر صفوان الاحتفال رفع صوت المذياع وبدأ بالتصفيق والغناء قد تفاعل معه الجميع كان هيثم منشغلاً بالقيادة فتارةً ينظر بعينين حالمتين إليهم ويشاركهم الغناء وتارةَ ينتبهُ للطريق تهادى صوته شيئاً فشيئاً حتى اختفى توسعت عيناه ليستطيع الرؤية إلى أقصى حدٍ ممكنٍ رفع صوته وهو يوبخ صفوان وقد أخفضَ صوت المذياع

-أيها الغبي إنه حاجز أمن (حاجز كمال على الشارع العام)

-ماذا ؟؟
تتداخل الأحاديث فيما بينهم حتّى يطلب صفوان من الجميع الإصغاء
-اسمعوا جميعكم هناك ممرٌّ يمكننا العودةُ منه قبل الحاجز بمئةِ متر اخفضْ السرعة يا هيثم و الّزم يسارك
-إنّهُ خط السير السريع أيها الأبله
-إذا أردت النجاة افعل ما أُملي عليك
-حسناً
يتفقد الخط الأيسر ثم ينتقل إليه ويعود بهدوء دون أن يشعر كمال وعناصره بذلك، كان كمال وعناصره منشغلين بتفتيش السيارات عادوا من حيث أتوا !
-الحمد لله هذا من توفيقه
-أقسم أنني خرجت في الصباح ولم يكن موجوداً
كان حسام خائفاً جداً فلم يردد جملةً واحدةً أكمل صفوان حديثهُ
-وأين سنذهب الآن ومعنا المال ؟
-إلى بيتي، أنا مجرّدُ آذن ولم أذهب للعمل اليوم أعتقد أنه حاجزٌ متحركٌ سنتحركُ في يوم غد
يوافقه صفوان حديثهُ مع ظهور علائم الموافقة على الجميع يكمل صفوان ليؤكد للجميع سير الأمور على خير
-أنا أقطن بالجوار أستطيع تفقد المكان متى شئت لا تقلقوا. . .

***

لم يمتثل العنصر لأمر أحمد يعيد أمرهُ بجيدةٍ أكبر

-ضع سلاحكَ على الأرض وعُد إلى الخلف سأقتل صديقك أتفهم سأقتله !

اختبئ أحمد تحت السيارة المركونة في داخل الخرابة أستغل الفينة التي كان المراقب لصديقه مصوباً كلّ تركيزه على العربة خرج وفاجئهُ من خلفهِ وضع يدهُ على فمهِ ونزعَ سلاحهُ منهُ، وضع الثاني سلاحهُ على الأرض وعاد إلى الخلف كان أحمد مرتجفاً وخائفاً لكنه ليس بنادم لن يعود مظلوماً إلى السجن مهما كانت العواقب وخيمة ما حملَ سلاحاً أبداً لربما يعرفُ أن الضغطَ على الزناد سيدفعُ الرصاصة خارجَ السلاحِ فقط

-يا هذا سنتركك وشأنكَ لكن ليس عليكَ أن تؤذي أحد سنقول للمقدم أننا فقدنا أثركَ

-لم أعد أصدقُّ أحداً فيكم ما الذي سيضمنُ أنكم لن تعودوا لتأخذوني مرةً أخرى ؟

يحاولُ إقناعهُ بحركات يديه كان أحمد يسيطر على الموقفِ بلا شَكْ

-لا تَخطْ نحوي ارجِعْ

-اهدأ أنت رجلٍ طيب

أكملا دورةً فأصبح وجه أحمد مقابلاً لساحةِ الحي يحاولُ العنصر

الذي يحاور أحمد الاقتراب منه ذلك مع انشغالهِ بالحديث
-قُلتُ لكَ سأطلقُ النار سأقتلك وأقتلُ صديقك إذا تقدمتَ خطوةً واحدةً
يتقدم
يضرب أحمد رصاصةً عشوائيةً استقرت في خاصرة العنصر! ما كان يعرفُ التصويبَ أبداً
-قد نبهتكَ أيّها الأبله
عمَّ الضجيج الذي أحدثتهُ الرصاصة الحي بأسره سمع الصوت المقدم حسن هذا لا يندرج تحت الخطة أمر أحد العناصر بقيادة السيارة ركب بجواره وأمرهُ بالدخول في الشارع الثاني حيث مصدر الصوت وصل كان العنصر قد أحدثَ بقعةً إثرَ سقوطهِ بالرصاصة، إنّهُ أولُ الدمْ، يهبط حسن متابعاً ما يحدث دون أن يسمح لجفنيه أن ينغلقا لم يتوقع ما قد حدثَ للتو
-بني هل أنتَ بخير؟!
لا يكاد يستطيع الحديث العرقُ يتصببُ منهُ ورفع رأسهُ إلى أحمد
-إياك والاقتراب خذ رجالك واخرجوا من الشارع
-هل تعلم إلى أين تأخذ نفسك أيَها اللقيط ؟
- أنا أعلم منكَ بالقانون وأعلم إلى أيّ مكان سأذهب
يحاول حسن تلطيف الموقف بأن يعطيه الأمان
-سيكون كل شيء بخير يا أحمد لن يؤذيكَ أحد صدقني !

-كذّاب هل تريدني أن أصدق محتالاً مثلكَ مرّةً أخرى! لقد كذبتموني عندما كنت بريئاً أما الآن فلا حاجة لذلك، إيّاك والاقتراب

-سيصل بكَ جنونك إلى المقبرة

يضغط أحمد على أسنانه قد أنفجر خرج حقده عليه سيلاً قاتلاً رفع سلاحه ورش عدة طلقات فوق رأس حسن كانت المرة الأولى التي هدد بها أحدٌ ما حياته

-عُدْ برجالك وإلا أرسلتُ جسدك القذر إلى المقبرة !

قد كان الموقف حقيقياً يكاد حسن لا يصدق أن لقيطاً يهدد حياتهُ وهو غير قادرٍ على فعل شيء حتى مسدسه المركون على خصره خشي أن يرفعهُ رمى أحمد بنظرةٍ تشبه التي رمق بها مهيتاب يوماً ما لم يعد هنالك شيء يستحقُّ بقائك

يعود بخطا ثابتة وهو يتابع النظر إلى أحمد ليؤكّد أنه لم يعد خائفاً من شيء أو لم يعد لديه شيء يستحق أن يخاف عليه ركل العنصر بقدمه نحوه

-خُذهُ معكْ

يرفع بندقيته في وجه السيارة كانت تعود بسرعةٍ هائلةٍ تأكد أحمد من خروجها من الشارع ثم ركض مسرعاً إلى بيت ربيع طرق الباب بقوة كان ربيع يتابع المشهد في الشارع عبر ثقبِ الباب وفتح له بسرعة

-أحسنت يا أحمد

-لقد دمرتُ حياتي بيدي يا ربيع

-ليس وأنا موجود لقد اتصلت بعبد الحكيم وهو آتٍ برفقة رجاله لإخراجنا من هنا لا تقلق يا أحمد هذا الرجل لن يدعنا وشأننا بعد الآن يجب أن نخرج

-من عبد الحكيم؟ من هذا الرجل ؟!

-ستعرف كلُّ شيءٍ لاحقاً

كانت سعاد تتأملهُ من نافذةِ غرفتها ارتدت حجابها وخرجت ودّت لو تجلسُ بجانبهِ على الأرض بعد أن خارت قواهُ فجأة أحضرت له كوباً من الماء كان ربيع منهمكاً في إجراء المكالمات الهاتفية أخذ كوب الماء دون أن يرفع رأسه ليلقى كلّ هذا الكم من الحبّ، إنها أول مرة تكون فيها سعاد قريبةً منه لهذه الدرجة أعطاها الكوب غيرَ ناظرٍ أيضاً تحركت شفتاها كمن تود الحديث، عدلت ليس في هكذا وقت ليس بحضور أخيها !

***

عبر سعيد بالشاحنة الحاجز الأول قد تلقى التعليمات من رحيم كان يكفي أن يقول لكُلّ من الحواجز الثلاثة: هذه الشاحنة لسيادة المقدم حسن مدني

تساءل في نفسه عن المسافة القريبة بين الحاجز الأول والثاني فتح باب الشاحنةِ رجلٌ ذو كتفين عريضين ولحيةٌ كثيفةٌ يغزوها

الشيب بعشوائية
-هذه الشاحنةُ لسيادة المقدم حسن مدني
قهقه ضاحكاً
-نعم أعلم ذلك
-لم أفهم !
-انزل لم يتعود أحدهم الحديث مع أبي الهدى من مكانٍ عالٍ
يمسكهُ من يده ويشده ليُطرح سعيد أرضاً
-لقد انتهت مهمتك عند هذا الحد يا صديقي
-كيف؟ من أنتم ؟
-ألا ترى لباس الجيش! يا طبلة أعطني ماكينة الحلاقة
يأمر بوق وكمان بالإمساك بسعيد وضربه حتى لا يكاد يتحرك ثمَّ يأتي أبو الهدى إليه
-شعرك طويل يا عزيزي ألا تتابع فتاة طيور الجنة تتحدث كثيراً عن تعليم الأطفال كيفية الدخول إلى الحياة بطريقةٍ جيدة
يحلِق له شعرهُ بأطوالٍ مختلفة ثمَّ يأمر طبلة وغيتار برميه في مكان بعيد يركب أبو الهدى الشاحنة و يركنها على طرف الطريق يهبط منها
-جهزوا أسلحتكم واركبوا في السيارات مزمار أنت تولى أمر الشاحنة
-حاضر معلم

يقومون بالهجوم على الحاجز الأول الذي قد سبق سعيد ومر من خلاله بسلام

كان يعمل على أمر ذلك الحاجز ضابط برتبة رائد في الجيش وتسعة عناصر قتلهم أبو الهدى وفرقته الموسيقية جميعهم كان يجب عليه الوصول إلى مزرعة حسن في مكان بعيد بين مشاتل الورد في ريفِ المدينة، بعد احتساء كأسٍ من النبيذ دفعة واحدة وعودة غيتار وطبلة اطمأن لنجاح العملي يرفعُ هاتفه المحمول

-تمت المهمة يا سيدي

-ستكون لك مكافئة كبيرة يا أبا الهدى

كانت خطة حسن بالاستفادة من كلِّ شيء لصالحهِ أنهى مكالمتهُ مع أبي الهدى فوصلهُ اتصال على الفور من معتصم الآغا

-أستسمحك عذراً سيادة المقدم لكن لا أثر للشاحنة على خط السير باتجاه المدينة

-نعم لقد سرقتها بنفسي أنتَ الآن خارج اللعبة بعد قليل سيُذاع في نشرات الأخبار عن تصدي إحدى الحواجزِ لمحاولةِ إدخال شاحنةِ سلاحٍ للمدينة لا أعتقد أن أحد الضباط سيساعدك للنجاة بشاحنتك إذاً بلغ الأمر جريمة السلاح .

-أيّها اللعين الكذاب

-عليك الرحيل قبل أن يكشف أمرك صدقني أنت الآن بلا عون أراهنك بإدخال غرام واحد من المخدرات إلى المدينة ! لن يشكف

أمرك، فقط إذا رحلت

يغلق حسن المكالمة دون أن يعرف جواب معتصم كان الحلقة الأقوى، تبع المكالمة صوتُ رصاصٍ كثيف من أول الحي قد وصل عبد الحكيم ومعهُ رجالهُ أمطروا حاجز يحيى رصاصاً يصرخ يحيى لينبه عناصره

-اختبؤوا

دار الاشتباك كانت هنالك سيارة تتجه نحو مركز الحاجز دون أن تقف إنها سيارة محمود قد تلقى رصاصتين في صدره وبطنهِ إثر إمطار الحاجز بالرصاص وفقد الوعي كانت عروبة تضرب على يديه لم تعرف ما يجب أن تفعلهُ استمرت السيارة بالمشي حتى انحرفت عن الطريق إلى ناحية المزارع كان طرف الطريق مائلاً فانقلبت السيارةُ ثلاث قلبات واستقرت بجانب حائط إحدى المزارع بعد أن اصطدمت به كانت السيارة مقلوبةً رأساً على عقب !

طُرقَ باب بيت ربيع بقوة

-هيّأ يا أحمد إنّهُ عبد الحكيم

يحملُ أحمد البندقية ويهم باللحاق بربيع يفتح ربيع الباب فيأمرهُ عبد الحكيم بالخروج بسرعة يعود للداخل

-هيّا يا أحمد

يلتفتُ إلى أختهِ مودعاً فارتمت في أحضانه قد تبلل قميصهُ بدمعها

-لا أريد حدوث كلَّ ما حدثَ يا أخي أنا خائفة
-ستكونين بخير وداعاً
يمسكُ أحمد من يده ويمضي بهِ إلى الخارج ما زال في دهشةٍ لم يصدق ما فعلهُ قبل قليل حتى عاد ليرى بقعة الدم قطب حاجبيه قبل أن يردد: رجلٌ صامد !!
خرج أحمد وربيع برفقةِ عبد الحكيم ورجاله من الناحية الجنوبية للحي كان يجب إلهاء الحاجز أثناء إخراج ربيع واحمد، غادروا المكان
عمَّ الهدوء رفع يحيى رأسهُ كان محتمياً خلف هيكل سيارته بدا المشهدُ باللونين الأحمر والأسود لونا الدم والموت قد قُرعت طبول الحرب لدقائق وأحدثت كُلَّ هذا الخراب في المكان رفع جهازه اللاسلكي مخاطباً المقدم حسن الذي نبه عناصرهُ بعدم التحرك حتى يأمرهم
-سيدي نحتاج إلى الإسعاف هناك الكثير من الشهداء والجرحى أتسمعني سيدي
-آتٍ في الحال .
وحدها حلب استيقظت لتجد نفسها أرضاً للدم دون سابق إنذار ودون أن تعلم الشهباء بما يُعِدُ لها أحدُ الحاقدين من أصدقاء الأمس هيَ أن تنام على صوت الموت وتستيقظ على صوت النزاع الأخير مرةً أُخرى كما لو أن حاقديها قضوا الليل بأسرهِ وهم يرتبون

طقوس الخراب كي يأتي الصباح ويكشف نواياهم قبل أن يكشف وجوههم الحقيقية عدا عن غزاةِ الخارجِ كان أغبياء الداخل أكثرَ صُنعاً للخراب في جسدها المثخن من عمرِ الميلاد أو قبله

في إحدى القطع العسكرية التي انتقلت مؤخراً إلى حلب بغرض دحر المسلحين كان الرائد بلال مسؤولاً عن مجموعةٍ من الضباط والعسكريين كان من بينهم الملازم أول عُبادة ابن أبو الفهد كانا على علاقةٍ ودية ممتازة قد توصى به والده وهذا ما سيجعلُ لهُ شأناً عند بلال سيسلكان خطوات الشيطان ذاتها خطوة تلوَ الخطوة حتى يصلان إلى الخراب دون رادعٍ كالدين والإنسانية أو حُبِّ الأرض الذي يجب أن يكون عظيماً لمن يمثل هذه الوظائف في البلاد هم يريدون حظّهم فيها فهم إلى القمة وهي إلى الهاوية حتى يفقد لها الأمر! كان الطرف الآخرُ غير آبهٍ بما قد يحصل لهذه الأرض وأهلها فقط عليهم أن يفتعلوا الفوضى كانوا يزعمون الوهم في تحقيق أحلامهم الوهم والفوضى تورثان العبث، هذه من خطوات الشيطان أيضاً

تدور في المنطقة اشتباكات مستمرة بين الجيش والمسلحين طوال النهار والليل لا وقت لاستراحة المحارب ولا نتائج لأحدهما كانت المعاركُ بين صدٍ ورد في استيلاء وتخلي كُلّما مرَّ أحدهما من المكان ازداد خراباً يستقر الجيش بمعداته الحربية وقواته في مباني القوس المتاخمة لمنطقة المتحف التي يبني المسلحون فيها أعشاشهم

قائدهم يدعى جرير كان على علاقة جيدةٍ مع بلال حيثُ يتمكن من الحصول على الرصاص منه كان يبيعهُ الرصاص بشكل دوري لكن لا يعترف أحدهما على الآخر في المواجهة الحرة في المعركة كانت اللغة التي تجمعها هي لغة المال فقط قد أحكم الجيش السيطرة على مباني القوس ومنع امتداد المسلحين إليها قد أصبحت منطقةً آمنة وصل أمر الحفاظ على أمن واستقرار المنطقة كان الرائد بلال مكلفاً بذلك هنالك مهمات ثانية في للجيش بإعادة التجهيز للهجوم على منطقة المتحف ودحر المسلحين بعيداً حتى آخر حلب

-متى ستفرغُ المنطقة ؟

-عذراً يا سيادة الرائد

-لا أريد منك مضايقة أيٍّ عنصرٍ في تفتيش البيوت دعم يفعلون ما يحلوا لهم يسرقون أو يكسرون كلُّ ما علينا فعلهُ أن نشاركهم مرابح سرقاتهم في النهاية

-عُلمْ سيدي

-انتظر خروج الجيش في الصباح إلى منطقة المتحف وأبدأ عمليات التفتيش هنالك الكثير من الناس لم يستطيعوا اللوذ بالفرار كونوا حذرين أثناء تفتيش بيوتهم لا نريد إلحاق السمعة السيئة بنا

-أخشى ألا نجد شيئاً !

-لم يستطع المسلحون الدخول إلى المنطقة لوقتٍ طويل لم يسرقوا

شيئاً بعد و إذا استطاعوا فسيكون شيئاً ضئيلاً قُم بعملك يا عبادة
-حاضر يا سيدي
يقدم التحية ثمَّ يخرج سيقوم بالكثير من الأعمال في الغد ويجب عليه أخذ قسطٍ من الراحة الراحةُ الكاملة دون التفكير بالذنب كم يجب أن تبلغُ قسوةَ قلبِ المرء حتّى لا يأبه لقتل وطنه !
يصدر هاتف بلال النقال ضجيجاً إنّهُ جرير
-نعم
-أصدقاؤكَ يعدّون لعمليةٍ كبيرةٍ في الغد هل هذا صحيح ؟!
-لسوء حظك صحيح
-أريد كلَّ ما تستطيع بيعي من الذخائر والرصاص
-بالسعر الذي أطلبهُ ؟
-ما كان اتفاقنا على هذا النحو
-في الحرب لا توجد اتفاقيات يا جرير ألست محارباً !
كان يستهزء به لكن جرير بحاجةٍ إليه لم يقابل الاستهزاء بمثله أعرض عنهُ
-قبلت اتصل بي مساءً وأخبرني بالكمية ومكان التسليم
-كما تريد
قد نسيَ كلام أخيه تماماً أعمى المال بصيرتهُ أصبح قلبه قاسياً على البلاد وأهلها ليناً للمال فقط ربّما تزدادُ الأمور سوءاً في يوم غد بعض الشرفاء من الجيش يقضون وقتاً في وضع الخطط للدخول

إلى منطقة المتحف ويقومون بعملهم على أكمل وجه ومن ثم يتفاجئون بأن عدوهم يعلمُ بكلِّ شيء كيف! ربّما سيكتب لهم أجر الشهداء أيضاً، طوبى لهم، قد وفوا بوعدِ الله وعهدِ الوطن والغريب في الأمر أن جميع الأشرار بقوا على قيد الحياة هذه فلسفةُ القدر

جمعَ بلال كلَّ ما يمكن جمعهُ من الرصاص والذخائر كان عُبادة شريكاً في ذلك قدمهُ في ساعةٍ متأخرة من الليل لجرير التقيا في مكان يقع تحت حراسة عساكر بلال حيث أتى مدعياً كشف الحراسة وقام بإبعاد الحراس بحجةِ الاستراحة جاء جرير وأخذ الذخائر والرصاص كانت صفقة كبيرة لبلال وصديقه عبادة

في صباحٍ باكر أمر اللواء المشرف على عملية اقتحام منطقة المتحف بالهجوم الذي يتضمن التسلّل ثم الهجوم الكامل أستشهد عدد من الجنود المتسللين إلى منطقة المتحف كان ليل تشرين الثاني طويلاً بما يكفي ليُعِد جرير نفسهُ لأي هجوم كان !

فيما تدور المعركة قد خسرَ الجيش مزيداً من أرواحِ الطيبين الذين ضحّوا بدمائهم من أجل هذه الأرض ما زالوا يحاولون الدخول في هذا الوقت كان عُبادة يقوم بتفتيش مباني القوس أو سرقتها يدعُ العساكر يفعلون ما يشاؤون أثناء تفتيش البيوت الخالية قد هرب بعض السكان في بداية حدوث المعركة أما عندما يدخلون بيتاً فيه أهله يشرف بلال على عملية التفتيش كي يترك طابعاً

جيداً أن المسلحين من يقومون بكلِّ ذلك وليس هم
رنَّ هاتفه النقال كان برفقة جنوده في تفتيش أحد البيوت المأهولة يريده بلال في الحال، كان مقرهم قريباً من البيت
-ممدوح
-نعم يا سيدي
-تولى أمر تفتيش البيت ريثما أعود هذه المهمةُ موكلة إليك
-حاضر يا سيدي
-سأعود بعد نصف ساعة
ركب سيارتهُ ورحل كانت فرصة مناسبة لممدوح في سرقة البيت لصالحه غير أن بعض الجنود كانوا يرفضون وضع أيديهم في مشاركةِ الخراب مع ممدوح والآخرين طلب ممدوح تفتيش غرفة المعيشة لم يخالف أحد من أهل البيت ذلك كانوا ثلاثة شبان وأمهم أم رامز دخل ممدوح وبدء بالتفتيش برفقة أحد العناصر وجد عشرين ألفاً موضوعة في أحد الأطباق جعلها في جيبه انتبه لفعلته الأخ الأكبر رامز تشاجرا بين الاتهام والبراءة حتى تهجم رامز عليه كان يريد إخراج المال المسروق من جيبه هجم أصدقاء ممدوح على رامز وأوهنوه ضرباً قد رفع الأخوان أيديهما معلنان الاستسلام كان الجنود جميعهم بكامل عتادهم أمر ممدوح بنقلهم إلى السيارات ترجتهُ أم رامز كثيراً وقدمت له كل عفش المنزل

-أرجوك دعهم وخُذ ما تريد من البيت خذ البيت كله لكن دعهم
-سأسرق البيت بأكمله ولن أدعهم أيضاً سأعلمهم كيف يحترمون الغير !!
جلست الأم بجانب باب البيت تندب أولادها الذين غُلبوا على أمرهم بدء ممدوح بالتفتيش عن أثمن الأشياء أثار إعجابهُ التلفاز بشكلٍ كبير أمر الجنود بحملهِ إلى السيارة ووضعهِ في مكانٍ آمنٍ بعيداً عن باقي الأغراض، عاد بلال بعد نصف ساعة، قصت له أم رامز ما حدث وأن أولادها بريئون وأن المجند ممدوح هو من فعل ذلك لم يصدقها كما نعت أولادها بالإرهابيين حدثتهُ عن أمور السرقات وأنها قد حُملت بسيارة وغادرت المكان فطلب منها السكوت فهو يحافظ على احترامهِ أثناء الحديث مع المسنين والأمهات ولا يريد تجاوز ذلك !
في المساء عندما حان دور ممدوح في الحراسة اتصل بوالده وبعد أن أطمأن عليه وعلى والدته، طلب منه قبول هدية صغيرة منه !
-أرجوك يا أبي مرتبي الشهري يكفيني وقد أحببت أن أقدم لكَ ولأمي هذه الهدية
-نحن نريدك سالماً يا ممدوح لا نريد شيئاً
-إنّهُ مجرّد تلفاز يا والدي !
-كما تريد
-سيصلكم في الغد أحد أصدقائي سيذهب إلى المدينة سأرسلهُ معه

-رضيَ الله عنك يا ولدي
كلّم أمهُ بصوت الطفل كأنّهُ لم يُبكِ أُماً قبل بضع ساعات أطمأنت على صحة ولدها ودعت له بالخير كان في سعادة غامرة لأثر رضا والديه عنه كأن الرحمة زُرِعت في قلب أمه ونزعت من قلب الأخريات !

***

استقامت الحياة! إنّهُ مؤشر نبضات قلبكَ يا محمود لقد مات !! خرجت إحدى الممرضات من غُرفة العناية الفائقة بحثت أمام الباب فلم تجد أحداً كانت عروبة بنصفِ وعيها قد جلست على إحدى الكراسي في الممر بالقرب من غرفة العناية إنّهُ عبءُ الألم قد كُسرت يدها اليمنى وقام أحد أطباء الإسعاف بلفها بالجبس وتحت عينيها كدمات زرقاء من إثر انقلاب السيارة كان جبينها مُحمراً إثر ارتفاع ضغط دمها
-هل كنت معهُ في الحادث ؟
-نعم أنا . . أنا قريبته !
-لقد فارق الحياة كان الله في عونكِ
بقيت كما هي لم تصدر أيٌّ ردة فعل إنّهُ الصمت الذي لا يومي إلا أيّ قَصد الموت الخفيف الهادئ مالت برأسها واستندت إلى الحائط كانت تشعر بالذنب حيالهُ فقط
-هل أنتِ بخيرٍ يا عزيزتي ؟!

-أنا بخير
ثم بكت أغمضت عينيها لتنهمر دفعةٌ أخرى قد رأتهُ قادماً إليها وهو يتحدث: دخلتُ حياتك كي أموت يا عروبة أنتِ لستِ لي
فتحت عيناها لتجد نفسها على قيد الحياة مرة أخرى قد يموت الإنسان مرّةً واحدة دفعة واحدة وقد يموت ألف مرة على دفعات!!
فُتِحَ باب مكتب المقدم يحيى على عجل كان المقدّم حسن يَجرُّ بيدهِ زيدون وقد أُدميَ من الضرب !!
-كيف تجرأُ على الدخول إلى مكتبي بهذا الشكل ؟
-لن أضطر للتفسير كيف دخلَ هذا المخلوق النتن إلى السجن بدون علمي ؟!
من ضمن شروط حسن أن يخرج زيدون من الحي بعد القيام بمهمته استغل زيدون الفرصة التي كان يرفع فيها أحمد السلاح على حسن حيثُ كانت سيارة حسن تحجب الرؤيا للشارع لاذَ بالفرار من عناصره أيضاً لكنهُ لم يعلم بوجود حاجز على أول الحي أمسك به عناصر المقدم يحيى وقدموه إليه تعرف يحيى على هويته كان المسدس بحوزته أيضاً وعد زيدون المقدم يحيى بأن يتكلم بصدق بشرط حمايته من بطش حسن أمر عناصره بوضعهِ في صندوق سيارته الخلفي وأدخلهُ بسرية إلى السجن كان يرغب بالحديث إليه ومعرفة السبب الذي جعلهُ يمتلك السلاح

ولما طلب الأمان من بطش حسن لكن ذلك لم يكتمل سرعان ما عَلِمَ حسن بكلِّ شيء حتّى في السجن لهُ عيونٌ لا تنام صُدِمَ يحيى عند رؤية زيدون ضبط نفسه أمام حسن كان يتوقُ لمعرفة نواياه

-أخبرني أنتَ أولاً ما علاقتك بهِ ؟

يدفع المقدم حسن بيديه جسد زيدون نحو الباب ثمّ يركلهُ خارجاً ويغلق الباب بإحكام

-أنا لا أفسر لأحد نواياي ما اعتدتُ فعل ذلك

-أوقن بأنك خلف كُلَّ ما حدث في الحي لكنني لا أمتلك الأدلة ! ولن تستطيع الوصول لشيء يا سيادة المقدم، احتراماً للمساعدة التي قدمتها لابنتي في يوم من الأيام أنا لا أنسى المعروف لأحد أنت أنقذت حياتها في يومٍ ما

-ماذا تقصد ؟

-كنت سأقتلكَ وغفرتُ لهذا السبب بحلول يوم غد ستقدم طلباً للالتحاق بالجيش سأعمل على موافقة رئيس القسم عليه أعرفُ من هم أكبر شأناً منه وسيضغطون عليه ثم سترحل بسلام إلى الجيش

-تتكلم وكأنك رئيس القسم !

-وأكثر يا سيادة المقدم وأكثر أنتَ بعيدٌ كل البعد عمّا يحدث خلف الستار الأسود السميك أنصحك بفعل ما أقوله لك

-وإلا ؟

-وإلا. . صدقني ستندم
اقترب حسن من يحيى وهو يتحدث بهدوء عاصف
-تعرفُ الكثير من جرائم الرعب التي ارتكبتها اعتبر هذا تهديداً
بدا السجن بأكمله تحت رحمته غادر المكتب كان يأمرُ المقدم يحيى هذا ما شعر بهِ لم يكن تهديداً عاودّ يحيى الجلوس على كرسيه ماذا يعني هذا الكلام ! انتهى كلُّ شيء الشر سينتصر على القليل الأخير من الخير في النهاية أي قرار قد يتخذه المقدم يحيى سيبقى رجلاً طيباً قد يصعب عليه تنفيذ مطالب حسن لكنهُ أيضاً أُصيب باليأس ليس لديه أصدقاء خيرين بين الضباط حتّى !
أخرج حسن زيدون سِراً كما دخل !
أمر كمال بإعدامه ورمي جثتهُ بعيداً
نُفِذَ الأمر !

***

-إلى متى سنستمر على هذا الحال سيلقون القبض علينا في هذا البيت إذا لم نفعل شيء الحاجز لم يتحرك من مكانه منذ ثلاثة أيام و طرق الخروج المتبقية كُلها أصبحت تحت مراقبة حواجز الجيش
-كانت الأمور أقل سوءاً لولا الاشتباك الذي حدث عندما ألقوا القبض على إحدى شاحنات السلاحِ المتوجهة إلى المدينة أظن أن الأمر دعا الجهات الأمنية لأخذ هذه التدبيرات

-لا أريد تفسيراً لما يحصل يا هيثم أريد الخروج من المدينة أنا أشعر بأني في السجن

-لا عليك

يرتبُ هيثم حديثه ثمَّ يستطرد :

- أتعلم، أنا بكامل الدهشة هل يعقل، كم نحنُ محظوظون ثلاثة أيام ولم نسمع شيئاً كردة فعل من البنك بعد سرقتنا لهُ أو هروبنا من العمل

-ربما حالفنا الحظ في هذا الأمر فقط

يضعُ صفوان المفتاح في مقبس الباب ثمَّ يدفعهُ بقوة كان يحمل الكثير من الأكياس لذلك لم يكن متحكماً شعر الجميع بالريب كانت ضربة قوية للباب أصبح صفوان في البهو بدا الاثنان عاجزان عن الحركة يعلو صوت هيثم غاضباً

-أيّها المغفل ألا تعرف فتح الباب بهدوء لقد أفزعتنا

-إذا أخرج أنتَ واجلبْ طعاماً لكم انظر كم أحمل من الأكياس

يخرج طارق من إحدى الغرف كان يرتدي ثوباً فضفاضاً إلى تحت الركبة كان يحرك شفتاه دون إصدار صوت كأنهُ شيءٌ من تسبيح الله وشكره

-ألا تجيدون الالتزام بالهدوء هذا التوتر سيؤدي بنا إلى نهاية وخيمة لا محالة

صفوان هو الوحيد الذي يستطيع الخروج والدخول إلى المنزل

لأسباب عدة أنَّهُ ليس موظفاً في البنك وترك العمل أثناء السرقة وثانياً لأنهُ أحدُ الغرباء عن أهل الحي الذي يسكن به هيثم حيث وضع إشاعة بين الناس بأن هيثم قد باعهُ البيت منذُ مُدة قد خطى خطوةً نحو الأمان من مداهمة الشقة من قبل رجال الأمن.

ما زال صفوان وهيثم يتبادلان النظرات الحادة رغب طارق بتهدئة الأجواء

-سأعدُ لكم القهوة هاتِ الأكياس عنكَ يا صفوان

-لا تزعج نفسك أيها النعمان سأحملها بنفسي إلى المطبخ

يشير بسبابتهِ إلى صفوان وهو يحدث هيثم وحسام

-انظر كم هو رجلٌ طيب

يطبطب على كتف صفوان كتقديم اعتذار نيابةً عن هيثم وحسام ثمَّ يذهب برفقتهِ إلى المطبخ

يملأ الدلة بالماء وهو يُحدث صفوان

-اسمع يا صفوان إذا واجهنا بعض المشاكل هذا لا يعني حدوث خلاف بيننا أنا لا أُنكرُ تعبك يا صديقي وسأزيد أجرك عندما ننتهي من هذا لأمر

فتح صفوان البراد بعد الرد على كلام طارق بابتسامةٍ لطيفة كان طارق يراقبهُ أذا كان منتبهاً له وهو يصنعُ القهوة أم لا

أخرج صفوان من بين الأكياس التي جعلها في البراد زجاجة بيرا

وفتحها وشرب منها حتى ارتوى
-ألن تتناول القهوة معنا
-لا لا أشتهيها
-إذاً اسمع أريدك أن تنتهي من شُربِ ما بيدك وبينما نشرب القهوة نحن ستجهز نفسك لنذهب في نزهة صغيرة
يفتحُ عينيه مصغياً
-أستخرج من البيت ؟!
-نعم واعلم أن ذلك من أجلك هيا اذهب إلى غرفة الضيوف ولا تخرج أريد أن أستعيد جو الألفة بين الجميع قد خططنا وتعبنا وفي النهاية لن أسمح لبعض الغضب بإفشالنا
-لن أخالف ما تأمر أيّها النعمان
-بارك الله فيك لن أُغير رأيي فيكَ أيها الرجل الطيب
يأخذ صفوان زجاجة البيرا ويذهب إلى غرفة الضيوف ويوصد الباب خلفه يأتي طارق بالقهوة ويقدمها لحسام وهيثم بوجهٍ بشوش كان يضفي حماساً على مسامعهم كأن يحدثهم عن جني المال الكثير بعد الخروج من البلاد وفتح الأعمال الكبيرة أو التنزه برفقة الجميلات والتجول حول العالم نام الاثنان فور الانتهاء من القهوة !
تركهما طارق كما كانا ثمَّ ذهب إلى الغرفة التي وضع فيها المال حملهُ وهبط عبر الدرج بهدوء وضع المال في صندوق السيارة

الخلفي وعاد نادى على صفوان ليخرج برفقته لم يتسنَ له رؤية ما حدث لحسام وهيثم ،كان البهو غير مقابل لغرفة الضيوف غير أن طارق كان واقفاً أمام باب الشقة كان يحاول استعجال صفوان كي لا يفكر بشيء ما إلا الذهاب برفقته

كان صفوان ذكياً لكنهُ لم يشعر بتدبير مكروهٍ من النعمان أو شيءٍ من هذا السوء قد أغراهُ بالمزيد من المال وتقربَ منهُ ببعض الكلمات بدا مرتاحاً لذلك فلم يعطِ الأمر الأهمية الكبيرة في الشكِ فيه كما كان يفعل مع الباقين وفي عقد صفقاته أيضاً

-سيمنحنا الليل أماناً أكثر

-يا لكَ من رجل! كيف أقنعت هيثم وحسام بخروجنا إنهما يخافان كثيراً حتّى من صرير الباب، يرتجفان خوفاً !!

-ليس أمراً صعباً عليّ إنهما يُعدان العشاء لنا جميعاً ريثما نعود لقد كلمتهما في أمرك وحذرتهما من أيّ كلمة سيئة ستقال في ذلك البيت ثمَّ تعهدت بعدم معاملتك لهما بالسوء نعم يا صفوان كنت دائماً تُذَكِرُ الجميع بأنك الوحيد الذي تستطيع الخروج من البيت وجلب الطعام والشراب ثمَّ قاما وحدهما دونَ دفعٍ مني قالا أنهما سيُعدان العشاء ريثما نعود

-أبهرتني يا نُعمان

بعد السفر لمدة عشرين دقيقة في السيارة وقفت على طرف شارع ليس مُناراً بالأضواء كان في نهاية أحد الأحياء الشعبية

التي تُشبه حي تشرين الأول هبط طارق من السيارة استند على مقدمتها دون أن يدعي صفوان قد أطفأ أنوار السيارة بدا المكان مُعتماً كان الشارع تُرابياً لا يقصدهُ أحد ترجل صفوان من السيارة وتوجه قُدُماً ثمَّ التفت ليواجهَ النعمان

-لا اعتقد أنَّ هذا المكان يستحقُّ النزهة

-يرفع النعمان مسدساً في يديه ويوجههُ نحو صفوان

-ومن قال لك أنها نزهة !

-ماذا! كم أنا غبي أتيتَ بي إلى هنا لتقتلني كم كُنتَ ساذجاً !!

-لا لن أقتلك بل يجب عليك أن ترضى بما سأعطيك إياه لآن وسترحل وإن لم تقبل سيكون ما توقعتهُ صحيحاً ستأخذ نصف مليون ليرة

-واتفاقنا ؟!

-نحن الآن نبرمُ اتفاقاً جديداً لا تتحرك

كان يحاول تغيير حركة قدميه ليستطيع الوقوف بثبات أكبر فحسب

-هذا يعني أن كلَّ ما سردتهُ لي كان محض تلفيق

-أنا أعتبرهُ ذكاءً يا صديقي هذا عرضي أقبلت ؟

تلمع في وجهِ طارق أضواء الكشاف لسيارةٍ ما من بعيد يكاد غير قادر على الرؤية تَحَسَّبَ لغدرِ صفوان رماهُ بثلاث رصاصات تأكد من وقوعهِ على الأرض فقط كانت الرؤية ضبابية وغير واضحة

وعليه الهروب قبل وصول السيارة هرعَ مُسرِعاً إلى سيارتهِ دخلَ خلف المقود بعد أن رمى مسدسه بالمقعد الذي بجانبه ثم انطلق عائداً بسرعة هائلة دخل إلى الحي المجاور ثمَّ طلب عصيراً من إحدى البقاليات شربهُ أعطى صاحب البقالية مبلغاً من المال أكبر من ثمن العصير وطلب استخدام الهاتف قد اتصل بالقسم الأمني وأعلمهم بأن هناك اثنين من الأشخاص قد سرقا البنك وأعطاهما عنوان بيت هيثم وأغلق دون أن يُعرف عن نفسه ركب سيارتهُ وعاد باتجاه بيت هيثم أوقف سيارته بين السيارات المركونة طرف الشارع استلقى كي لا يستطيع رؤيته أحد بدت مركونة كباقي السيارات، بعدَ فنيةٍ وصل المقدم يحيى برفقةِ عناصره تمتم طارق بسعادة وهو يتصل عليهم كان حذراً في ذلك

- مجرد أغبياء

أخرج من جيبه جهازاً يستعمل لتفجير القنابل الموقوتة - عن بعد - داهم عناصر يحيى المنزل، لم يجدوا سوى شابين نائمين في البهو فضل يحيى الوقوف بباب الشقة ومراقبة البناء شعر طارق بدخول الجميع إلى البيت، قد بدا لهُ الوضع آمناً في الخارج ضغط على الزر انفجرت القنبلة عَلتْ أصوات الفزع من المبنى وحلَّ الضجيج قد وضع القنبلة مكان الّموال وترك القليل من المال ليظن المحققون بأنها احترقت بأجمعها !

مات كُلُّ من دخل البيت كانوا أربعة عناصر وتابع هيثم وحسام

نومهم إلى الأبد !
حالف الحظ المقدم يحيى قد مرت شظية زجاج أثرِ الانفجار بجوار كتفه وأحدثت خدشاً لم يكن عميقاً استغل طارق الفوضى التي حدثت عاد بسيارته نحو الخلف بمنتهى الهدوء والثقة
- الحمد لله اللهم تقبل مني أرواحهم قرباناً لك اللهم آمين !
غادر المكان
كانت خسارة كبيرة ليحيى عاد إلى المكتبة قد ضمَّدَ جراحهُ أحدُ الأطباء أشعل الأنوار هذه إحدى أتعس المهمات التي قد يفقد فيها عدداً من عناصره يرمي اللوم على عاتقه تنبه بوجود ورقةٍ على مكتبه إنّها الموافقة من رئيس القسم على طلبه التحويل إلى الجيش دخل حسن إلى مكتبه أثناء القيام بمهمته ووضع له الورقة
لم يفكر بالأمر طويلاً جلس على الكرسي بهدوء قد شغلت خياله الكثير من الصور والدم
-آه ما الذي يحدث في هذه البلاد! آه يا يحيى منذ متى لا يستطيع رجال الأمن القبض على مجرم منذ متى يتم خداعهم كلما تقدم الوقت كلما ازدادت الأمور سوءاً
كُلُّ الذين ماتوا في ذلك البيت لن يذهبوا جميعاً إلى الجنة كالكلام الذي يقال في الكتب بعضهُ قد يصلح للقراءة فقط والورود التي تُأخذُ لعيادة المريض قد قُطِفَت قبل ذلك الإعلانات المبهرة

للملابس غالباً ما تكون أكثر سوءاً من غيرها، كُلُّ الذين ماتوا في هذه الحرب لن يذهبوا جميعاً إلى الجنة كانت هذه الحوادث المتتالية التي تُزيد يقين يحيى بحدوث تخميناته ذلك قبل أن تختلط ذنوب المجرمين مع ردود أفعال الضحايا !

دخل سعيد إلى البيت مذهولاً لجماله كانت الجدران لامعة بيضاء والأرض من حجر الغرانيت المزين بنقوش الورود البديعة أُخذت قلبه الأبواب الخشبية السميكة المتينة تجول بين أركانه متمتعاً أثاثه

-نحتاج للعيش في مثل هذا المنزل يا فريدة

-قم بدورك على أكمل وجه وأعدك بذلك

لبّت أم تحسين طلب فريدة بأن تحصل على أحد البيوت ثمَّ تترك أمر صفيّة لها كان يجب على سعيد القيام بدور صاحب البيت ثمَّ على فريدة القيام بدورها المعتاد

كان سعيد شارداً في قماش الستائر الكثيف نبهتهُ فريدة

-حبيبي

-نعم

-بدل ملابسك حدثتني أم تحسين ستصل صفيّة في غضون نصف ساعة

-حاضر

دخلت إلى الغرفة التي يجب أن تكون غرفة نوم الزوجين فتحت

درج الخزانة ووضعت بعض أساور الذهب خرجت
-سعيد إياك أن تُخطأ هذه فرصتك لتشاركني عملي وتجني الكثير من المال
-حاضر يا فريدة
غادرت المنزل وبعد نصف ساعة حضرت صفيّة قد أرسلتها أم تحسين لتنظيف البيت في فترة سابقة اعتنت بها وبأطفالها بعدما حاول التعرض لها الحاج فكرت كانت هذه خطة فريدة لوضع صفية تحت أمرتها والمثولِ لأمر الحاج .
خرج سعيد بعد إتمامه لنصف دوره لم تشعر المسكينة صفيّة أن كل ما يحدث حولها مجرّد كذبة حضرت فريدة بحجة أنّها زوجة الحارس في المزرعة وتريد جلب بعض الأغراض التي نسيها صاحب البيت - الذي قام بدوره سعيد – أدخلتها أخذت الذهب من الدرج ثمَّ دخلت إلى المطبخ وأخذت بعض الأغراض لتوهم صفية بذلك حلَّ أول المساء عاد سعيد إلى المنزل أثنى على صفية عملها وتوعدها بالمال الوافر لحُسن صنيعها دخل إلى الغرفة وسرعان ما اتهم صفية بسرقة الذهب عجل بالاتصال إلى أمّ تحسين كان غاضباً
-أرجوكِ يا سيدة أم تحسين دعيني أعلم الشرطة بذلك أرجوكِ لقد سرقت ذهبي ولا تريد إعادته
-أهدأ من فضلك وستكون كُلُّ الأمور كما تريد أمنحني دقيقة

بعد إذنك
تُمسكُ صفيّة من يدها وتمضي بها بعيداً عن سعيد
-اسمعي يا ابنتي إذا كُنتِ أنتِ من سرق الذهب قولي وأعدكِ أن تكون الأمور كما يحلو لكِ
بوجهٍ باكٍ قد فسرت مرات عدة ما حدث بأن هنالك امرأة غريبة ادعت أنها زوجة الحارس في مزرعة صاحب البيت دخلت البيت وهيَ من سرقة الذهب بلا شك !
-أنا لم أفعل شيء أرجوكِ يا أم تحسين أنقذيني لا تدعيه يتصل بالشرطة لدي أيتام في البيت ينتظروني حتّى أعود لأطعمهم، صدقيني لم أسرق شيئاً
-سأساعدكِ وأعيد الذهب إليه من مالي لكن
-لكن أنا لم أسرق شيئاً
- دعيني أكمل يا ابنتي
تقفُ صامتةً كانت تنتظر موقفاً جميلاً من أم تحسين كما تعودت ذلك في الفترة الأخيرة
-سأدفع ثمن الذهب ولكن عليك الذهاب إلى بيت الحاج فكرت هذه الليلة ستبقين بجواره حتّى الصباح يا صفية هذا عرضي أنتِ تعلمين كيف يفكر الناس في الخارج لن يصدقوا هذا السبب فقط لدخولك السجن سيتكلمون في الكثير من الأعمال القذرة التي قد تدفعُ أرملة لفعلها الناس في الخارج لن يفهموا هذا الأمر على أنّهُ

مُجرّدُ سرقة
-لا أستطيع يا أم تحسين أرجوكِ اعتبريه ديناً وسأوفيه لكِ لكن لا تعبثي بشرفي
-اسمعي أيتها البلّهاء إمّا توافقي على ما قلتهُ لكِ أو أني بنفسي سأذيع صيتاً قذراً لدخولكِ السجن فكري وقتها ماذا سيحصل لأطفالكِ !
لمعت تلك العيون المظلومة هذا كُلُّ ما تبقى لها وتريد الحفاظ عليه تريد اللوذ بشرفها فقط كانت تتعبُ يوماً كاملاً حتّى لا ينام أطفالها وبطونهم خاوية
أومت برأسها موافقة قد تتخلى عن شرفها خلال حربها مع الحياة من أجل أطفالها لا تريد السماح لتشريدهم مهما بلغ الثمن
تعود أم تحسين لتقابل سعيد
-سأدفع لكَ الثمن يا سيدي قدر لي ثمن الذهب وسآتيكَ بالمال لكن لا تخبر الشرطة بالأمر
-لو أني لم أتعامل معك قبل هذه المرة لما قبلت يا سيدة أم تحسين لكن أنا أعرفكِ جيداً
-سآتيكَ بالمال صباحاً إن لم تمانع
-أثقُ بكِ لكن أنصحكِ بمعرفة طبع العاملات في هذه المهنة قبل إدخالهم إلى بيوت الناس
-سأعمل على ذلك آسفة على كل ما جرى أرجو أن تكون ليلة

طيبة
- في أمان الله سيدتي
غُلبت صفيّة على أمرها طلبت من أم تحسين تفقد أطفالها قبل الذهاب إلى الحاج لم تمانع ذلك ما زال الوقت مبكراً لم تبدأ سهرة الحاج فكرت بعد دخلت بيتها الصغير كانت ابنتها الكبرى تبلغُ من العمر إحدى عشر عاماً قد تولت منذ هذا العمر مهمة الاعتناء بالبيت لديها طفلين توأم يبلغان ثلاث سنوات
اقتربت منهم وهم نائمون كتوئميّ حجلٍ في عشِّ أبويهما لا يعرفا القهر الذي يعيشا فيه هذا يكفي لتشعر الطفولة الأولى بالأمان مررت رأسها بجوارهما وهي تشتمُ رائحتهما
-والدايّ
ثمَّ لم تستطع الوقوف كانت تراودها الرغبة بقتل أم تحسين والحاج فكرت انحنت برأسها مجدداً نحوهما بعد أن غلبتها عاطفة الأمومة إنّهم العائق الجميل بينها وبين رغبتها بقتل أمّ تحسين وفكرت
دون أي شعور بالرحمة كانت أم تحسين تنتظرُ أمام باب الغرفة الوحيدة في البيت
-هيا يا صفية قلتِ لي ربع ساعة فقط إياكِ والعبثُ معي
رفعت رأسها ورمقت أم تحسين بنظرة لو كانت بغير زمان لقتلتها بعدها كادت عيناها تنفجر حقداً نهضت مرت من جانبها دون

أن تتحدث كانت تريد تكليم ابنتها
-يجب عليكِ الاعتناء بالمنزلِ وبأخويكِ ريثما أعود جلبّتُ معي بعض الطعام كُلي ونامي يا سارة
-لا تتأخري يا أمي أنا أخشى الظلام !
-ستجديني بجواركِ عندما تستيقظينَ يا طفلتي
تومي سارة إيجاباً برأسها قد رحلت صفية من البيت برفقة أمّ تحسين
كان الحاج فكرت مخموراً في حديقة منزله الواسعة قد تلقى خبر سرقة ماله من البنك وقرر العودة إلى البيت وحده دخلت إليه صفية كانت وسيلة ليخبرها كم هو مستاءٌ من الجميع ومنها أيضاً مارس ردَّ فعلهِ الدنيء عليها بعد سرقة أمواله
-ألم أقلْ لكِ أنكِ ستأتين راكعةً إليَّ ؟! من تظنين نفسكِ ؟!
-أرجوك لا تلمسني لدي أطفال
-اقتربي هذه الحياة يا صفية تحتاج إلى القليل من القسوة والتخلي يجب علينا أن نُدربَ قلوبنا على القسوة حتى يكون التخلي سهلاً يا صفية !
ينهض مترنحاً كان بدون وعيه تقريباً شدّها من يدها بقسوةِ الذئبِ على الفريسة
-تعالي معي
-لا أريد أرجوك ارحمني

-أيتها المغفلة لو تعلمين كم ارتحتُ لشخصك لم تفعل امرأة ما فعلتيه بي وأبقيتها حيّة لكن أنتِ لكِ سحرُكِ الخاص لقد سحرتني يا صفية لا تكوني بلهاء و ترفضي حُبي لكِ
كانت الكلمات تخرجُ من فمهِ بصعوبةٍ بالغة كم خافت منهُ لكن لا مناص شدها من يدها دون أي ردة فعل جديدة، مضت معهُ إلى حيث يصبو مزاجه !

***

كانت رأفت تذهب جيئة وذهاباً في مساحةِ غرفتها الهاتف المحمول مُلقى على سريرها يرنُّ فتركض على عجلٍ نحوهُ
-هل حصلتِ على الرقم نعم . . نعم شكراً لكِ يا مرام أنا بحق مدينة لكِ
تُنهي المكالمة وسرعان ما تتصل بالرقم الذي أعطتها إياهُ مرام .
شعرت مرام بأن هنالك خطبٌ ما قد تغيرت مُعاملة رأفت مع الجميع مؤخراً عرضت عليها مساعدتها إذا أرادت الحديث تحدثت لها عن ياسين ثمَّ توعدت مرام بالحصول على نمرة هاتفه كانت تريد إبعادها عن ماهر ليس لأنّها صديقتها !
-مساء الخير
-أهلاً من يتكلم ؟
-أنا الفتاة التي . . قد حدث بيننا سوء تفاهم منذ ثلاثة أيام أريد

الاعتذار
-نعم ! لا عليكِ كان أمراً عادياً
-لا أقصد إذا كنت تقبل دعوتي لشرب القهوة في مقهى الجامعة اعتقدت أنَّكَ محرج حيال ما حدث
-كان موقفاً عادياً ليسَ عليك حمل سوء تفاهم بسيط إلى هذه الدرجة هذا أولاً ثانياً أنا لا أشرب القهوة شكراً لاهتمامك
ثمَّ يغلق المكالمة اشتاطت غضباً كيف لشاب بفقر مؤهلاته أن يرفض دعوتها وهي رأفت ابنة حسن المدني أو نسخة مطابقة لأبيها جُلَّ ما تفكر به هو كلام ماهر حوله كان دائماً ينتعهُ باللص والكذاب لا يعقل أن يرفضها ضغطت بيدها على الهاتف المحمول ثمَّ رمتهُ بجانبها لم تصدق ما حدث ما كانت تضعُ احتمال رفضهِ بهذه الطريقة مع أن ياسين كان مهذباً جداً في كلامه معها !
في الغرفة الثانية كانت سلمى تحاول الاتصال بربيع ظنت أنه كعادتهُ ينتظر اتصالاً منها يبرر كل ما حدث بمجرد مشاكل يحلو الحُبُّ بوجودها قد اعتادت على ذلك لا يجيب، شغلتها محادثة عبر الفيسبوك، كانت من اسم مجهول لم يكن ضمن قائمة أصدقائها
-مرحباً يا طفلتي
اعتقدتْ أنّهُ أحد المشاغبين العابثين الذين يزعجون الفتيات بشكل دوري
-من أنت ؟

-كم أكره أن تسأليني هذا السؤال يا ابنتي
-ابنتي !! احذري من كلامك
-أجيبي على هاتفكِ النقال يا سلمى
تحمل هاتفها النقال على الفور ! ظنّت أنها محاولةٌ من ربيع لكسبِ رضاها كانت النمرة غربية سيطرت الفكرة على عقلها أجابت مبتسمة
-نعم
-لقد شاهدت صورتكِ الشخصية قد كبرتِ جداً يا ابنتي
-انهُ صوت امرأة تبدلت معاني سلمى نحو الذهول
-هذا الصوتُ ليس بالغريب ؟!
-نعم أنا أمكِ مهيتاب !!
أخذت سلمى شهيقاً عميقاً إلى أن يمتلئ صدرها بألم الذكريات قد تغيرت لهجتها بدت متعثرة الحديث الّتفتت حولها قد عادت طفلةً تبحث عن أباها إن كان موجوداً كانت تفعل ذلك عندما تريد الاعتراف لنفسها بوجود أُمها في هذه الحياة
-لا، أمي ماتت منذ زمنٍ بعيد
-لم أمت يا عزيزتي إنما بقيت مختبئة كُلَّ هذه المدة خوفاً من أبيكِ
-لن أصدق لا توجد أم تختفي عن أطفالها خمسة عشر عاماً
-أمعني جيداً في صوتي أنا مهيتاب أمك

هبط الهاتف من يدها كانت لا تصدق ما يحدث قد خارت قواها رفعت الهاتف مجدداً عادت طفلة من جديد

-أمي كم تمنيت حدوث هذه اللحظة

ثمَّ سمعت صوت أمها وهي تعاندُ البكاء

-سأعطيك عنوان بيتي احرصي على عدم معرفتي حسن بذلك

-حاضر

-أخبريني كيف رأفت ؟ ألم تصبح شابة ؟

-لقد دخلت الجامعة يا أمي وأنت بعيدة يا إلهي كم اشتقتُ إليكِ ظننتُ أن والدي قتلكِ كُلُّ هذه المدة وأنا واقعة في تصديق ذلك وإنكاره

-هنالك الكثير من القصص التي يجب أن احكيها لكِ أبوكِ كان سبباً في دمار هذه العائلة قد يعيش في قصر لكن قلبه مدينةٌ منكوبة

لو أنها تستطيع الولوج إلى غرفة رأفت وإخبارها بأن أمها على قيد الحياة دائماً كانت تسألها كيف ماتت أمي ؟

تغلق المكالمة بعد معرفتها العنوان ثمَّ تعود لتقلب الذاكرة يوماً يوماً كانت تنتظر الصباح حتى يأتي كي تذهب إليها كم تغيرت أمي ؟ تُرى هل أصبح وجهها مُجعداً؟ هل ما زالتِ جميلة دخلت إلى صفحتها على الفيسبوك، كانت خاليةً من أي صورة أو كلام علمت أنها قامت بصنعها من أجل التحدث إليها فقط إذا كانت

تعرف نمرة هاتفي لما لم تتصل ؟؟! أجابت على نفسها: لا يا أمي لم يغيرنا حسن كما كنتِ تخشين لم يستطع فعل ذلك

***

استيقظت سارة كانت صفيّة تداعب شعرها وهي مستلقيةً بجانبها

-أمي

الّتفتت إلى أمها لتنغمرَ في جسدها لم تكترث لما قد بدا على وجهِ أمها من قهر، يمكن أن تلاحظ الاحمرار في عينيها لكن لن تسألها السبب كانت مشغولةً في عناقها

-هل استيقظا أخواكِ ؟

-باكراً أطعمتهما ثمَّ عادا للنوم

فتحَ أحدُ الصبيين عينيه ليرى صباحهُ في وجهِ أمهِ نهضَ من فراشهِ وعبر إليها ما لبثت في طلبِ قبلةٍ حتى استيقظ الثاني لا تريد البكاء في هذا المكان ربما قد تتساءل سارة عن سبب ذلك أما التوأمين سيكتفيان بالمراقبة أخرجت من جيب قميصها مالاً قد أعطاها إياهُ الحاج فكرت ترفعُ يديها إلى الأعلى وهي تردد

-خذوا المال يا أطفالي المالُ الحرام الذي لم أستطع جنيهُ في الحلال

ثمَّ تنثرهُ في أرجاء الغرفة تحضنُ أطفالها بقسوة هذا من أجلهم من اجل الحفاظِ عليهم عادت لذاكرتها كلمات المخمور (الحياة تحتاج إلى القليل من القسوة والتخلي يجبُ علينا أن ندرب قلوبنا على القسوة حتى يكون التخلي سهلاً يا صفية)
شهقت إنهُ ألمُ التخلي، فرطُ الندم
لم تخيب ظنَّ سارة وعدتها بأنها ستجدها بجانبها عندما تستيقظ كانت صفية تشعرُ بالخوف من كل العالم خلف باب بيتها ضمت أطفالها إلى صدرها كي لا تسمح لأحدٍ بمسهم مجدداً ليس عليها أن تفكر بالندم حيال ما فعلت كانت النتيجة هذه اللحظة برفقة أطفالها هزّت برأسها في هذيان كانت تصغي لحديث نفسها
-لا تُشترى جميع الأشياء بالمال عليكم تلقي نتائج أفعالكم برحابة صدر . .
تركت أطفالها على عجل وتوجهت نحو المغسلة رشت الماء على وجهها عدة مرات ثمَّ نظرت إلى المرآة كانت تحتاج إلى الوقوف أمام أفعالها تلك التي حافظت على تغطية خصلةٍ من شعرها كي لا يراها الحاج فكرت يوم كانت تنظف مكتبه تخلت عنها بأكملها دفعةً واحدة !

***

تسلل عناصر جرير إلى مباني القوس ليلاً واختبئوا في مخازن الذخائر كانت غفلة الحراس! أو غفلة الموت بعض الحُراس لقوا

حتفهم بغتة
كان يوماً طبيعياً للجيش الذي يقاتل على الجبهة بين مباني القوس ومنطقة المتحف في وقتٍ مبكر أمر جرير عناصره الموجودين على الجبهة برفع وتيرة الاشتباك ومحاولة الاقتراب كان ذلك محاولةً لشتيت الانتباه حتى يخرج عناصره الآخرون من مخازن الأسلحة ويهجمون من خلف خطوط الجيش !
رفع الجهاز اللاسلكي حدد الموجة
-الآن !
خرجوا كان الجو مطمئناً للجيش داخل مباني القوس جميعهم يحملون السلاح لكنهم ليسوا في وضعية الاستعداد نجح عناصر جرير في السيطرة على مهجع العساكر بجانب المخزن راحَ النائمون ضحية الغدر إنها الحرب لا تعرف نوماً ولا غفلة !
توجهوا إلى غرف الضباط بعد إعلام جرير بذلك قد علم الجيش المتواجد على الجبهات بوجودِ خرقٍ أمني لكنهُ لا يستطيع ترك الجبهة كان جرير يضيق الخناق شيئاً فشيئاً حُوصرَ بلال ويحيى إما أن يقاتلا مع الجيش ضد ضرير أو أن يقاتلا لرد عناصره المتسللين
صدر أمر من اللواء بالتراجع كانت عودة موجعة يتساقط العساكر أثر ضرب النار من الأمام والخلف
تراجع الجيش أصبحت منطقة الاشتباك في يد جرير إلى منتصف

مباني القوس توجه بسيارتهِ إلى حيثُ غرف الضباط كان يتوقُ للإمساك ببلال وعبادة دخل إلى غرفة بلال لم يكن هناك
-لقد هربا يا أبا تركي (جرير)
-كيف! لقد أغلقنا كُلَّ المنافذ
-على ما اعتقد استطاعا التراجع مع الجيش
كانت أمامه طاولةٌ خشبية قد وضِع عليها بعض المأكولات المعلبة ركلها بقدمه بقوة كان يصرخ :
-لقد وليتكَ هذه المهمة يا أبا البراء قلت أريدهما أحياء أموات
-ربما تأخرنا في السيطرة على مهجع العساكر
-لن أعتمد عليك مرة أخرى لقد خيبت أملي
-كلُّ شيءٍ حصل كان من تدبير الله لم أكن موفقاً يا أبا تركي هذا كُلُّ ما يجب قوله
يطلق تنهيدة خيبة وقد استدار ليقابل أبا البراء يهز برأسه بالإيجاب
-الحمد لله، مشط المباني بأكملها يا أبا البراء نريد أن نضغط على الجيش حتى يتراجع إلى آخر منطقة القوس قد استوليتم على الكثير من الذخائر، هيّا انطلق
-طوع أمرك
يذهب أبو البراء برفقة العناصر ليتابع دفع الجيش نحو آخر مباني القوس كان جرير يريدُ السيطرة على المكان كلّه

لاذ ممدوح بحياته كان أحد العساكر الناجين أثناء التراجع
-يا إلهي ما الذي حصل؟ ماذا سنفعل الآن يا سيادة الرائد ؟
-تصرف كأنك أحدهم يوجد الكثير من الفوضى في هذا المكان الجميعُ يرتدون البدلات الزيتية !!
-لكن ماذا عسانا أن نفعل، سيعود جرير لقتلنا سيتعرف علينا بسرعة وسيخبر الجميع بأمرنا
-لا بأس سنذهب إلى الشيخ مختار ونعلن انشقاقنا !! لن يسمح لجرير بقتلنا بعد ذلك
-لكن . .
يقاطعهُ قد وقفَ في مكانه وأمسك عُبادة من سترتهِ وشدهُ نحوهُ، كان غاضباً
-إذاً ارجع ليقطعك جرير وأنتَ على قيد الحياة
يرفع يديه عن سترته ثمَّ يكمل طريقهُ فيتبعهُ عُبادة ، كان كلامهُ مُقنعاً كم لوعا جرير أثناء تجارة الأسلحة كانا يعلمان جيداً أن الحرب لا تحمل الصداقات أثناء الوطيس !
لم يستطع بلال وعبادة الفرار من الجيش أثناء محاصرة غرف الضباط من قبل أبي البراء كان بلال يعرف طريقاً سرياً استطاع عبرهُ نقل وتجارة السلاح إلى جرير كان حلهُ الوحيد

ذهبا إلى الشيخ المختار هو القائد العام للعمليات جرير وأبو البراء يعملان تحت إمرتهِ أعلنا انشقاقهما وتوعدا بالوفاء له لم يكن عبادة راضياً عن ذلك

أمر الشيخ مختار أحد حراس المقر الذي يجلس فيه بتأمين بيتٍ للضابطين الشريفين كما ادعى ذهبا إلى البيت فضَّلَ بلال الاستحمام لم يُحمل الأمر أكثر ما حمل كان لا مبالياً دائماً، جُلَّ ما يفكر به كيف سيحصل على المال الذي أودعهُ في البنك – المال – الذي جناهُ من الحرب

استغلَّ عبادة خلوتهِ بنفسه رفع هاتفهُ النقال

-مرحباً أبي

- أهلاً كيف حالك أيها الضابط ؟

-لقد أعلنت انشقاقي

-ماذا تقول ؟َ!

-إنَّها حادثة يا أبي كُنتُ سأموت لو لم أفعل أرجوكَ ساعدني أنا بلا هويةٍ الآن

لقد لقي أبو الفهد من تجربة إرسال عبادة إلى حلب شرَّ نهاية !

-ابقَ مكانك يا عبادة ولا تختلط بأحد ابقِ أمركَ سراً كي أستطيع مساعدتك يا ولدي

-لقد تمَّ تصوير انشقاقنا يا أبي ربما ستجدهُ الآن على اليوتيوب

-ماذا فعلت بنفسكَ يا عبادة

-أرجوكَ يا أبي أنقذني لا أستطيع البقاء بين هؤلاء
-سأعمل على ذلك لن أدعكَ بينهم
أغلق أبو الفهد الهاتف ارتخى على كرسي مكتبهِ ما توقع حدوث ذلك كانت مجرّدُ تجربة لم تكن الأمور بذلك السوء في حلب كيف اندفع المسلحون بهذه القوة لامَ نفسهُ على ما حدثَ مع عبادة كان لا يجب عليهِ إرسالهُ إلى حلب، ولج إلى اليوتيوب كان ما يخشاه من كلام عُبادة صحيحاً !
خرج بلال من الحمام كان يجفف شعرهُ بالمنشفة وهو يتحدث إلى بلال دون النظرِ إليه
-لم يعجبني هذا المكان يا بلال، كيف نستطيع التأقلمَ بهذه السرعة ؟!
لا يعيره بلال انتباهاً
-قلت لك لم يعجبني المكان
-لما لا تصالح نفسك وتنتهي من هذا العذاب، كُلُّ ما عليكَ فعلهُ أن تتلقى كُلَّ ما يأتيك بصدرٍ رحب، سأطلب من الشيخ الذهاب إلى منطقة ثانية سأبدأ حياةً جديدة
-بهذه السرعة !!
-طالما أنك لا تريد أن تتلقى ما يأتيك بصدرٍ رحب، ستتعبُ كثيراً يا عبادة
تأكدَ من تنشيف شعرهِ دخل إلى الغرفة ليرتدي ملابسهُ كان

طبيعياً جداً كأنهُ لم يكن مساءً في الجيش واستفاق عدوّ نفسه كان يكلم عبادة بصوتٍ عالٍ
-لن تذهب معي إذاً؟!
-لا أعلم

***

طرقت الباب وبدأت بوضع الاحتمالات هل يعقل أن يكون ذلك صحيحاً أُمي على قيد الحياة فُتح الباب بهدوء ثمَّ ظهرت امرأة تبلغ من العمر خمسين عاماً وتزيد، قد لمعت عيناها تفحصتا ملامحها قد كبرت خمسة عشر عاماً في المنفى ربما كانتا تعيشان في نفس المدينة لكن لا مكان يجمعهما فتحت ميهتاب يديها بضيق لم تفتحهما إلى آخر حد كانت تريد عناقاً قاسياً
-تعالي يا ابنتي
ارتمت سلمى على صدرها وهي تضرب بيدها على كتف مهيتاب وتردد :
-أكرهُكِ أكرهُكِ
-كبرتِ، أصبحتِ جميلةً كما اعتقدت تشبهين أمكِ يا سلمى
-وأنتِ كبرتِ جداً يا أمي
-سأخبركِ عن السبب
تشتمُّ رائحة ابنتها ثمَّ تقبلُ يدها لم تُعطِ لأمرَ العصبة شئناً
-تعالي سنتحدثُ في الداخل سأكلمكِ عن كُلِّ شيء، لا تسألي أيَّ

سؤال في هذا الوقت
تدخلان وتجلسان في بهو المنزل تغادر مهيتاب للحظات عائدة بألبوم من الصور كانت تريد تمرير السنين بالصور أمام ناظر ابنتها أن تعيد السنين عبر الصور، عزمت سلمى في التفتيش بين الصور كانت مصغية لحديث أمها أيضاً
-طردني حسن من المنزل، لم يكتفِ بذلك منعني أيضاً من رؤيتكِ و رؤية أختكِ استأجرتُ بيتاً في الضواحي كنت أعلم حق اليقين أنهُ سيضعني تحت المراقبة عملت على تبديل اسمي واسم عائلتي ظللت فترة من الزمن في حالةِ مضنيةٍ في كل الوقت أشعر بأنهُ يراقبني في كل الوقت أشعر بأنهُ سيدفعُ الباب ويدخل ليضربني من جديد
رفعت سلمى رأسها وجهت نظرة تفسير لأمها
-وعملكِ يا أمي ؟
-قدم طلب نقل واستجيب لي علمت حين ذلك أن حسن لم يستطع مراقبتي وخصوصاً بعد تغييري لأسمي
عادوا التقليب في الصور كان يراودها هذا السؤال دائماً فُطرَ البؤسُ الحيُّ في عيني أمها قلبها ففضلت السؤال وهي تُقلبُ في الصور
- ولم لم تحاولي الوصول إلينا كُلَّ تلكَ المُدة لا اعتقد أن هناك أُماً تتخلى عن أطفالها لخمسة عشر عاماً !

لاحظت سلمى صورة طفلٍ بين يدي أمها كانت إحدى الصور قلبت بعيداً كان الطفلُ يكبر كلما تقدمت في العمرِ أو في الصور! استطردت في الحديث كانت تتوقع ذلك

- تزوجتي يا أمي أليس كذلك ؟!

-إنهُ عمر أخوكِ أنا لم أتزوج يا سلمى خرجت من البيت وأنا حامل !!!

أخذت نفساً عميقاً ثم أكملت :

لم أستطع التواصل معكِ ومع أختكِ كي أستطيع تربيتهُ بعيداً عن حسن كنت أخشى أن يعلم بالأمر إذا علمتما بهِ !

تركت سلمى ألبوم الصور تقدمت نحو أمها وركعت أمامها أمسكت بيدها وهي تنظر إليها كانت تتمنى ما قالته أمها صحيحاً قبل أن يكون!

-أمي أرجوكِ قولي لي أن ذلك صحيحاً أنا لدي أخٌ من أبي وأمي؟!

- اغفري لي يا ابنتي لم أستطع العيش بجانبكما كنت أخشى أن يأخذ حسن مني أخاكِ !

سُمعَ صوت فتح باب كان الصوت من الداخل أُغلق الباب مجدداً، تلاهُ صوت عالٍ مع تتابع خُطا

-أنا ذاهب إلى المدرسة أتريدين شيئاً يا أمي ؟

ابتسمت سلمى في سرور تقدمت إلى عمر، أمسكتهُ من يديه بحرارة

-هل تعرف من أكون ؟!
-صديقةُ أمي الباكية
-مغرور أنا أختك سلمى
-نعم يا عمر إنها أختكَ سلمى التي حدثتكَ عنها دائماً
تضمهُ سلمى كانت ترى في وجههِ ملامح أخيها الذي اعتقدتهُ يوماً ما
-لقد أصبحت شاباً
كان يبلغُ من العمر أربعة عشر عاماً يعرف نصف السر خلف عائلته أخبرتهُ مهيتاب أن أباهُ ميت وأن لهُ أُختين تعيشان خارج البلاد وستعودان فيما بعد كانت دائماً تحدثهُ في هذا الشأن
أن تستيقظ على هذا العالم مع كُلِّ هذا الكم من المفاجئات، إنها سلمى، اعترفت لأمها بأثر الجرح وتكلمت لها عن قسوة حسن في التربية، وأنّهُ لم يتزوج بعدها والأهمُّ أنهُ لم يتغير بل ازداد قسوة قضت عدة ساعات برفقتها عاد عمر من المدرسة وتناولا الغداء سوية كانت مهيتاب تتوق لرؤية رأفت كانت صغيرةً عندما طردها حسن من البيت لم تشعر بالأمان الكامل لذلك فضلت الحفاظ على الأمر سراً بينها وبين سلمى
بعيداً عما يكشف من أسوار العائلة كانت رأفت في مقهى الجامعة برفقة ماهر ومرام كانت تتظاهر بأنها بأفضل حال حتى دخل علي وياسين كانا يريدان احتساء كوبين من النسكافيه بادرت

ياسين فور دخولهُ بنظرةٍ أعجاب ردَّ عليها باللامبالاة مجدداً كان يضعُ نصب عينيه هدفاً واحداً فقط: تحقيق حلم أبيه
عبر ياسين بجانب طاولتهم ثمَّ يتبعهُ علي فضلا الجلوس في أول المقهى من الداخل اختار زاوية تقطع الرؤية بينهُ وبينها اشتاطت غضباً شعرت بالذل كُلُّ هذه الإغراءات لشابٍ فقير ويرفض !
جلب ياسين كوبين من النسكافيه وأخذ يتبادل أطراف الحديث مع صديقه علي و كان غيرَ مكترث تماماً
الّتفتت رأفت إلى ماهر بعيني حسن مدني، بذلك اللطف الذي يُخفي خلفهُ استغلالاً عظيماً
-ماهر؟
-نعم يا عزيزتي
-ذلك الشاب الذي حدثتني عنه، الذي يدعى ياسين
-آه اللص!
-نعم اللص لقد كُنتُ مخطئةً بشأنه شكراً لكَ على تنبيهي لولاك لاحتال عليَّ ربما
-من واجبي لو تعلمين كم أنتِ غالية
تغير وجه مرام كان كأس العصير يرتجف بين يديها شعر ماهر بأن الكلام الذي قالتهُ رأفت فيه نقص عدا أنهُ لم يكترث لردة فعل مرام
-أكملي

-لقد ضايقني عدة مرات صددته لكنهُ عاود الكرة
-امم سأعطيه دواءً مناسباً لوجعهِ
نقلت رأفت نظرها لتجد مرام بكامل الدهشة لم تكن تعرف كيدها الكبير
انتهى ياسين وعلي من شُرب القهوة مر علي بجانب طاولتهم وتابع ًإلى خارج المقهى مر ياسين
-هيي أنت !!
الّتفت مستغرباً ما فعل شيء كان الصوت يدل على الاشمئزاز
-لقد دهستَ فوق حذائي أصبح متسخاً
ردد ماهر كلامه بصوتٍ يبعث على القرف
كان ياسين مبتسماً
-أنا آسف
ثمَّ يمضي يعلو صوت ماهر
-تعال لم أكمل حديثي هل اعتذارك سيتكفلُ بإعادة حذائي نظيفاً؟!
يعود ياسين إلى طبيعته يقترب من الكرسي الذي يجلسُ عليه ماهر يقف ويتابع رمقهُ بنظراتٍ قبيحة
-ماهر لا أريد الدخول في مشاكل لم أدهس حذائك واعتذرت هذا يكفي
-أيّها الجبان اسمع ستمسحُ حذائي بمزاجك وإلا سوف تمسحهُ

بمزاجي
-ماهر . .
يقاطعهُ متعالياً
- أقسمُ لك الآن الفرصة سانحة لك لمسحهِ بقطعةِ قماش نظيفة بعد قليل ستمسحهُ بلسانك
يدفع الكرسي الذي كان يجلس عليه ويضعُ قدمه عليه ثمَّ يستطرد بالحديث
-هيا قم بعملك يا ياسين
يغمض ياسين عينيه وهو يلتفتُ باتجاه باب المقهى كان يتحاشى الشر فحسب يمسكهُ ماهر من دبر قميصه الآن أنفجرَ غضباً قد وجه ماهر لكمة له فور التفاته مجدداً إليه تفاداها ثمَّ أعادها له بقوةٍ مضاعفة استقرت بين عينيه وقع ماهر على الأرض حمل ياسين الكرسي وهبط بهِ على جسد ماهر عدة مرات قد ضربهُ بهِ حتّى تكسر كان ماهر يحاول القيام الفوضى عمت المكان لم يسمح ياسين لأحدهم بالاقتراب بقي علي متفرجاً يعلم من هو ماهر ومن هو أبوه ربّما كان مسروراً لما يحدث من تعرضهِ للضرب قد شاهد بعينهِ صديقهُ وهو يهان ترنح ماهر وهو يحاول ضرب ياسين كان لرياضة الجودو فضلٌ كبيرٌ في تحطيم عظام ماهر أمسكهُ من يده ثمَّ أغلقها إلى عنقهِ كان ماهر يصرخُ من الألم بقيت رأفت ومرام خلف طاولتهما لم تستطيعا الهروب حتّى

رماهُ أرضاً كان ماهر لا يستطيع الحراك مُدمى الوجه ويصرخ من ألم قدمهِ ويديه لم يهدأ ياسين حمل بيده كُرسياً ثم دفعهُ ليستقر أمام رأفت كانت خائفة جداً منهُ الجميع يتابع ما يحدث كان المقهى ممتلئاً بالمتفرجين من الطلاب

وضع قدمهُ على الكرسي كان متسخاً إثر ضرب وتكسير عظام ماهر مرت عليه الكثير من لحظات القسوة لكنهُ لم يغضب أبداً كان يتحايل على الموقف دائماً

مد يدهُ اليمنى وفتح كفهُ أمام رأفت كانت كقطعةِ خشب أمامه لم تتحرك !

-أعطيني منديلاً

تبدأ بالبكاء دون أن تستطيع الحديث لم تفعل كما أمرها يصرخ في وجهها

-قلت لكِ أعطيني منديلاً

-أنا

-لا تعتذري فقط أعطني ما طلبت في حقيبتكِ منديلُ قطني مُطرز أعطني إياه هيّا

كانت يداها ترتجفان تُخرِجُ منديلاً كما طلب وتعطيه إياه الجميع ما زالوا يتابعون بصمت يريدون أن يعرفوا ما ينوي فعلهُ يمسحُ حذاءهُ جيداً قد أزاح جميع الأوساخ عنهُ ثم يرفع المنديل إلى وجه رأفت ويبدأ بمسح دموعها !!

-لا تليق بوجهك الدموع الأشرار لا يبكون !!
لقد ذلها، رمى في وجهها المنديل بعد انتهائه من مسح دموعها وغادر لحقهُ علي دون أن يكلمهُ في هذا الشأن
في المقهى كان ماهر يحتاج لسيارة إسعاف هرعت مرام مسرعةً إليه قد فقد وعيه رفعت هاتفها النقال وطلبت الإسعاف كانت مذعورةً عليه كل الذعر جلست رأفت على أحد الكراسي لم تصدق ما حدث كان جميع الطلاب يرمقونها بنظرات الشماتة كانوا يشيدون بما فعلهُ ياسين ويلقون بعض الكلمات شامتين بماهر ورأفت
-ياسينياسين أنا أكلمك
يسرع علي خطواته ليلحق بصديقه قد أصبحا خارج الجامعة يديره بقسوة ليستطيع سماعه
-هلا ستفسر لي ماذا فعلت؟!
-كنت إنساناً فحسب أنا أشعر بالذل والحقد أنا لست حجراً يا علي لست حجراً، لا آبه بما سيحصل لقد لبيت رغبتي بتكسير عظام ذلك الوقح وهذا يكفيني
ربما ستعلم رأفت بعد ذلك أن جميع الناس قد خلقوا من نفس طينتها أنها يمكن أن تكون في مكان أيٍّ أحد فيهم لم تخلق للتعالي على الجميع ذلك ليس من حقوقهما كما كانت تظن!

***

-من هذه الليلة يجب أن تقولوا لهم أن هناك من سيدفع الثمن لقد قتل القناص طفلاً والسكوت عن ذلك باطل جهزوا عتادكم جيداً واحملوا أرواحكم إلى فوق السحاب حتّى إذا عدتم بدونها لا تأسُف عليكم أنتم طريق الحقِّ وأنتم سالكوه

كان عبد الحكيم يلقي خطاباً على مجموعته في حي الكحل الأسود قبل الذهاب للنيل من الحاجز الذي يقبع في أول الحي بدا الجميع متحمسين بعد خطابه ركبوا السيارات على عجلة كانوا مدججين بالأسلحة على أنواعها المتوسطة والثقيلة تتألف مجموعتهُ من تسع سيارات من طراز الجيب مفتوحة الصندوق في كُلِّ سيارة يجلس خمسة عناصر سيذهبون للنيل من حاجز الحي كان يتألف من سيارتين عسكريتين وضابطٍ برتبة ملازم أول وعشرة عساكر بعتادهم وقناص

-هيا يا مراد ضع هاتفك النقال جانباً يجب علينا تيسير أمور الشارع هنالك الكثير من الناس ينتظرون المرور

-في الحال

كان مراد شارداً في صورة أبنه بلغ من العمر ستة أشهر ولم يره بعد سوى على الصور كانت زوجته ترسلها إليه بشكلٍ دوري طلب منهُ صديقه عارف الاستعجال في تفتيش السيارات التي تعبر من الحاجز يقفان في اتجاهٍ واحد من غير مقابلة عارف يدير الذهاب ومراد يدير الإياب استطاع مراد تفتيش السيارات التي

كانت تنتظره عند الطرف الآتي إلى الحي فرغ الضجيج عندما يحل الليل تصبح حركة السيارات قليلة كانت للأحداث الأمنية أثرٌ كبير، بدا مراد غير مرتاح كان يتنهد كثيراً شعر عارف بذلك أخذ يكلمهُ كان يريد رفع معنويات صديقه

-لست وحدك منذ سبعة شهور ولم أحصل على إجازة اشتقت لأمي كثيراً يا رجل

-تتغير الأمور كثيراً عندما يكون لديك طفلٌ لا تستطيع رؤيتهُ ما زلت أعزباً يا عارف لن تشعر بما أشعر

-نعم ولأني كذلك إذا مُنِحتُ إجازةٍ قبلك سأكلم الملازم أول بإعطائك إياها بدلاً مني يبدو لي بأنك أحق مني فيها لكن أرجوك لم أعتد على رؤية وجهك بهذا الكم من الحزن

تقف أمام عارف سيارة ينحني ثمَّ يدخل رأسهُ من الشباك بجانب السائق يأخذ نظرةً عامة على وجوه الجميع كانت عائلة مكونة من خمسة أفراد يخرج رأسهُ من السيارة في ذات الوقت كان مراد يصرخ بكلِّ ما أوتي من قوّة

-احذر . . تحتك

ينظر إلى قدميه فيجد قنبلتين هجوميتين قد تبقى ثانيتين فقط على انفجارهما ابتداءً من الوقت الذي صرخ به مراد

رمى أحد عناصر عبد الحكيم القنبلتين بدقة انفجرتا وقع مراد على الأرض قد أصبح السلاح بعيداً على أثر الدفعة التي تلقاها قد

أصيبت يده اليمنى بشظايا متعددة انهال عبد الحكيم وعناصرهُ بالرصاص خرج العناصر الباقون لم تدم المقاومة طويلاً طُوق المكان بإحكام ثم زحف عناصر عبد الحكيم إلى الحاجز

وصل عبد الحكيم إلى مكان انفجار القنبلتين كان أفراد العائلة قتلى بأجمعهم لم يكن لعارف أثر قد لقي الصدمة الكبيرة إثر الانفجار فتحول إلى أشلاء، سمع عبد الحكيم صوت وجعٍ قادم من طرف الإياب كان مراد مختبئاً خلف الساتر الترابي، اقتربَ عبد الحكيم بحذر، سرعان ما وصل وتأكد بأنهُ مصاب لا يقدر على فعل شيء

-ارحمني أرجوك لدي عائلة

-اطلب من الله ذلك وأنا سأتكفل بإيصالك إلى هناك

قتلهُ بدم بارد وضع البندقية على صدره لم يعجبه المكان الذي سيصوب فيه رفعها إلى رأسه ثمَّ استقربها على حنجرته وأطلق رصاصة دنيئة !

فتش عناصر عبد الحكيم المكان كانوا يريدون العثور على القناص كان أحد العناصر بالقرب من الغرفة الأخيرة عبرها توجد فتحة طلاقية وساتر كان القناص دخل العنصر بحذر كان يضعُ شماخاً فلا يظهر من وجههِ سوى عينه رفس الباب بقوة وتبعُهُ بسرعة وحذر إلى الداخل كان القناص مُصاباً في كتفهِ دخلت إحدى الرصاصات الغرفة إثرِ إمطار الحاجز بالرصاص واستقرت في كتفه

ارتفع حاجبا العنصر المتخفي إنّهُ أحمد قد ذُهِل لرؤية أبي الوفا في هذا المكان !!

قد حضر دورة الرمي التي أقامها عبد الحكيم وأصبح مقاتلاً كان أبو الوفا ينزف بشدة قد وضع يدهُ مكان الجرح، تفقد أحمد المكان حوله فوجد جميع أصدقائه بعيدين رفع الشماخ عن وجههِ

-أأنتَ القناص الذي قتل الطفل ؟!

-لم أفعل ذلك أقسم لم أفعل ذلك

-ما الذي أتى بك إلى هذا المكان ؟

-هذا عملي أما أنت؟

يلتوي وجعاً لم يصرخ يكمل حديثه:

-أما أنت ما الذي أتى بكَ إلى هنا يا أحمد؟!!

-الأشرار الذين لا يريدون الخير لهذه الأرض، لماذا قتلت طفلاً بريئاً يجلب الخبز، ماذا فعل لك؟

-لم أقتل أحدً يا أحمد أقسم لكَ لم أقتل أحداً

عادت لذهن أحمد الكلمات التي رددها أبو الوفا عندما شاهدهُ لآخرِ مرةٍ الكلمات التي لم يعرف تفسيرها وقتها (الشمس تغير نورها عليَّ وعلى هذه البلاد لا تخطئ يا بني الصواب هو الصواب ما دمت ترى نور الشمس حقيقياً)

تلفت باحثاً عن النور كان الظلام دامساً لم يشعر أحمد بذلك

بل فسر الكلام على أن أبو الوفا قد فعل ذلك قد أخذ من كلامهِ النصف الأول فقط لم يحاكم عقله إذا كان يرى النور أم لا !

في هذه البلاد لا شيء يعلو صوت البندقية لقد قتلته ! أقسم أبو الوفا بأنهُ لم يفعل ذلك لكن أحمد لم يصدقهُ ما تردد في قرار قتله كان واعياً حينما ضغط على الزناد ودفع برصاصةٍ نحو رأس أبو الوفا

تركهُ ملقى حيث هو، كان يريد الخروج من الغرفة وإذ باثنين من أصدقائه دخلا الغرفة ثم باركاه لقتل القناص بارك به عبد الحكيم أيضاً بعد خروجهم جميعهم وعودتهم إلى الحي قد أصبح منفذ الحي تحت سيطرة عبد الحكيم وقد وضع بعض العناصر وقائداً لهُ تحت إمرتهِ

حان وقت نوبة الحراس يحمل أحمد بندقيته ويذهب إلى مكان الحراسة لم يتغير عليه شيء بين وقتهِ و وقت الحراسة كان يجلس وحدهُ، عاد ليفسّر كلمات أبو الوفا في جزئها الثاني كيف يمكن أن يغيب عنهُ ذلك ألم يغفر لأبي الوفا كلَّ الخلق الحسن الذي يحملهُ؟ أفعالهُ القديمة الطيبة في الحارة؟ ما كان مصدرَ إزعاجٍ لأحد ألا يجب أن تكون هذه الأعمال هي جدارٌ عظيم بينه وبين قتل الطفل، ألم يكن نادماً أبداً !

وقع في الشك الجميع لا يعلمون من هو أبو الوفا من يكون قبل أن يقتل الطفل !

رفع رأسه إلى السماء كان الشتاء، سقطت حبات المطر على وجهه قال في صوت هادئ مكسور

-يا رب

سمع صوت حركة قدمين آتٍ من أمامه ربما أحد الحيوانات يبحث عن الطعام في الليل لم يعطي الأمرَ شأناً اقترب الصوت أكثر وتلاهُ صوت أدميّ

-لا تطلق النار أنا أعزل !

كان الجو معتماً رفع أحمد بيلاً وصوبه مكان الصوت كان شاباً في حالة مزرية ثيابهُ مبللة بالماء ويرتجف من برده اقترب أحمد منه وهو يرفع سلاحهُ نصبَ عينيه

-انزل على الأرض وارفع يديك إلى الأعلى بهدوء

يتأكد أحمد من عدم حمل الغريب أيّ سلاح

-قف، هيا

يقف منتصباً وقع ضوء البيل نصب عينيه إنهُ الهارب من بطش أبي الفهد قد أحرق ماهر بيتهُ وهربت أمه وأخوتهُ إلى إحدى الحدائق العامة للإقامة مع النازحين هناك، إنّهُ ياسين !

***

قدم حسن شكراً لقاطني حي تشرين الأول على ما فعلهُ أحمد كان كلَّ أسبوع يذهب للحي ويقوم باعتقالات عشوائية ويقوم بتفتيش البيت الذي يحلو له لم يعد هنالك مظاهرات في الحي

بعد رحيل ربيع وإلقاء القبض على عماد لكن حسن يريد إلقاء القبض على أحمد وربيع يريد جمع المعلومات حول مكان وجودهما

شبك يديه الاثنتين وأسندهما إلى ظهره كان حسن يقف أمام بقالية أبي ممدوح في ساحة الحي خلفهُ باب البقالية ،كان عناصره يخرجون ما يحلو لهم ويضعونه في السيارات وقف أبو ممدوح متفرجاً لا أكثر، لم يستطع فعل شيء

-إذاً لا تعرف أحداً من الإرهابيين ؟

-لا يا سيدي لا أعرفُ أحد

-ما اسمك ؟

-أبو ممدوح

-من سرق بقاليتك يا أبا ممدوح ؟

ينظر أبو ممدوح إلى العناصر وهم يسرقون رزقهُ أمام عينيه هو مطالب بتكذيب نفسهِ يصمت كان لا يريد الحديث خشية العواقب

-لقد سألتك من سرق بقاليتك يا أبا ممدوح ؟؟

-الإرهابيون يا سيدي

-أحسنت أحسنت

يبتسم حسن في وجههِ ثمَّ يتحركُ بعيداً عنه كان يلقي التعليمات على عناصره الذين يسرقون البقالية بالتحرك حالاً أمر الآخرين

بأن يتبعوه
طرق حسن الباب، فتح قيصر كانت أم أحمد في حالةٍ صحيةٍ سيئة في الداخل لم يعد بإمكانها شراء الدواء ولا تستطيع التواصل مع أحمد هذا من شأنه أن يزيد الحالة سوءاً دخل حسن متفاخراً قلب نظرهُ في أركان البيت وهو يسأل أم أحمد كانت جالسةً على كرسيها المتحرك في منتصف البهو
-أين اللقيط ؟
-ألم أقل لك، أذهب وابحث عنهُ بنفسك
-شيء واحد يمنعني عن استخدام القسوة معك
يومي بيده إلى كرسيها ثم يستطرد حديثه
-هذا الكرسي أنتِ لا تستطيعين الوقوف مجرّد مقعدة لكن لسانك يعمل بشكلٍ ممتاز
-أتساءل دائماً لقد ربيتِ أحمد كان طفلاً هادئاً وعندما أصبح شاباً حمل هم عائلةٍ على كاهلهِ لا أستطيع الإنكار بأنهُ ابني أما أنتَ، قلبكَ أسود قد لا أعرف الكثير عن حياتك لكني أراها في عينيك تحمل الكثير من الدناءة والرذيلة فأتساءل: من اللقيط بينكما ؟!!
يشتاط حسن غضباً لم يمتلك أي إجابة على سؤالها اندفع نحوها وسدد ركلةً إلى الكرسي وقعت أم أحمد على الأرض هرع قيصر لينقذ أمه لم يصدر منها أيُّ ردةِ فعلٍ لأصواتهِ المتلاحقة،يصرخ

قيصر: أمي رفع نظرهُ ووجهَهُ إلى حسن اندفع إليه كان يرغب بضربه صفعهُ حسن ثمَّ ركلهُ بقدمه حتى أصطدم بالحائط ووقع على الأرض لا حراك له لقد أصيب بالدوار أثر الصدمة .

لم تستطع عروبة الاتصال بأحمد ولا سعاد الاتصال بربيع كانت هواتفهما تحت المراقبة الأمنية أصرّت عروبة على إيصال الرسالة السادسة إلى أحمد! أرسلتها برفقة سعاد، كانت كلَّ أسبوع تذهب إلى حي الكحل الأسود وتتفقد أخاها كانت عروبة تنتظر رسالة من أحمد أن يكتب لها بأنهُ ما زال يحبها بعد كل ما حدث من متاعب، ظلت على قيد الأمل !!

-لقد أرسلتِها برفقتي ثلاث مرات إنهُ لا يريدكِ يا عروبة في كلِّ مرةٍ يقول لي بأنه لم يعد سعيداً عندما يتذكرك في آخر مرة طلب مني ألا أتكلم معهُ في هذا الشأن عروبة أرجوكِ لا تُحمليني ما لا أستطيع حملهُ لا أريد من أخي ربيع أن يشك بشأن محادثتي بالسرِّ مع أحمد

-ليس لي أحدٌ سواكِ يا سعاد

-لا يريدكِ، أتفهمين !

طُرِقَ الباب كان ذلك حسن فتح أبو قصي الباب

-تفتيش نريد الدخول

-دقيقة من فضلك يا سيدي

يستدير أبو قصي نحو الداخل ثمَّ يصرخُ ملأ صوته

-تفتيش أمني ضعوا المناديل على رؤوسكن، تفضلوا قوموا بواجبكم
يومي حسن بيده لعناصره بالبدء بالتفتيش ثمَّ يدخل آخرهم البيتُ خالٍ من أيِّ ممنوعات يطالب حسن تفتيش الغرفة التي يجلس فيها عروبة وسعاد بعد أن أدعى أبو قصي بأن ابنته وصديقتها تجلسان بالداخل والغرفة خالية من أيِّ ممنوعات
-ضرورات أمنية أرجوك لا تتدخل في عملنا
-كما تريد
يدخل أبو قصي إلى الغرفة ويخبر عروبة بضرورة الخروج تخرجان تمر عروبة من أمام حسن مدني كما يمر خيط النور في جوف العتمة لقد أثارت انتباههُ فُتشت الغرفة لو استطاع إلقاء نظرة أخرى على وجهها الطفولي كان يريد التوغل في معانيها أكثر يطالب حسن عناصره بالخروج من المنزل والانتظار في الشارع، كان يريد الجلوس برفقة أبي قصي، ولهُ ما تمنى
-أنا أطلب الزواج من ابنتك
صُعقَ أبو قصي عند سماع هذا الكلام لم يتوقع هذا الحديث منه كان كبيراً جداً على فتاةٍ بعمرِ ابنتهِ استطرد حسن في الكلام لا يجب أن يدعي أبو قصي برفقة الشك وحدهما
-أعدكَ بأن تكون سعيدة معي هذه المرة الثانية التي أفتش فيها هذا البيت وأنا متأكدٌ بأن هذه الفتاة من نصيبي، بعد برهة من

صمت أبي قصي

-عليَّ أن استشير الفتاة أولاً من حقها أن تقول رأيها بالموضوع

-قلتُ لك هذه الفتاة من نصيبي أنا المقدم حسن المدني إن لم تعرفني اذهب واسأل من سبق لهم ووضعوا الشروط في صفقاتهم معي

-ابنتي ليست صفقة أيّها الضابط

-سأعود غداً لأسمع كلاماً طيباً منك لا لأخرب البيت واتهمك بجرمٍ كبيرٍ ثمَّ سأتزوجها وأنتَ في السجن

ينصرف، قد سمعت عروبة كل حديث حسن هذا يعني إن لم توافق سيفني العائلة كلها قد يصاب والدها بمكروهٍ إذا لم توافق سُرت سعاد من داخلها بعد سماع هذا الحديث لكنها شاركت عروبة خوفها !

كانت الكلمات عصية على حديث أبي قصي كيف يمكن له أن يسأل ابنته بالموافقة أم عدمها من رجل يقاربهُ في العمر وإن وافقت ستكون قد ضحت بنفسها من أجل عائلتها

حاولت سعاد مواساة صديقتها التي شرعت بالبكاء كانت تشعر بالظلم من أحمد

-هذه الحياة ليست لتحقيق الأحلام يا سعاد لم اعتقد أبداً بأني سأتزوج من رجلٍ يكبرني عمراً ورغماً عني إنهُ مخيف لقد توعد لأبي إن لم يتزوجني

-قد يكون رجلاً طيباً يا عروبة !

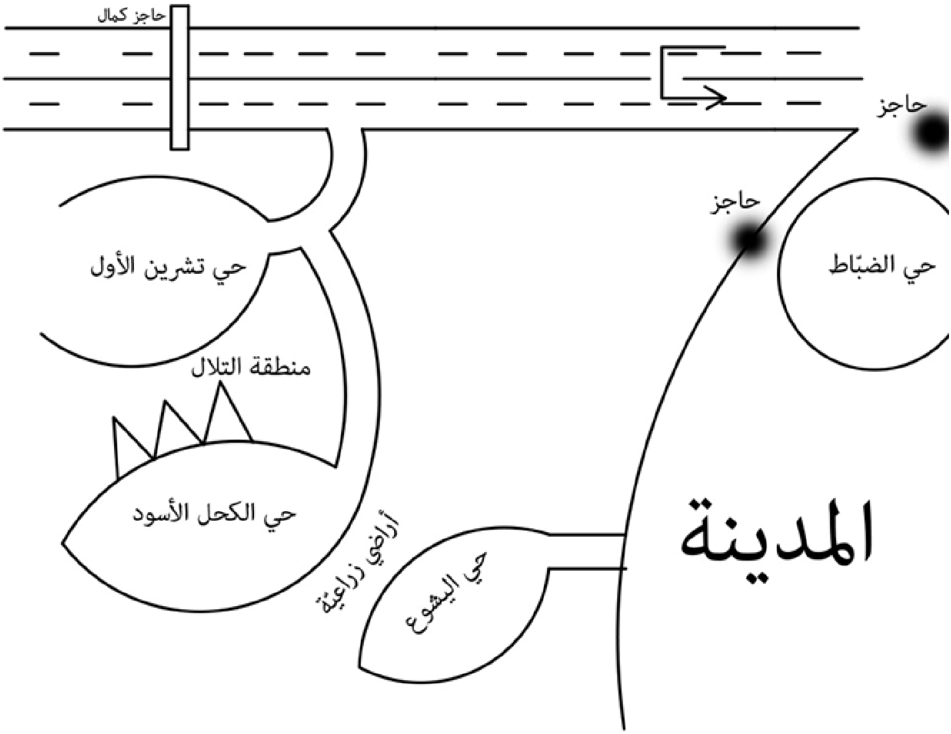
وقعت عروبة بين خرابين كان أحمد في مكان ما غير مبالي لن تتوقف حياتها عنده دفعت سعاد هذه الكلمات بقسوة على مسامع عروبة كان ما يهمها غير ذلك هو عائلتها كلّ الطرق تؤدي إلى الموافقة على حساب سعادتها !!
لم تشعر عروبة وقتها بأنها على هامش حياة أحمد، بل كانت تتمنى ذلك!

***

أكمل المقدم يحيى المهمة كما يجب كان يعمل على طرد المسلحين من الأحياء الجنوبية الغربية للمدينة لم يتوانَ أبداً في مهماته بقي نبيلاً في الجيش
على الجبهة كان رحيماً بعناصره ومقدساً للشهيد إنه حي اليشوع يقع في جنوب حي الكحل الأسود نقطة تماس بين المسلحين من طرف عبد الحكيم والجيش من طرف المقدم يحيى أمر المقدم يحيى الجيش بالتقدم وعدم الرجوع بعد سيطرة عبد الحكيم على الحاجز الذي يؤدي إلى حي الكحل الأسود لا يرغب عبد الحكيم بالتفريط بحي الكحل الأسود كانت نقطةً مهمة له ومحاذية لجبهتين جبهة حية وهي بينه وبين المقدم يحيى وجبهةٌ نائمة وهي بين حي الكحل الأسود وحي تشرين الأول كان المقدم

يحيى يريد تأمين المنطقة الجنوبية بأسرها بنظره السيطرة على حي الكحل الأسود سيوفر الأمان لجنوب المدينة بكامله

وضع خطة لدخول الحي استفاد من امتداد الأرض وعدم وجود مرتفعات هذا لن يوفر أرضاً للاشتباكات الغادرة وربما يعرف المسلحون المنطقة أكثر منه درسها جيداً وقرر التوغل ليلاً وضع الخطة أمام زملائه من الجيش ثمَّ إلى العسكريين كان الجميع يثنون على عمله



رفع المقدم يحيى حدّةَ المواجهة في ليل هذا اليوم كانت المقاومة ضعيفةٌ من جهة عبد الحكيم الذي شعر باحتمال خسارته للمعركة فدفعَ بأحدِ الضباط المنشقين مع عدد من المقاتلين إلى جهة الجبهة لتبقى صامدة إلى حين الصبح كانت المواجهات حرّة في الأراضي الزراعية الأفضلية للجيش، عندما ضرب قنبلة ضوئية كشفت مواقع المسلحين أمرَ يحيى بذلك انفجرت القنبلة في السماء كأنّهُ الصبح سُلطت المناظير العسكرية لكشف أماكن المسلحين، كان يحيى أول الضباط المتأهبين سلط منظاره عاد الظلام مجدداً هبط المنظار من بين يديه دون أن يستطيع حمله كان قد قطع الشك باليقين بعد أن وقع في ريب تأكد من أمرٍ يخشاه تفاجأ لما رآه أكثر من مفاجئته لما يحدث في هذه البلاد كلمهُ قلبهُ في صمت حواسه

-إنّهُ بلال، أخي!! ماذا تفعله في هذا المكان من العالم يا بلال ؟

عرف الجيش أماكن المسلحين استخدموا السيارات لتطويق المقتربين جداً من خطوط النار، كان بلال بين الأسرى أو أهمهم هدأت الجبهة بطلبٍ من المقدم يحيى كان يشعر بحدوث خطبٍ ما ما كان ليصدق نفسهُ في البداية يريد أن يتأكد كيف يمكن لبلال أن يأتي إلى هذا المكان؟ اتجهَ نحو مكان الأسرى طلب من الحارس فتح الباب والبقاء خارجاً، دخل، نعم إنّهُ بلال

كان برفقة عدد من الأسرى أمسكهُ يحيى من قميصه ودفعهُ خارجاً تخلى من شعوره بمسؤولية العمل تحكم به شعور المسؤولية تجاه بلال فقط هو أن يأنبه لفعل أمرٍ غير صائب، كان بلال موصد اليدين غيرَ قادرٍ على المقاومة رماه يحيى على الأرض بعد أن فرغا وحدهما في الخارج

-كيف أتيت إلى هذا المكان يا أخي؟ ما لذي تفعله في هذه البقعة من الأرض ؟!

-عليك قتلي هذا هو عملك

-لا أنا لستُ مثلك أنا لا أقتلُ أحداً

يقترب يحيى منهُ ثمَّ يصفعهُ على وجهه ثمَّ يضع يديه على خدي أخيه بلال، قد انحنى على ركبتيه متأثراً لم يستطع يحيى تصديق ما يحدث ولم يستطع ضربهُ أكثر من ذلك

-ما الذي جعلك تترك عملك؟ ما هي المغريات التي قدموها لك؟ قل لي! كلمني أرجوك يا أخي؟ ألم تذهب إلى حلب في مهمة؟ ماذا فعلت كُلَّ تلك المدة ؟!

-أنا الآن مجرم من وجهة نظر قانونك، يجب عليك قتلي لست أخاكَ يا يحيى الحرب تمحي الذاكرة !

يقف يحيى على قدميه مجدداً كان السلاح بين يديه مُذخراً فقط أن يضغط على الزناد فيصبح بلال في عداد الموتى رفع السلاح ووجههُ إلى رأس بلال أغمضَ الاثنان عينيهما أعاد يحيى السلاح

إلى وضع السكون ثمَّ صوبه إلى نفسهِ، لم يستطع قتل أحدهم لا بلال ولا ضميره الحي !!

-تريدني أن أقتلك ؟! عندما كنتُ في دورة الضباط كنتَ ما تزال طفلاً أذكر في إحدى الأيام عُدتُ من الدورة منهكاً حتّى أني لا أستطيع النوم من تعبي وصلت إلى البيت كنتَ مريضاً يومها أمكَ رحمها الله قالت لي بأن مزاجك يصبح سيئاً جداً عندما تمرض أتيتُ إليكَ وقد رميت تعبي عرضَ الحائط لم آبه بهِ، عرضت عليكَ أن نلعب الكرة مانعتَ في البداية لكن عندما رميت الكرة تجاهكَ أعدتها إليَّ كموافقةٍ مبدئية، يومها يا أخي أعدتُ لك الكرة مئة وخمساً وسبعين مرة كي أستطيع رؤية ابتسامتك، الآن تريد مني أن أقتلك! كم أنتَ أحمق !

-لا ينفع هذا الكلام الآن صدقني لو كنت مكانك لقتلتكَ !

-هذا أنتَ يا بلال وليس أنا

-لا أكترث لهذا الكلام أنا أفعلُ ما يحلو لي

-وإذا منعتُ عنك أطفالك، ما الذي ستفعلهُ ؟

-ألم أقل لك أننا أعداء ماذا؟ هل ستؤذيهم ؟ لن تستطيع فعل ذلك ستتكفلُ بتربيتهم إذا قتلتني هذا جلُّ ما تقدر على فعله

يغضبُ يحيى من انتهازية أخيه يمكسهُ من يدهِ ويدفعهُ بقسوة

-إلى أين تأخذني ؟

-أخرس أيها اللعين

يصل يحيى به إلى نقطةٍ على الجبهة كان حريصاً ألا يراهُ أحد حلَّ الهدوء بين الطرفين وقف يحيى ناظراً إلى حي الكحل الأسود دفع بأخيه باتجاه الأراضي الزراعية التي تؤدي إلى معقل المسلحين

-هيّا، أذهب

يقف بلال في مكانه

يدفعهُ يحيى وهو يضغط على أسنانه كانت عيناه تحملان الحب الحب الذي لم يجد ما يقابلهُ في قلبِ أخيه أيَّ أثر

-قلت لكَ أذهب، أبتعد عن هذا المكان يا أخي لا تبقَ في مواجهتي!

ينظر بلال إلى أخيه نظرةً أخيرة ثمَّ يركض مسرعاً عبر الأراضي الزراعية، لم يعترف بالشكر لما فعلهُ يحيى كان مديناً بحياتهِ !

تابعهُ حتى تأكد من عدم رؤية أحد العسكريين له ورميهُ بالرصاص لم ينسَ أبداً من كان رغم الكلام القاسي الذي وجههُ لهُ ابن أبيه لم يتحكم الغضب بهِ إنّها الطيبة التي لا تغيرها أوقات الحرب مهما طالت !

عاد إلى غرفة إقامتهِ خائباً تذكر البيت القديم في حي تشرين الأول كيف لم يسمح لحمام اليمام بالاقتراب من يد أخيه كان بلال يحمل بيده حباتٍ من الرز ويريد إطعامها من خشية يحيى عليه قام بإبعاد اليمام من يده كان يشعر بالخوف على أخيه من اليمام!!

قد لا تغير المواقف أحد كم وقف يحيى إلى جانب أخيه نكر ذلك

في أكبر لحظاتِ ضعفه ماذا قد يفعل لو كان في أقواها !
لا يستطيع يحيى أن يتجرد من ذاكرته أن يخلو من نفسه، هذا ليس شيئاً سهلاً أو ممكناًكان يرغب بالصراخ مِلأ صوته، لكن لا شيء هناك يرتدُ منه الصدى، فيتشتت الصوت بين الأرجاء، كان الوطن مقبرة لا يُرى لآخرها أثراً بعد عين !

***

تأخرت نجلاء في إعداد نفسها كان غيتار ينتظرها في السيارة في الخارج طلبت من ميس أن تقوم بإدخالهِ إلى البيت لأنها تحتاجُ إلى المزيد من الوقت
كان غيتار منسجماً مع إحدى الأغاني الشعبية قد ملَّ وهو ينتظر فاختار تمضيةَ الوقت بسماعِ الأغاني، طرقت ميس زجاج الباب بجوار السائق لم يكن يسمعها لوحت له بيدها بأن يفتح الباب
-مرحباً
-أهلاً
-ستتأخر نجلاء في إعداد نفسها هلا حضرت لتحتسي القهوة ريثما تنتهي ؟
صمت كان يتأمل شعرهاكانت قد استحمت قبل قليل وما زال شعرها مُبللاً
-لن أكلك، هيا أنا مجرد امرأة، هيّا
يترجلُ من السيارة قد حدثَ لهُ أمرٌ غريبٌ لتوه، علِقت قدمه

تحت دواسة الفرامل فوقع على الأرض حاولت ميس مساعدتهُ مبتسمة لما حدث !

-أتساءل كيف لمعلمي الاعتماد على فاشل مثلي

ضحكت بصوتٍ عالٍ، وضعت يدها تحت ساعده ريثما يستطيع حلَّ قدمه، زاد ارتباكهُ

-ألم تخرج مع امرأة أبداً ؟!

-لا لم أفعلها طوال عمري !

خلّصَ قدمه العالقة دخلا إلى البيت أخذ غيتار فرصةً للهدوء بينما كانت ميس تُعِدُ القهوة

-تفضل

-شكراً شعركِ جميل وهو مبلل ربما هو السبب في وقوعي من السيارة

-أنت لطيف يا

-غيتار، يطلق عليَّ المعلم لقب غيتار أدعى نعيم

-تعيش معك الكثير من الأشياء الغريبة !

-لا أظن ذلك هذا أول فنجان قهوة بيني وبين امرأة !

شرب رشفة من الفنجان ثم استطر حديثهُ

-وألذُّ فنجان !

تبسمت ثم صمت الاثنين لم يستطع غيتار التحديق في عينيها كما فعلت هي، نشأت لديها الرغبة في استكشافه، بدا رجلاً لطيفاً،

قاطعت نجلاء صمتها، قد توجه إلى البهو حيث يجلسانِ سويةً
-أنا جاهزة يا غيتار
-دعيه يكملُ قهوته
-في مرةٍ أخرى لقد تأخرنا كثيراً معلمي لا يحب الأعذار
تخرج نجلاء قبلهُ من الشقة، رمت ميس جملة لإيضاح ما هو موضع شك لغيتار
-تعال دون أمرٍ من معلمك سأكون مسرورةً لذلك
يلتفتُ إليها مبتسماً ثمَّ يهز برأسه إيجاباً يغلق باب الشقة بعد خروجه، لم تشعر نجلاء بحدوث أي استلطاف بينهما كانت مشغولةً في تحضير نفسها، تابعتهُ ميس قد توجهت مسرعةً إلى نافذة الشقة ركب بموضع السائق ثمَّ توجه قدماً
استقرَّ أبو الهدى في مزرعة حسن مدني، كان غيتار متوجهاً إلى حيثُ هُناك .

***

انقلبت الحياة رأساً على عقب أصبح أحمد محارباً لا رحمةَ في قلبهِ كان يتحاشى الخلوة إلى نفسه كي لا يضعف أمام قلبه إنّهُ على شفا الدخول في عمليةٍ معقدة ستكون داخل المدينة
-قد عملتُ على تأمين بطاقاتٍ أمنية مزورة لكَ وللمجموعة التي ستدخل برفقتك علينا أن نقول لهم بأننا موجودون في كُلِّ مكان!!
-أنا في تمام الاستعداد

-ستتجاوزون التلال في وقت المساء لا توجد خطورة في ذلك المكان ثمَّ ستعبرون من حي تشرين الأول، لا خوفَ عليك تعرفُ تضاريس ذلك الحي جيداً ثمَّ ستنطلقون عبر الشارع العام قد تصادفكم حواجز طيارة لديكم كل ما تحتاجونه لتجاوزها فقط الّتزموا بالهدوء حين يحصل ذلك انتظروا حتّى يهبط الظلام ثمّ اشتبكوا مع الحاجز لا نريد محيهُ يا أحمد فقط القليل من الفوضى بجانب حي الضباط أريد نقل الاهتمام إلى المدينة هذا سيوفر لنا هدوءاً على الجبهة لقد قطعوا علينا مدد السلاح يا أحمد يجب أن نبقى صامدين إلى أن يصل إلينا الدعم مجدداً
قد تبادر لذهنه أن يقول: من هم؟ لم يستطع قد كان وما زال جندياً لا يسأل، فقط عليه تنفيذ الأوامر يستطرد عبد الحكيم
-عليك التحرك بعد ساعة اذهب وجهز نفسك
-حاضر
يعقد أحمد حاجبيهكان يجلس مقابلاً لعبد الحكيم رفع عبد الحكيم نظره عن خريطة المدينة الموضوعة أمامه كان أحمد قد وقف واستدار له
-أحمد
الّتفت في عزم
-أنا أعتمد عليك أيها الشاب
هزَّ رأسه بالإيجاب كان قوياً بما يكفي كي لا يقول رجلٌ صامد !

خرج ليبدأ بترتيب العمل الموكل إليه كان ياسين مع ربيع في المستشفى الميداني تعلم حمل السلاح لكنهُ فضل المهام الإنسانية كان يريد الانسحاب من حمل السلاح شيئاً فشيئاً لم يشعر بأنه المكان الذي يجب أن يكون فيه !

هنالك الكثير من الشباب المصابين إثرَ الاشتباكات ما يستطيع ربيع تقديمه هو ما تعلمهُ حتّى السنة التي ترك فيها الدراسة أما ياسين فكان يساعده كممرض في ذلك

كان يعتمدها حجةً حتى يهرب من عمل المحارب

دخل أحمد إلى المستشفى الميداني كان عبارةً عن بيتٍ مؤلفٍ من ثلاث غرف فيها أسرّة وتجهيزات أولية للطبابة والقليل من الأدوية والمسكنات

كان ربيع يطمِأنُّ على أحد الشبان قد دخلت شظيةٌ في فخده تمكن من إخراجها كان مكانها مريحاً بين اللحم كان ياسين يتابع ربيع في تغيير الجرح شارفا على الانتهاء من العمل

-أحمد ماذا تفعل هنا؟ هل أصابك مكروه ؟

-لا جئت لأودعكما

-اختارك عبد الحكيم للقيام بالمهمة ؟

-نعم

-لا وداع يا صديقي

يومي برأسه بعد أن طوّقَ ربيع بيديه الاثنتين اقترب ليعانق

ياسين بعد أن انتهى من مساعدة الشاب في العودة ليتكأ مجدداً
-أتمنى أن يكون العمل على ما يرام سأراك مجدداً يا صديقي
-بإذن الله
يدخل أحدُ المحاربين إلى المستشفى
-من يكون ياسين؟
-أنا !
-هناك شابٌ في الخارج كان يبحث عنك وجههُ غير مألوفٌ عليّ
أظن أنهُ غريب يطبطب ياسين على كتف أحمد كان يردد بأمل :
-أراكّ عندما تعود
خرج مع الشاب الذي حمل إليه الخبر أخذهُ إلى حديقةٍ صغيرةٍ
بجوار المستشفى الميداني كان منتظره منحنياً إلى شجرةِ بلوطٍ
كبيرة الجو باردٌ في الخارج
-علي ؟!
-كم اشتقت لك يا ياسين
-ماذا تفعل هنا! قل لي ارجوك ؟!
كان يصرخُ في وجههِ وهو يضمهُ إلى صدرهِ كان ياسين يخشى
حصول خطبٍ ما لأمهِ وإخوته مثل أن يعرف ماهر مكانهما
ويحاول الضغط عليه بتعذيبهم
-أهلك بخير يا ياسين ولكن . .
-أكمل أكمل

-أتى ماهر إلى بيتنا كان برفقتهِ عددٌ من عناصر والدهِ لحسنِ حظي كنت خارج البيت بحثوا عني فلم يجدوني يريد الوصول إليَّ كي يعرف مكانك ويستدرجك إليه

-وتركت كلَّ شيء ؟

-إلا حياتي يا صديقي لم أتركها هناك ليعبث بمصيرها ماهر ووالده

-هل تأذى أحدٌ من عائلتك ؟

-جميعهم بخير يريدني أنا فحسب المشكلة تتعلق بك وبمن تحملُ لهم الحب

ضم قبضة يده ووجه لكمة إلى لحاء شجرة البلوط كانت قاسيةً بما يكفي ليشعر بالألم انحنى برأسه إلى الأرض وتنهد وضع علي يدهُ على كتف صديقهُ كان يقول أنا معك حتّى لو لم نستطع تحطيم هذه الشجرة بقبضةِ أيدينا !

-أنا السبب في حدوث كُلِّ هذا لك يا ياسين أنا السبب لقد دمرت حياتي وحياتك

-هل تريد تحطيم هذه الشجرة؟! سأكون معك دون أن أتوقع النتائج !

مد علي يده ليرفع قبضة ياسين التي ما زالت مستقرةً على لحاء الشجرة قد تسببت قوة الضربة بإحداث خدوش في أصابعهِ فتح قبضة يده

-أنت لا تستطيع توجيه لكمةٍ لي حتى وإن سبقتك بواحدة لا

يهمني ما يحصل يا صديقي لقد علمت لتوي أني لا أساوي ثمن الغبار الذي تحملهُ الريح حياتي ليست ثمينة عند أحد كنت طوال عمري أبحثُ عن شخصٍ يهمهُ أمري تأكدت الآن بأن أحداً يهتم لحياتي هذا يكفي يا ياسين

ركب أحمد في إحدى السيارات الثلاث التي ستتوجهُ إلى المدينة حالاً، كان ربيع بجواره لم يهبط من السيارة كان يشعر برغبة أحمد بالحديث كان هنالك كلامٌ عصيٌّ على القول

-أنا أسمعك هل تريد قول شيء لي قبل الرحيل ؟

-أريد أن أعرف إذا سافرت عروبة إلى كندا أم لا !

-سأسأل أختي عندما تأتي لزيارتي الجمعة المقبلة

يومي برأسهِ ثمَّ يضرب على مقود السيارة بهدوء كان انفعالهُ غير منظم شعر ربيع بضيقهِ

-هل يعقل أن تسافر بهذه السهولة؟ كم أخشى أن تكون فعلت ذلك! ربيع أنا أريد فقط أن أراها بين فترةٍ وأخرى، من الصعب أن أتقبل فراقها إلى الأبد، نسيتُ كُلَّ شيءٍ من سابقي إلا الذي أريد أن أنساه!

يكفي أن يكون ربيع مصغياً كلامُ أحمدلا ردَّ لهُ يكمل قد انحنى برأسهِ إلى المقود

-لو أستطيع تفقد حال أمي وأخي تخيل سأمرُّ من حي تشرين الأول ولن أستطع رؤية أمي وأخي !

-لا يجب عليك فعل ذلك يا أحمد أنا متأكد من وجود أحدٍ ما في الحي يعمل على التجسس وإيصال الأخبار إلى الأمن علينا إبقاء أمر تواجدنا بجوار الحي سرّاً، لن يكون ذلك طويلاً لقد أخبرني عبد الحكيم بغايتهِ البعيدة سيضم حي تشرين الثاني إلى سيطرتهِ عندما تحين اللحظة المناسبة أنا أثق به

-إن شاء الله

يرفع رأسه عن المقود ثم يضعُ المفتاح في مقبس تولد الطاقة، يضرب كفه بكفِّ ربيع

-إلى اللقاء

-انتظرك في مساء الغد

ابتسم راداً عليه دارت جميع السيارات كانت السيارات الثلاث على أهبةِ الاستعداد ينتظرون إشارة التحرك من أحمد لف الشماخ حول رأسه ليتخفى لم يسمح سوى لعينيه بالظهور، انطلقت السيارات عبر التلال

فضل أحمد الولوج عبر الشارع الثاني، الشارع الذي يسكن فيه مرَّ بجانب بيتهِ محتاراً بأن ينظر إلى باب البيت الذي تربى فيه أم إلى باب بيت عروبة كان الشارع ضيقاً، لم يسمح له بالإسراع قد توقع أن تخرج عروبة أثناء مروره من هناك لم يحدث ذلك ولج إلى الشارع الرئيسي قد يواجهُ الموت في أيِّ لحظة لم يفكر بذلك ! قد هبط الظلام ركن أحمد سيارته على يمين شارع يتبع لحي

الضباط نزل من سيارته كان قد أمر العناصر بالافتراق ثمَّ الاجتماع حول الحاجز الجميع قد درس خطة الحي قبل الامتثال لهذا الفعل تبدو الأجواء داخل المدينة أكثر هدوءاً وخاصة حي الضباط قاطنوه من الجيش وأقسام الأمن أخذ أحمد مكاناً خلف جدار يطلُّ على الحاجز كان موجوداً داخل الحي هو وعناصره وعليهم بضرب الحاجز الذي يقبع في آخر الحي كان يفصل بين حي الضباط والأراضي التي قد يتسلل أحدهم عبرها رفع الجهاز اللاسلكي ليعلن البدء بالهجوم سمع صوت رصاصة واحدة لم يصدر الأوامر بعد! تلاهُ تتابع رصاص، ثمَّ كثافة

-من أطلق النار، حول لم أصدر الأمر بعد، حول

-لقد وقعنا في كمين يا أحمد !

بدأ الرصاص ينهمر فوق رأس أحمد بعد سماع ما قالهُ أحد عناصره وقع اللاسلكي من يده لقم بندقيته وبدأ بالمقاومة كشف الحاجز الذي يقع في أول الحي الزنبقِ أمرهم لم يمروا عبره قبل أن يدخلوا الحي لكن أخطأ أحد عناصره في تحركه بين شوارع حي الضباط كل ما عليه فعله التصرف بطبيعية، كان العنصر قريباً من حاجز حي الضباط كفايةً ليروه ثمَّ تراجع أرسل الحاجز الأخير إبلاغاً للأول –الزنبق- باحتمال وجود مسلحين في الحي أخذوا احتياطاتهم وتقدموا ليستكشفوا الأمر، دخلوا حي الضباط كان الأمر صحيحاً

أصيب العنصر الذي كان برفقةِ أحمد وقع على الأرض أمام أعين عناصر الأمن طلب من أحمد الرحيل فلم يأبه لكلامهِ ارتمى من خلف الجدار يحاول إعادته فأصابته إحدى الرصاصات في كتفهِ، عاد إلى خلف الجدار ليحمي نفسه رفع يدهُ عن كتفه، شاهد الدم ثمَّ عاد النظر فوجد عنصرهُ ميتاً، رفع اللاسلكي من الأرض

-هل من أحد؟ أجيبوا

لا أحد يرد لقد هدأ صوت الرصاص فتح أحمد عينيه باتساعهما، إنها النهاية رمى اللاسلكي من يده وحمل البندقية، لقد مات الجميع !

تجهز ثمَّ مرَّ مسرعاً ليقطع الشارع من أمام ناظر عناصر الأمن كان الرصاص يتحرك بين قدميه ومن خلفهِ وأمامه دخل في أحد الأزقة التي تفصل بين مبنيين، إنّهُ ملاحق دخل في شارع ثاني في نهاية الزقاقكان منتهياً بجدارٍ عالٍ الجنود من خلفهِ والجدار من أمامهِ نظر من حوله فلم يجد سوى بابٍ لأحد المباني، دخل لم يمتلك من الخيارات إلا هذا الخيار أو الموت غلبه التعب، وقف ليستريح أمام باب الشقة في طابق الأول مدّ يده مستنداً إلى الحائط قد خطرت له فكرة، غرس يده مكان الجرح ثم استقر بها على جرس الباب ومسحه بدمه، الّتفت قاصداً الدرج، صعد إلى الطابق الثاني لم يجد حلاً إلا أن يطرق باب الشقة هناك، كلّ ما يمكنه فعله أن يجبر سكان الشقة على كتم أمره إلى حين انتهاء

عناصر الأمن من التفتيش
كان متأهباً للإطلاق شعر بوصول عناصر الأمن إلى الطابق الأول فُتِحَ الباب، كان أحمد مقطب الحاجبين وقد خُضّبت سترتهُ العسكرية بالدماء كانت فتاة عشرينية وقف صامتاً نسي ألمهُ، ما تمناه تحقق !
لكن ليس في حي تشرين الأول لن يمر هذا اليوم دون أن يرى عروبة ! إنها عروبة زوجةُ حسن مدني! لم تعرفهُ كانت خائفةً فقط من الدم الذي غير لون سترته ومن الشماخ الذي يلتفُ حول وجهه وكأنهُ يخنقهُ لمع في عينيه أثرُ الألم ليست أصابتهُ فقط ما تؤلمه
-ارجعي إلى الخلف بهدوء
قالها لسانه وقلبه يتمتم بكلمات أخرى، طالما كان يحبها بقسوة!!
فعلت ما أمرها صامتة دخل وأغلق الباب بمنتهى الروية استند إليه وأغمض عينيه محاولاً استعادة نشاطه كان يشعر بالدوار. .
رجلٌ صامدٌ
طُرِقَ الباب بقسوة لن يضطر لينبه عروبة بألا تخبرهم عن مكانه بعد أن يختبئ حتّى لو لم تعرفه فهو يعرفها جيداً! دخل إلى غرفة المعيشة اعتلى المغسلة وقفز إلى السقيفة قد رمى البندقية قبل صعوده ليتمكن من رفع جسده بيدٍ واحدة، كانت اليد الأخرى عاجزةً عن الحركة تماماً

فتحت عروبة الباب
-تفتيش لا تقلقي سيدتي هناك أحد المسلحين الفارين هل رأيتِ أحداً ؟
-لا لم أرَ أحداً !
يأمرُ الضابط عناصرهُ بتفتيش البيت كانت عروبة خائفة جداً
ارتعد الجميع عندما سمعوا صوت إطارات سيارة بعد الضغط على المكابح بقوة صعد حسن مدني إلى بيته دخل
-ما الذي يحصل في بيتي أيها الضابط ؟!
-تفتيش لحفظ أمنك يا سيدي هرب أحد المسلحين من . .
-لا تكمل لا أريد أن يحفظ أحدٌ أمن بيتي أنا بأفضل حال، خذ عناصرك وارحل
-لكن يا سيدي !
-أنا المقدم حسن مدني أفهمت ؟
يؤدي التحية العسكرية لحسن
-عناصر، انسحاب
خرج الضابط مع عناصره من شقة حسن أغلق الباب، اتجهَ حسن بوجهٍ مبتسمٍ نحو كانت عروبة تقف في آخر البهو تضمُّ يديها إلى صدرها، كانت تتنفسُ بسرعة
-خائفة ؟ لا أريد أن أرى الخوف على وجهكِ وأنا بقربكِ يا عروبة
تومي برأسها ثمَّ تحاول مشاركتهُ الحديث

-كان صوت الرصاص مخيفاً ثمَّ طرقوا الباب بقوة أنا وحدي في هذا المنزل لا أعرف ماذا كان سيحصل إن لم تحضر !
أمسكَ بيدها إنهُ الوجهُ الحنون
-أنا دائماً بقربكِ أهذا يكفي، لن يستطيع أحدهم إخافتكِ
تسحبُ يدها من بين يديه بهدوء ثمَّ تغير جهة نظرها بعيداً عن عينيه عاد خطوةً للخلف ثمّ منح نفسهُ طاقة في الحديث
-سأذهب لآخذ حماماً قصيراً يا عزيزتي ثمَّ سأعود لأقضي اليوم برفقتكِ أنتِ تساوين الكثير عندي
-حسناً
حملت منشفة إليه قد دخل ليستحم دخلت المطبخ بسرعة كانت تعرف المكان الذي اختبئ به أحمد مدَّ رأسهُ بعد أن تنحنحت تمتمت من غير صوت وهي تؤشر بيدها نحو الأسفل
-المكان آمن انزل
قد أحدث بقعة من الدم أثناء انتظاره حالتهُ الصحية تزداد سوءاً هبط ببطءٍ شديد من السقيفة ثمَّ حملَ بندقيته بيده السليمة كانت عروبة تحافظ على مسافة بينها وبينهُ يُنزع زرُّ السترة العلوي وهو يحاول السيطرة على البندقية بيدٍ واحدة لقد شاهدت القلادة !
-انتظرتكَ في ألطفِ الأوقات ولم تأتِ لم أتيتَ في أصعبها ؟
كانت العيون تتكلم فقط، ماذا لو لم يكن أحمد ربما أحدهم

يحمل نفس القلادة لا هذه الصدف لا تحدث لا تحدثُ بهذا الترتيب إنهُ أحمد، أصبحا في أول البهو وقف أمام باب الشقة كانت صحتهُ سيئةً جداً أصبح يتصبب عرقاً شعر بنظرتها الفضولية حبذا لو يستطيع قول شيء

- ما من مكان أو زمان التقينا فيه وكان مناسباً يا عروبة

كان ألم قلبه طاغي الأثر في عينية أكثر من ألم جرحه، قد رد الكلام و لكن بعينيه فقط

رفع يده المصابة ليضغط على مقبس الباب قد قرر الرحيل كان يحمل بندقيته في يده السليمة لن تنتظر عروبة الوقت حتى يأكل تفكيرها بين أنهُ أحمد وأنهُ ليس هو فتحت كفَّ يدها اليمنى وبسرعة خاطفةٍ مسحت على وجهه كمان كان يفعل معها في أيام الطفولة ارتخى الشماخ! إنهُ أحمد كانت سعيدةً بكلِّ ما يحملهُ لقائهما من ضعف وتعاسة

-أحمد !!!

-اششش

لم تقف أمام ما يحدث كما وقفت دائماً رفضت الاستسلام للأمر الواقع لم تعد تكترث لما سيحدث، إن وافقت لهُ أو قالت لا بوجههِ هرعت مسرعةً وأمسكت قطعة ورق كتبت عليها نمرةَ هاتفها النقال و وضعتها في جيب سترتهِ هزّت برأسها بعينين حالمتين كأنها تقول له: كلمني يا أحمد أريد الاطمئنان عليك.

قد وفى بعهده في الرسالة الخامسة طلبت منه ارتداء القلادة إلى الوقت الذي لا يستطيع رؤيتها فيه حتى تموت كانت وسيلة في التعرفِ عليه قد تتغير الحياة كثيراً عليها إلا هذه الأشياء التي لا تغيرها الحرب ولا قهر البعد بينهما، أعاد الشماخ ليختفي مجدداً فتح الباب وخرج بهدوء كان الشارع خالياً من أحدهم عاد عبر الزقاق مجدداً لا يعرف شوارع حي الضباط درسهُ على الخريطة فقط فقرر العودة إلى حيث كانت سيارتهُ ربما لن يتعرف أحدهم عليها كانت مركونةً بين سيارات الضباط وتأخذ نفس الشكل وبنمرةٍ عسكرية مزورة لحُسنِ حظهِ قد أصبح الجيش في آخر الحي اقترب من الحاجز الأخير وهو يقوم بعملية تفتيش، وقف أحمد بجانب الحائط نظر متلصصاً إلى الشارع هنالك بقعة دم على الأرض إثر موت صديقهِ -قد نقلوه- لم يرهُ أحد، قطع الشارع بسرعة بدأت أنفاسهُ تصعب، شعر بقلبه وهو يدق بسرعة هائلة وصل إلى سيارته كان الشارع هادئاً انطلق بها مُسرعاً لن يضع احتمال وجود حاجز في أول الحي لتفتيش المارة بعد الذي حصل كان بينهُ وبين الحياة طريقين أما أن ينزف حتى يموت أو أن يتوقع ذلك أشعلَ الأضواء الكشافة وانطلق بسرعة كل شيء يؤشر بأنهُ أحد المسلحين وصل إلى الشارع بسلام كان يسير بسرعةٍ هائلة أتاه الدوار مجدداً كان بحاجةٍ لشيءٍ ليحافظ على ما بقي من نشاطه وجد قداحة في دُرج السيارة أشعلها وسلطها إلى كفِ يدهِ

كان يريد الوصول إلى حي الكحل الأسود بأيِّ طريقة تألم من كل جانب صرخ فيما كانت أنفاسهُ تتلاحق في تصعيد ولج إلى التلال عليه أن يخفض سرعة السيارة، الأرض متعرجة لم يكن هنالك طريق فعلية للمرور من بين التلال، يسير بهدوء حتى لا يصطدم بشيء في هذا الليل أو أن تنقلب السيارة
وصل، استقرت السيارة أمام المستشفى الميداني صرخَ صوتاً واحداً
-ربيع
فتح باب السائق وهبط كتلةً واحدة إلى الأرض، قد أغمي عليه ما كان صوتهُ مسموعاً قد صرخ باسم ربيع داخل السيارة والنوافذ الزجاجية مغلقة، انتبه لسقوطه رجل خمسيني كان يساعد ربيع وياسين في عمل المستشفى الميداني هرع إليه باب السائق في الجانب الآخر من السيارة فلم يتسنى له سوى سماع صوت وقوعه وضع يدهُ فوق قلبهِ، ما زال حيّاً صرخ كان يطلب الدكتور ربيع للنجدة
-دكتور ربيع دكتور ربيع
اجتمع حوله ثلاث شباب
-فليذهب أحدكم ويخبر الدكتور ربيع بالقدوم حالاً
انطلق أحدهم وعاد مع ربيع في الحال نظر ربيع إلى صديقه لم يعرفهُ في البداية كان وجههُ قاتماً رثَّ الثياب وشحيح الجسد، كان الدم قد لطخ سترته

-يا الهي أحمد !!
وضع السماعة الطبية ليتفحص نبضات قلبه أجابهُ الرجل الخمسيني يدعى أبو زهرة
-ما زال حياً
-يا شباب ادخلوه إلى المستشفى، احملوه بسرعة
من هول الصدمة أن جميع الأسرّة في المستشفى عليها جرحى نبههُ أبو زهرة لذلك
-لا يوجد سرير خالٍ يا دكتور
ارتبكَ ربيع لأول مرة يرى أحمد على هذه الحال، أكمل أبو زهرة، كان ينوي لأمرٍ ما
-بيتي في الجوار، سنحملهُ إلى هناك
يومي ربيع برأسه ثمَّ يُحدث الشباب
-يا شباب ساعدوا أبو زهرة في حمل أحمد إلى بيته
ثمَّ يوجهُ الحديث إلى أبي زهرة فقط
-سأعمل على إيجاد ما يمكنني لنجاته يحتاج لدم سأوافيك في الحال
طلب ربيع من الشبان الذي يحملون نفس زمرة دم أحمد بالتبرع حالاً ثمَّ أخذ الأدوات الطبية المتوفرة للجراحة كان ياسين برفقتهِ خلعوا عنه سترته شق الجرح دون تخدير كان أحمد غارقاً في نومٍ عميق أخرج ربيع الرصاصة وخيط الجرح لم تؤذي عظم كتف

أحمد، قام ربيع بتوصيل كيسٍ من الدم إلى وريده، لقد عادَ النبض طبيعياً، ضمدَ لهُ جرحهُ قد نال منهُ التعب والقلق هو أيضاً

-سيكون بخير يحتاج إلى الراحة هيا يا ياسين

استدار ربيع ليقدم الشكر لأبي زهرة وضع ربيع يدهُ على كتفهُ

-لقد أنقذت حياتهُ

كان أبو زهرة ذو شارب أبيض كبير ولحية شائبةٍ تماماً، يظهر نقاء قلبهِ عندما يبتسم طبطب على يد ربيع مبتسماً

-هذا واجبي يا دكتور

-سأعود في الصباح لأطمئن عليه إذا حصل شيء سيء لا سمح الله أخبرني بسرعة

-حاضر

يخرج ياسين ثمَّ يتبعهُ ربيع، أطفأ أبو زهرة النور ليمنح أحمد جوّاً مناسباً للراحة وبقي مع ربيع وياسين حتى خروجهما من المنزل

قاربت بقالية أبي ممدوح على الإفلاس قد نهبها حسن مدني لا يمتلك المال الكافي لشراء بضاعة جديدة كلما طلب أحد الزبائن حاجةً، اعتذر عن وجودها تأخر الوقت قام من خلف طاولته القديمة وهمَّ ليغلق البقالية

-اوو الحمد الله على كُلِّ حال

تذكر صديقه أبا الوفا لو كان برفقتهِ الآن لكان أفضل حالاً، أغلق الجرار ثمَّ صوب قصدهُ نحو الشارع الأول بيتهُ أول بيت منه كان يسمع نحيب امرأة يزداد الصوت وضوحاً كلما اقترب من بيته، كانت امرأة رثّة الثياب تبدو إحدى النازحات من مناطق الحرب اقترب منها مشفقاً كانت جالسةً على طرف الشارع قبل بيته بعدةِ فراسخ

-السلامُ عليكِ

-وعليكَ السلام

-أليس لكِ أحدٌ يا أختي ؟

-لو كان لي أحدٌ ما كنت جلست في الشارع

-لا حول ولا قوة إلا بالله تعالي معي ستعتني بكِ زوجتي نسكن وحدنا في المنزل يتسعُ لشخصٍ آخر

-لا أريد شكراً لك

-لا تخافي لن أتركك على هذه الحال هذا بيتي هل يعقل أن أترك امرأةً تنام في الشارع

ويشير بإصبع السباب إلى باب بيته

تقفُ بتعبٍ بالغ قالت بغصة :

-ما زال الخيرُ موجوداً في هذه البلاد

-ولن يزول

دخلا إلى البيت، استعجل بنداء زوجتهِ طلب منها إطعامها

وتجهيز غرفة ابنه ممدوح لترتاح فيها كانت أم ممدوح لطيفة المعاملة دائماً أحسنت ضيافتها أخذ أبو ممدوح مكاناً في غرفتهِ استغل فرصة انشغال زوجته بالضيفة ليبكي قد يرتاح بعد ذلك لا يريد أن يراه أحدٌ في أقسى لحظات ضعفه كانت البلاد تبكي داخله وليس هو !!

أدخلت أم ممدوح الضيفة إلى غرفة ممدوح

-هذه غرفة ابني ممدوح يشرفني أن تقيمي فيها

-لا أعرف كيف أشكركم أنتم عائلة لطيفة

تبسمت ثمَّ التفتت حيث الباب

-نالي قسطاً من الراحة

خرجت أم ممدوح وأحكمت إغلاق الباب خلفها استلقت الضيفة في الفراش كانت تتوق لقليل من السكينة والنوم كان بجوار السرير خزانة صغيرة وضِعَت عليها صورة ممدوح وقعت عينيها على الصورة وهي تحاول إغماض عينها لتنام نهضت بفزع

-لا . . لا يعقل !

أخذت الصورة وخرجت من الغرفة بسرعة كان أبو ممدوح برفقة زوجته في البهو كانا يحتسيان قهوة آخر الليل رددت متلئكة وهي تشير إلى الصورة التي بين يديها

-هذا هذا ولدكما ؟؟

-نعم إنهُ طفلي ممدوح أرجوكِ لا تقولي أن مكروهاً أصابهُ !

-ما رأيتهُ منذ أن قام باعتقال أولادي !!
وقف أبو ممدوح مستغرباً كان يتابع زوجتهُ والضيفة في حديثهما
-ماذا تقولين؟؟ أنا لم أفهم !!
-سأقول لك أنا من سكان مباني القوس في حلب هناك يقضي ابنك خدمتهُ الإلزامية وفي أحد الأيام دخل إلى منزلي سرق مالاً خبئتهُ حاول ولدي رامز دفعهُ فتهجم عليهِ ثمَّ اعتقل أولادي الثلاثة
ردت أم ممدوح بصوتٍ عالٍ
-أنتِ كاذبة ولدي لا يفعل أمراً سيئاً
-أقسم بأنهُ فعل ذلك كيف لي أن أعرف مكان خدمتهِ في الجيش؟!
صُدمَ أبو ممدوح كان الكلام قاسياً جداً على قلبهِ اللين
-أكملي ماذا فعل بعد ذلك ؟
-لقد نهب البيت أمام عيني
رفعت سبابتها إلى التلفاز
-هذا التلفاز من منزلي
اقتربت أم ممدوح منها دفعتها إلى الخلف وقعت أم رامز على الأرض
-لا أريد أن أندم على ضيافتك أيتها اللعينة هذا التلفاز أرسلهُ ولدي من راتبهِ الشهري ممدوح لا يكذب
وقعت أم رامز مجدداً لم يعلو صوتها أطلقت تنهيدة قصيرة
-عندما تأزمت الأمور في الحي خرجت بعض العائلات وبعضٌ

آخر لم تستطع الخروج عائلتي بينهم كنتُ أملكُ العديد من قطع الذهب اسوارتين مبرومتين كُلُّ واحدةٍ بوزن خمسين غراماً وخاتم بوزن عشر غرامات وطوقٌ على شكل حبات العنب بوزن مئة غرام عندما اشتد القتال على الجبهة بين الجيش والمسلحين قام ولدي بفك غطاء التلفاز وضعتُ الذهب في كيسٍ صغير و أحكمت وضعهُ داخل التلفاز، إذا كنت كاذبة وأريد اتهام ولدك لن يكون ما قلته صحيحاً

-لا يعقل يا أبا ممدوح، ولدي لا يفعل ذلك لا يفعل ذلك

فتح أبو ممدوح التلفاز، وجد كيس الذهب بداخلهُ وكما شرحت أم رامز تماماً

انهارت أم ممدوح جلست على الأريكة باكية مذهولة، تمتمت لنفسها

-هذا يعني أن ممدوح يقوم بالكثير من الأعمال السيئة وإيذاء الناس

-لقد حرمني من أولادي الثلاثة

ابتعد أبو ممدوح عنها رفع هاتفهُ النقال كان ممدوح في فترةِ حراستهِ

-مساء الخير يا بني

-مساء الخير أبي، تتصل في وقت متأخر !

-نعم أمك حزينة جداً لفقدها وجودك في البيت، أردتُ إعلامك

إذا كنت تستطيع أخذ إجازة
-في القرب العاجل يا أبي لقد اشتقت لكما كثيراً
-ونحنُ أيضاً، انتبه لنفسك، مع السلامة
أغلق الهاتف ما الذي دفعهُ لفعل كلّ ذلك كان يكذب عليَّ طوال الوقت لفترةٍ ما كنت أظنُّ بأني خلّفتُ رجلاً، ماذا لو كنتِ مكان هذه الأم يا أم ممدوح !! يقول فقط :
-آآآه
فجأةً يفقد الإنسان كُلَّ شيء يصبح وحيداً في عراك الحياة، غمر وجههُ بيديه ثمَّ مررهما ليمشطا شعره كان واقعاً بين أمرين شعوره بالخيبة بعد تربية ممدوح على الأخلاق الحسنة وبالتالي إعادة الدين إلى أم رامز من ولدهِ، وبين أنه ولده !

***

فتح عينيه الرؤيا غير واضحة شعر بالتعب الشديد إذا ما أراد تحريك كُلَّ عضوٍ من جسده تلفت إلى جانبي السرير كان يسأل نفسه: أين أنا ؟
سمع صوت حركةِ مقبض الباب دخلت فتاة عشرينية ترتدي بنطالاً وكنزة صوفٍ شتوية كان شعرها حُرَّ الحركة على كتفيها إنها زهرة أشاح بوجههِ بعيداً شعر بالتطفل على أهل البيت لم تكترث تابعت المشي لتصل إلى جانب السرير
-صباح الخير، آه، لا تكترث، أنا أرتدي هذه الثياب في الخارج أيضاً

استدار ليقابلها كانت باسمة الوجه قد ضمت أصابعها بتشابك وهي تتكلم ردَّ أحمد بابتسامةٍ متعبة

-صباح الخير

-كيف حالكَ الآن أيها الوسيم ؟

-لم أعد وسيماً بعد الحادث

-بلى ما زلت يكفي أنكَ تستولي على غرفتي

ضحك ببطء كان كتفهُ يؤلمهُ جلست على طرف السرير انحنى شعرها الأملس الطويل حتّى لامس يد أحمد المصابة

-الجميع يتحدث في الخارج عن نجاة الشاب الذي يدعى أحمد، لقد نجوتَ بأعجوبة ! كان القدر حليفك

هزَّ برأسه قد تذكر أصدقاء الأمس

-كانت ليلة مُتعبة جداً، ولكن أين أنا ؟

ضحكت أخذت فترة صمت مدت يدها إلى الخزانة الصغيرة الموجودة بجوار السرير أخرجت من دُرج الخزانة علبة سجائر وقداحة أشعلت واحدة

-منعتني من التدخين لليلةٍ كاملة يا أحمد

كان يقرأ غلاف أحد الأوراق المخروزة ببعضها بصوتٍ مسموع لزهرة

-جامعة حماه كلية التربية السنة الثالثة هل تدرسين التربية في مدينة حماه ؟

-نعم لكن توقفتُ عن الذهاب قبل شهر الأحداث في الحي منعت أيَّ أحدٍ من الخروج، سأذهبُ لأعِدَ لكَ شيئاً لتأكلهُ أعتقدُ أنكَ لا تحتاج للمدخنين بجانبك

وقفت متجهةً للباب كانت حافية القدمين في شهر كانون الأول أقسى شهور الشتاء عاودت النظر إليه

-بالمناسبة ادعى زهرة وأنت الآن في بيت بجوارِ المستشفى الميداني يجب أن أذهب الآن سيأتي بعد قليل أبي والدكتور ربيع ليطمئنوا عليك وقد أوصوني بإطعامك أيها الوسيم

خرجت من الغرفة شعر أحمد بكمٍّ اللطف الذي أظهرتهُ زهرة كانت غريبة الأطوار أيضاً إنها حقاً جميلة عيناها اللوزيتان كانتا تزيدان لباقتها وبساطتها في اختيار الملابس جمالاً، كانت بيضاء البشرة وسوداء العيون كعتمة الليل في يومٍ فقد فيه القمر

عادت حاملةً بين يديها بعض اللبن والخبز والشاي، وضعت الطعام فوق الخزانة الصغيرة شرعت لمساعدة أحمد كان يريد رفع جسده ليستطيع تناول الطعام

-أستطيع لا تُتعبي نفسكِ

-الرجال جميعهم لا يدعون الألم دعني أساعدك لن أخبر أحداً بذلك !

ضحك فيما كان يشعر بالألم وضعت يدها خلف ظهره وأمسكت بيده السليمة استطاعت مساعدتهُ في ذلك بعد أن كان يواجه

مصاعب الألم إثرَ تحريك كتفهِ كانت زهرة تمتلك حس دعابةٍ في أصعب الأوقات مد يده، يريد تناول الطعام بنفسهِ وضعت يدها فوق يدهِ ثمَّ نظرت إليه بعينين ضاحكتين قبل مبسمها

-قلتُ لكَ لن أخبر أحداً بذلك !

-حسناً

بدأت تطعمهُ بيدها ملأت له كوباً من الشاي ولنفسها أيضاً

-أعرف أنكَ ستقدم الشكر ولكن لا تستطيع لأن فمك ممتلئٌ بالطعام

دفع اللقمة إلى معدته وتكلم بسرعةٍ كبيرة

-وليس لديكِ مجالٌ لتقبل الشكر ؟!

-ليس في كل الأوقات

تقف لحظةً، كانت ترتبُ حديثها

-نعم لقد ربتني خالتي منذ ولادتي ماتت أمي إثرَ ذلك لم أفكر بشكرها في أيِّ مناسبة بعض الأحيان لا يجب أن نقبل شكر أحدهم يكون ذلك واجبنا تجاههم

دُفِعَ الباب دخلت رنيم أختُ زهرة من أم ثانية كانت تحملُ بين يديها لعبة قطنية تحدثت بعتاب

-لما لم تملئي لي قدر الماء أريد أن اسقي وردتي

-أووه لقد نسيت

-حالاً أتركي الغريب وتعالي معي

مدَّ أحمد رأسهُ ليراها كانت تشبهُ زهرة كثيراً لكنها ذات شعرٍ أشقر كثيفٍ مموج كانت عبوسة
-هل يجب علي الرحيل يا عزيزتي ؟
طأطأت رأسها في خجل ثمَّ أجابت بالخروج من الغرفة
-سأصاب بالجنون يوماً ما من هذه الفتاة تعتني بوردتها أكثر من اعتنائها بنفسها
-أختكِ ؟
-نعم من أمٍّ ثانية كانت امرأة متطفلة طلقها أبي منذ سنة سأعود إليك حالاً
-لقد شبعت دون شكر
حملت الطعام بين يديها كان أحمد يسترق النظرات إليها قد توددت لهُ بسرعةٍ كبيرة ملأت قدر الماء وأعطتهُ لرنيم لتسقي زهرتها ثمَّ طرق باب البيتكان ربيع وأبو زهرة دخلوا إليه كان ربيع متلهفاً لمعرفة حال أحمد دخل مُسرعاً إليه
-كيف حالك ؟!
-بأفضلِ حالٍ يا ربيع
-لن أصدقكَ حتّى ألقي نظرةً على جُرحكَ، إنهُ بأفضلِ حالٍ تحتاج إلى الراحة فقط
-هل عاد أحد الشبان بعدي ؟
-لا لقد ماتوا جميعاً في حي الضباط أرجوك لا تتكلم في هذا

الشأن الآن يا أحمد
يأخذ فترةً من الصمت ثم يومي برأسهُ بالموافقة ينحني ربيع ليقبل رأسهُ
-سأذهب الآن إلى المستشفى، لا يمكن وضع المهمة على كاهلِ أحدٍ غيري سآتي إليك في وقت الظهيرة
-مع السلامة
رحل، اقترب منهُ أبو زهرة قد عرفا بعضهما قبل هذه المرة لكن هذه المرة الأولى التي دخل فيها بيته الأمر الذي دفع أبو زهرة لاستقباله هو حُسنُ ولطف أحمد معهُ كان لطيفاً دائماً
-عبد الحكيم يدفعكم إلى الموت
أخذَ أحمد فترة للتفكير وهو يسحب نفسهُ بهدوء ليعود مستلقياً
-كُلّ طرق العمل الذي نقوم به تؤدي إلى الموت
-ألم تفكر مرة بقتلك لأحدهم إذا كان مجرماً أو مظلوماً مثلك ؟!
-كُلَّ ما أعرفهُ أنني يجب أن أصل إلى من ذلني بأيِّ وسيلةٍ
-ليست حجةً لتضع الجميع تحت النار يا ولدي، اسمع، أنت صاحبُ قلبٍ أبيض لا أعتقد أنك تفكر بهذه الطريقة أتذكر يوم هجومكم على حاجز الحي، قد نلتم من القناص الذي قتل الطفل، كنتم مخدوعين يا أحمد !
-كيف ؟!
-في نفسِ يومِ حادثةِ قتل الطفل كنت على الحاجز كنت عائداً

من المدينة وأوقفنا شابان ورجل خمسيني، إنهُ القناص طلب بكلِّ لطفٍ بطاقاتنا الشخصية لم يعترض لأحد وأثناء تمحيصه إياها سمعنا صوت إطلاق رصاصة كانت رصاصة قناصة الرجل كان بجواري يا أحمد كيف يمكن لهُ أن يفعل ذلك ؟!

-ماذا ؟؟

-وصلتُ إلى الحي كانت الفوضى عارمة من أجل الطفل، في اليوم التالي جمعكم عبد الحكيم وألقى خطاباً، من أجل ضرب حاجز الحي كان يريد تقديم حجةٍ مقنعةٍ لتقفوا بجانبه قلباً وقالباً في كُلِّ شيء حتّى بعد ضرب الحاجز والاستيلاء عليه !

-أتعني أن عبد الحكيم هو من قتل الطفل ؟

-نعم ونجح في خداع الجميع، لم أستطع القول لأي أحد يا أحمد سوف يقتلني إذا تكلمت بشيء و يدعي لكم بأني أحدهم قد صدقتموه في البداية ولن تمانعوا في تصديقه إن كذب في أمري مهما كنتُ صادقاً ! كنت مكتفياً بالصمت والألم

– مال برأسهِ إلى الطرف الآخر هو من قتل أبا الوفا – القناص

قد تسخرُ منا الحياة أحياناً، نمشي خلف أهوائنا بإرادتها معتقدين بأننا ندير أمورنا بإرادتنا الشخصية، لم يكن صائباً في تفسير كلام أبي الوفا يوماً ما لقد أقسم بأنهُ لم يقتل أحداً ولم يصدقهُ المجرمون لا يشعرون بالذنب، كان قلبهُ مفطوراً في تلك اللحظة!!

كان أبو الفهد في اجتماع مع ضباطٍ آخرين من القسم كان الجميع مصغين لما يطرحهُ أبو الفهد

-وصلتنا الأخبار من الجيش الذي يحاصر حي الكحل الأسود أنهُ يصعبُ عليه الاقتحام لعدةِ أسباب وهي عدم معرفة المعلومات الكاملة عن المسلحين: عددهم تحركاتهم أسماؤهم والعتاد الذي بحوزتهم لن نسمح للجيش بخسارة المزيد من الأرواح هل لدى أحدكم خطة ؟

أكمل الجميع صمتهم فأكمل أبو الفهد حديثه

-أنا لدي لكن أحتاج لمساعدة الجميع حسب المعلومات التي وصلتني، المسلحون يمتلكون العتاد والأسلحة وعددهم وفير كما أنهم يعرفون تضاريس الحي وما حولهُ بدقة لكن لديهم نقص كبير في الكادر الطبي يجب علينا أن ندخل من هذا الباب ستعملون على التعاقد مع عددٍ من الطلاب الذين لا يزالوا في دراستهم الجامعية لا نريد أطباء متخرجين قد يكشف أمرنا بسهولة الحركة شبابية بامتياز، ستعملون على إدخالهم إلى الحي بحجة المساعدة لا أريد أخطاءً في هذا العمل يجب أن نعرف كل شيءٍ عنهم حتى الآن لا نعرف قائدهم ومن هم الأفراد ونحن في موقع الأمن، بالتأكيد لا نريد استمرار ذلكن ابدؤوا العمل من الآن انتهى الاجتماع

يحمل كلُّ الضباط أوراقهم ويمتثلون للخروج من المكتب واحداً

تلو الآخر، أصبح أبو الفهد وحيداً في المكتب، تمتم لنفسه
-الآن يمكنني التفرغ لكَ يا عبادة ستكون بخيرٍ يا ولدي
يرفع هاتفهُ النقال منذ زمنٍ بعيد لم يتصل بحسن مدني
-صباح الخير سيادة المقدم
-أبو الفهد، أهلاً بكَ
-أعتقد أني أثرثُ دهشتك بهاتفي هذا!
-بعض الشيء، لا صداقة بيننا
-لا أريد إطالةَ الحديث اتصلتُ لأهنئك مبارك ما أتاك!
-لم أفهم !
-نعم لن تفهم لأنكَ لا تعلم بأن لديك ولد!
يضحك حسن بقوة كان صوتهُ عالياً جداً
-يا رجل أتتصل بي وبيننا ما بيننا من العداوة لتخبرني بأمر سخيف كهذا يبدو أنك مخطئ أنا ليس لدي أولاد غير ابنتاي
-لديك ولكن لا تعلم مهيتاب خرجت من بيتك حامل يا سيادة المقدم أقصد عندما طردتها
تغيرت معالمه بمنتهى السرعة انتقل بسرعةٍ كبيرة من قمة السعادة إلى قمة الذهول
-وإذا كان كلامك غير صحيح ؟!
-إنها تحت حمايتي منذ ذلك الوقت أصبح أبنكَ يافعاً
لم يعرف حسن أن يُسر لذلك أم يجب عليه أن يحزن، يرص أسنانهُ

-ماذا تريد يا أبا الفهد؟
-ابني عبادة عالق في حلب انشق قبل فترةٍ لا اعتقد أن الخبر فاتك أريد منك مساعدتهُ للوصول إلى تركيا أعرف أن علاقاتك كبيرة جداً وتستطيع فعل هذا الأمر بسهولة وبالمناسبة لا تحاول البحث عن زوجتك السابقة وابنك لن تجدهما على أيةِ حال
-كُن عدواً بشرف
-وما زلت لن أؤذي أحدهما إذا فعلت شيئاً لحماية ابني عبادة وبالطبع ابنك عمر!
-سأعمل على إيصاله ولكن إياكَ وإيذاء ولدي يا أبا الفهد
-حميتهما خمسة عشر عاماً كنتَ مشغولاً في جني المال وعقد الصفقات لن أتقعس عن ذلك الآن أخبرني عندما تنجز عملك
يغلقُ حسن المكالمة هذا شيءٌ لا يصدق كيفَ حدثَ الأمر، طوال تلك المدة لم يجرب البحث عن مهيتاب أبقاها خارج حياتهِ فجأةً يعلم أن ولدهُ أصبح يافعاً وتحت التهديد كان غارقاً في تفكيره قد أرسل في طلب أبي الهدى قبل قليل، وهو في مكتبهِ الآن، سمع أبو الهدى المكالمة التي دارت بين المقدمين
-لن يستطيع أذية ابنك يا سيدي
صرخ حسن في وجهه
-وكيف كيف لي أن أعرف إذا نفذتُ طلباتهُ ألا يؤذي ابني سيستعملهُ طُعماً لنزواته في كلِّ مرة يحتاجني

-لا لن يستطيع
يخرج أبو الهدى من جيب بنطالهِ قرصاً قابلاً للنقل يضعهُ على الطاولة أمام حسن
-هنالك فيديو يجب أن تشاهده إنهُ كفيلٌ بإنهاء أبي الفهد إذا آذى ولدك، وبجانب الأوراق التي تملكها ضده سيصبح مطارداً برفقةِ ولده!
إنهُ القرص القابل للنقل لقد أخفاه أبو الهدى عن حسن عندما داهم البيت الذي تمركز فيه مع الفرقة الموسيقية بعد خروجه من السجن بيومٍ واحدٍ
شاهد حسن الفيديو شكر أبا الهدى ومنحهُ حرية التصرف بمئة كيلوغرام من مخدرات الشاحنة، عادةً ما تصب الأموال كلها في جيب حسن كان أبو الهدى يبيعها لتجار المخدرات
أمن حسن طريقاً لتمرير عُبادة إلى تركيا سيدفع لعدد من الضباط المال لتمرير عبادة عبرهم بسلام ثمَّ بعد ذلك يصبح الطريق مفتوحاً حتى الحدود التركية
عاود الاتصال بأبي الفهد أخبرهُ بإمكانية وصول ابنه إلى تركيا خلال الأسابيع الثلاثة القادمة طلب عنوان بيت مهيتاب رفض أبو الفهد ذلك قبل شعوره بالأمان لحال ولده عبادة، لأول مرة يكون حسن الحلقة الأضعف !
-سيدي

-نعم يا أبا الهدى
-أنا لا أريد بيع المخدرات لحسابي الشخصي كنت أتساءل ألا أستحق أن أطلب منك طلباً بعد كل هذا الوفاء؟
-ماذا تريد أيضاً؟
-أريد كمال، أريد أن أعذبهُ بيديّ هاتين
-الآن هو في إجازة يمكنك أخذهُ من بيته! تحرك من وجهي
لم يعد كمال ذا فائدةٍ له منذ اتكأ على جنب أبي الهدى، قدم التحية لحسن ثمّ خرج كان تخلي حسن عن خدمة كمال يعادل عشر شاحنات من المخدرات بالنسبة لأبي الهدى
خرج أبو الهدى كان يخطط في العودة إلى المزرعة ثمَّ حشد الفرقة الموسيقية والذهاب لجلب كمال اختلطت أفكار حسن كم فاتهُ من مراحل قد كبر فيها ولده كان يجب عليه أن يكون بجانبه
-هذه اللعينة حتى عندما طردتها من البيت لم أحرمها من كل شيء لقد أخفت هذا الخبر عني طول الوقت
أشغلَ لفافةَ تبغ فكر في تحري الأمر عاود للعدول عنه عندما تذكر الشروط التي فرضها أبو الفهد عليه كان يمتلك الوسائل التي تمكنهُ من القضاء على أبي الفهد لكنهُ لا يريد خسارة ابنهِ كرهينةِ عداوة طالما كان يحلم بوجود خليفة لهُ!

***

-لم يتعافَ جرحك بالكامل

ساعدت زهرة أحمد في ارتداء كنزةٍ صوفية ثمَّ ارتدى سترةً سميكة
-لا بأس سأكون بخير أصبحت أستطيع فعل الكثير من الأشياء
وصل إلى الباب كان يود الرحيل شبكت زهرة أصابعها كانت تقف خلفه
-ألن تعود لزيارتنا؟
يلتفتُ إليها
-بالتأكيد كم أتمنى أن ترتدي حذاءً في قدميكِ في هذا البرد القارص
استدار ليتجه للباب مجدداً استطاع رؤية الوردة التي تملكها رنيم كانت تلعب بجانبها
-تعال يا أحمد شاهد وردتي
-إنها جميلةٌ مثلكِ حافظي عليها يا رنيم
هزّت برأسها بالإيجاب، خرج راقبتهُ زهرة حتّى ابتعد قد تعودت أن تقضي اليوم بأكمله برفقته، أصبح بيت أسرارها هي السبب في امتثاله للشفاء بسرعة كانت توفر له عناية تعادل خدمات الفنادق الفاخرة تعلّمَ كثيراً من الأشياء منها كانت تشاركهُ تفاصيل حياتها بدقة قد قضى فترة نقاهتهُ في غرفتها
اتجه أحمد نحو المستشفى الميداني كان بصحةٍ جيدة يستطيع حمل السلاح في يده المصابةهذا ما كان يفكر به !
شاهد ربيع يتهامس مع أختهُ سعاد على باب المستشفى كان ربيع مندهشاً لحدوث أمرٍ ما اقترب من ربيع ابتعدت سعاد

عنهما قد كفا عن الحديث عند رؤيته يقترب
-هل هالك أخبار سيئة يا ربيع ؟
-لا، لاشيء
-ليس صحيحاً قلي لي ماذا هناك ؟
-عندما تتعافى سأخبرك بكلِّ شيء
يرفع أحمد سلاحهُ في السماء ويرمي عدة رصاصات بيده المصابة يحدث ربيع بلهجةٍ حازمة
-أنا بخير قل لي ما يجب عليك قوله!
-لقد توفيت والدتك أخبرتني سعاد أن حسن مدني جاء لتفتيش المنزل كان يريدك قد دفع كرسيها ووقعت على الأرض نقلوها إلى المستشفى وتوفيت هناك لم تصمد طويلاً!
يبتعد عن ربيع ثمَّ يعود إليه مجدداً، كانت عيناه تنفجران حقداً
-أقسم بالله أنني سأشعرهُ بأقصى الألم
يطلق زفيراً طويلاً، ثم يحدثُ ربيع بكلمات مرتجفة
وأخي يا ربيع أين أخي؟
-في ملجأ الأيتام
تسقطُ قذيفةٌ بجوار المستشفى الميداني إنهُ المقدم يحيى قد حضّرَ لعملية ضخمة لدخول حي الكحل الأسود وبدء بتنفيذها، صرخ أحمد، كان ينبه الجميع
-اختبئوا جميعاً لا تبقوا في الشوارع

أُمطر الحي بالقذائف بدأ عبد الحكيم بتعبئة الجنود للجبهة أمرهم برفع حدة المواجهات للضغطِ على الجيش كي يوقِف أطلاق القذائف، عاد أحمد مسرعاً إلى بيت أبي زهرة بدأ أهل الحي بالنزوح إلى منطقة التلال كانت أكثر أماناً من بيوتهم طرق الباب فتحت زهرة كانت رنيم مرعوبة

-هيا علينا الرحيل ابقوا بجواري

حملت زهرة أختها رنيم والتصقت بظهر أحمد أوصلهما إلى منطقة آمنة بين الناس الفارين إلى التلال كلمهُ عبد الحكيم عبر اللاسلكي أمرهُ بالبقاءِ برفقة الناس لحمايتهم كما أنهُ ليس بحالةٍ جيدة كي يتقاتل، هذه المرة الأولى التي يقصف بها الجيش حي الكحل الأسود، هدأ حال رنيم قليلاً، ارتكت على قدم أحمد وغرقت في النوم حملها إلى حضن زهرة ثمَّ قام بجمع بعض العيدان وأشعل ناراً قد فعل الجميع مثله البرد قارص وهذا سيشكل خطراً على الأطفال، حلَّ المساء كانت حدة المواجهات ترتفع شيئاً فشيئاً، ستنخفض درجات الحرارة عند هبوط الليل قد خرج الناس على عجل دون أن يأخذوا معهم أي شيء لا غطاء ولا طعام،

وقف أحمد، كان المنظر شبيهاً بما بعد الزلزال سمع صوت طفلٍ رضيع كان لا يقف عن البكاء بحث بين الناس كانت أمهُ تحاول إسكاتهُ لكن لا تجيد وسائلها نفعاً معه

-ما بهِ؟

-إنهُ جائع يحتاج إلى الحليب
رفع أحمد رأسه وعلا بصوته كي يشد إصغاء الناس
-أريد عدداً من الشبان المتطوعين نريد العودة إلى الحي لجلب بعض الطعام و الأغطية هل من أحدٍ مستعدٍ للقيام بهذا العمل
أتى إليه بعض الشباب كان برفقته عدد من زملائهِ المسلحين وسيارة صغيرة للتجول ركب بجوار السائق، شعر ببرودة يدٍ قد وضِعتْ فوق يده قبل أن تمشي السيارة
-أريد الذهاب معك
-أنتِ مجنونة، تريدين تركَ رنيم وحدها
-يجب أن أطمأن على والدي
يضغطُ على يدها ويتمتم بهدوء
-سأطمأن عليه وأخبركِ لا تقلقي عودي إلى رنيم
انطلقت السيارة أصبحت الاشتباكات في أول الحي من جهة الجيش لم تُجد خطة عبد الحكيم نفعاً وزع أحمد الشباب المتطوعين لجلب الطعام والأغطية وجمعهم في السيارة بأي وسيلة من مخازن العناصر، من البيوت، من أيِّ مكان ما زال هناك بعض الناس في الحي بحث عن بقالية يمكنهُ الحصول فيها على حليبٍ للأطفال كان الجميع فارين من القصف وجد أحدهم كان في أبعد مكان عن المعارك كان يغلق متجره عندما وصل أحمد
-انتظر أريد علبة حليب أطفال

-ألفي ليرة
-ماذا؟؟
-بسرعة إذا كنت لا تريد سأغلق المتجر
غضب أحمد كان أحد التجار المستغلين رفع السلاح في وجهه
-أريد افتح الجرار وأعطني عُلبة
-سأشكوك لعبد الحكيم
-سأقتلك قبل ذلك أعطني علبة حليب وإلا قتلتك بسرعة
أخذ علبة الحليب ولم يعطه شيء.
في أقصى لحظات البؤس هنالك أناس يعملون على استغلالها كان هذا التاجر أحدهم. عاد إلى التلال برفقة الشباب قدم علبة الحليب إلى المرأة وطلب منها إطعام الطفل ساعده الشباب في تقديم الطعام و الأغطية للناس بالتساوي انتهى من ذلك أخذ غطاءين وبعض الطعام وذهب إلى حيثُ زهرة و رنيم
-هذه بعض الأغطية
-أرأيت أبي ؟
-نعم إنهُ برفقةِ ربيع في المستشفى الميداني هنالك الكثير من الجرحى ويحتاج للمساعدة
أومت برأسها إيجاباً، جلس بجوارها كانت صامتةً لا رغبة لها بالحديث
-أعتقد بأنكِ أقوى من ذلك؟!

-نعم لكن لا حاجة لي لإظهار قوتي أنا أشعر بالأمان بجواركَ يا أحمد
أصبحت الاشتباكات في الداخل شبيهةً بحرب الشوارع كلما سيطر الجيش على شارعٍ استعادهُ المسلحون بعد قليل ترك عبد الحكيم خط الجبهة قد طلب من بلال مرافقتهُ
-الدعم في طريقهِ إلينا عليك الذهاب لإحضاره حالاً
-كما أمرت
-حافظ على عودتك قبل الصباح لن تُسعِفنا الذخيرة التي بحوزتنا إلى ما بعد هذا الوقت يجب أن نعيد سيطرتنا على الحي يا بلال الطريق مفتوح إلى تركيا لقد كلمني شركائي بذلك انطلق
-عُلمْ
لماذا سيصل الدعم في هذا الوقت بالتحديد في ذات الوقت الذي استطاع فيه الجيش الدخول إلى الحي!!
أخذ بلال عدداً من عناصره وانطلق مسرعاً في الطريق الذي يؤدي إلى تركيا سيسقط الحي في أيدي الجيش إن لم يعودوا قبل الصباح بتقدير عبد الحكيم .
كان المستشفى الميداني يغصُ بالجرحى حتى أن أكثرهم يتم تطبيبهم وهم ملقون على الأرض ليس هنالك أسرّة تكفي للجميع توزع ربيع وياسين بين الجرحى، لا يكفيان وحدهما لتطبيب الجميع كان ربيع منهكاً في إخراج الرصاصة من قدم أحدهم

لقد أحدثت أضراراً في قدمه ويجب نزعها ومعرفة أضرارها نظر بجانبه فلم يجد أحد من المساعدين المتطوعين كانت الأصوات عالية بين الألم وطلب المساعدة

-مشرط أريدُ مشرطاً

مدت فتاةٌ يدها إليه أعطتهُ ما طلب، أخذهُ دون أن ينظر إليها تابع عملهُ بصمت حتى انتهى من تضميد الجرح وصل مصابٌ آخر، عجل إليه ربيع، وضعه المساعدون على الأرض بجوار الذي طببهُ ربيع قبل قليل نزع أزرار قميصه قد تعرض لشظية في أسفلِ خاصرتهِ وينزف بشدة

-لن تستطيع فعل شيء لهُ الشظية أصبحت داخل بطنه ويحتاج إلى غرفة عمليات

رفع رأسه لينظر إلى محدثه كانت تتكلم بما اعتقدْ حالةُ المصاب حرجة وليس هنالك أطباء غيره فكيف لأحدهم أن يعرف حجم الإصابة

-سلمى !!

غير أنه لم يقل لها ما شرد به لتوه، لثلاثين ثانية فقط سمح له العالم الذي يدور من حوله أن يتأمل وجهها ويشعر بنبض قلبه، كان طبيباً لكن ما شعر منذ أخر مرة رآها فيها أن قلبه ينبض !!

يكمل

- ماذا تفعلين هنا ؟

-سأخبرك فيما بعد عليك إيجاد حلٍ لإنقاذ حياة هذا الشاب يحتاج إلى غرفة عمليات وإلا سيموت
فقد المصاب وعيه
-لا أعلم هناك مصابٌ آخر في حالةٍ حرجة وليس لدي ما أفعلهُ لقد تعبت يا سلمى
-هل يمكن نقلهم إلى الحدود التركية يوجد العديد من المستشفيات هناك
صمت في تفكير نهض مسرعاً قد أتخذ قراراً لتوهِ
-جهزوا سيارة الإسعاف بسرعة سننقلهما إلى تركيا بسرعة
في غضون ثلاثِ دقائق كانت سيارة الإسعاف جاهزة ساعة ونصف وسيصلان إلى مستشفى يقع على الحدود السورية التركية، فتح الباب الخلفي لسيارة الإسعاف وضع المصابين فيها ركب ربيع معهما كي يحافظ على بقائهما على قيد الحياة ريثما يصلوا، قبل أن يُغلق باب سيارة الإسعاف تندفع سلمى وتجلس بجواره
-لكن !
-ستحتاج لمساعدتي قل للسائق أن ينطلق، لقد وصل العديد من الأطباء وسيتكفلون بأمر الجرحى
يومي برأسه بالإيجاب
-انطلق !
قد وصل إلى الحي عدد من الأطباء المتطوعين يمكن لربيع الذهاب

إلى تركيا مطمئناً كانت من بينهم سلمى

***

-عاودي النوم يا حبيبتي

-أريد الاطمئنان على وردتي كان يجب عليَّ سقايتها اليوم وإلا ستذبل

يعاود أحمد تغطية رنيم بعد أن كشفت الغطاء عن نفسها

-سنذهب في الصباح وسنسقيها سويةً أعدكِ بذلك نامي الآن

تنحني إلى ركبته وتغمض عينيها هذا جُلَّ ما يهمها !

***

خرجت الممرضة من غرفة العمليات هرع ربيع مسرعاً إليها

-كيف حالهما ؟

-بخير، يحتاجان إلى راحةٍ طويلة قد نزفا الكثير من الدم سيبقيان تحت المراقبة في الأيام القادمة

-شكراً لكِ

تنهد مرتاحاً كم كان عصياً عليه أن يتركهما يموتان في مستشفى ميداني أمام عينه وهو لا يستطيع فعل شيء، خرج من مبنى المستشفى، أصبح في الحديقة الخارجية، انتبه لجلوس سلمى على أحد مقاعد المنتظرين، جلس بجوارها دون أن يُكلمها كان منظر الأحياء التركية الحدودية مع سورية بديعاً، كانت السماء زرقاء

تميل في الأفق البعيد إلى تدرج اللون الأحمر، إنه وقتُ الغروب
اقتربت سلمى منه أكثر
-كم تمنيت أن آتي برفقتكَ إلى هذا المكان بغير ما نحن عليه أن نزور جامع السلطان أحمد وجزيرة الطيور ثمَّ كيف أتينا إلى هذا المكان ؟!
-أنا أعلم كيف أتيتُ إلى هذا المكان، لكن أنتِ كيف أتيتِ ؟
أخذت برهة لتجيب
- نعم، لقد الّتحقتُ بصوف الرفاق من أجلك، قد فضلتُ حمل عبء الحرب على الانتظار، أتعرف ما هو الانتظار يا ربيع؟ هو أن تكون أنت الوقت دون معرفة ما قد يحدث! هل كُنت تعتقد أن كلَّ شيءٍ سيرحل مع الحرب؟ سترحل كلُ تلك الدماء والدموع و الأوقات التي تتغذى على أرواحنا؟ إنها تشبه الانتظار من لحظة صفير القذيفة إلى لحظة وقوعها ولكن لسنتين متواصلتين
- كم كان الوقت بطيئاً إذاً
-ذلك العائق الذي كان بيننا لم يكن مجرّد حرب !!
كان يصغي، كم كانت صادقة حين قالت ذلك، ينتفض دفعةً واحدة بعد أن أحكم قبضة يده على يد سلمى، كان قاسياً !!
- أتتزوجيني ؟؟
دُهشت لما يقوله لم تستوعب ما قالهُ لتوه أعاد الكرة
-نعم أتتزوجيني بدون كلّ ما وصفناه من خطط في يومٍ ما ما

تمنياه تحقق، نحن الآن معاً وفي تركيا
-أقبل !
أخبرتهُ بأنها عدلت عن قناعاتها وجاءت لمساعدة الجرحى وصادفتهُ في حي الكحل الأسود
اقتنع بكلامها كان يحبها قبل كل ذلك! لم يخطط أبداً للزواج منها في تركيا بهذه الطريقة كُلُّ الذي رتباه عبر السنين التي أحبا بضعهما فيها لم يحدث، والذي حدث كان نصف حلم !!

***

فجراً، وصل بلال إلى الحي ومعهُ كميةٌ كبيرةٌ من الذخائر الثقيلة والخفيفة بأنواعها قد تعرض لهجومٍ غير متوقع أثناء عودته وفقد أحد العناصر هذا لم يكن مهماً بالنسبة لهُ كان أمراً عرضياً
أمر عبد الحكيم المسلحين بالتسلل إلى منطقة الاشتباك الأولى، إلى الأراضي الزراعية التي تفصل بين حي الكحل الأسود وحي اليشوع ليفصل الجيش المتقدم إلى الحي عن الجيش الذي استقرَّ هناك، نجح في ذلك، عاد الجيش أدراجهُ عبر الأراضي الزراعية إلى حي اليشوع وقد اعتُقِلَ المتقدمون منه داخل شوارع الكحل الأسود كانوا ضابطاً برتبة مقدم وهو يحيى وعشرون مجنداً آخرين عاد الحي لسيطرة عبد الحكيم بأكمله بدأ النازحون بالعودة إلى بيوتهم تدريجياً رافق أحمد زهرة و رنيم إلى البيت ما لبثت رنيم أن تصل حتى ركضت مسرعةً لتتفقد وردتها كانت قبل يوم

ترغب في سقايتها قد ملأت لها قدراً من الماء في ذات الوقت الذي بدأ القصف على الحي وخرجتا برفقة أحمد على عجل، نظرت تستكشف أمر وردتها فوجدت التربة رطبة وقِدرُ الماء فارغ !
-أنظر يا أحمد لقد شربتْ وحدها !
علم بوصول المسلحين إلى هذه المنطقة قبل ليلة، إنهُ أحدهم قد سقى الوردة ثناء محاولته استكشاف الحي قد دخل إلى البيت قاصداً الصعود إلى السطح، إنهُ المقدم يحيى، شرد أحمد بعيداً عن براءة رنيم في تحليل ما حصل، كانت الحرب تنتقلُ إلى داخله هل يعقل أن يحمل أحدهم علي عاتقهِ حياة وردة وحياته تتعرض للخطر، ومن الجيش أيضاً، لم يُصدق، كانت زهرة تتابعه بترقب أكملت ما قد بدأ بمعرفته
-لم يحركوا شيئاً من البيت كل الأغراض في أماكنها
قد أكتشف للتو أنهُ ليس الوحيد المظلوم في هذه الحرب، جلس على عتبةِ باب البيت رمى سلاحهُ جانباً انحنى برأسهِ إلى الأرض، إنهُ الصراع بين خيره وشره، لقد قتل أبا الوفا والآن بعد كل الكره الذي كنه لهم بسبب حسن المدني تُقدِمُ لأيام له اعتذارات لطيفة من أحدهم
-كانت مجرّد أعمال فردية يا أحمد، وما تزال
-أنا مخدوع يا زهرة، قتلتُ أحد الأبرياء وربما العديد منهم وما زال المجرم الذي يجب قتلهُ يعيشُ على هواه !

يجب أن يُكلم عروبة ويقابلها لن يدعها بين أيدي حسن مدني، رفع رأسه لتقع عيناه بيعيني زهرة وجد نفسهُ في عتمتها رجلاً صامداً، حمل سلاحهُ ورحل على عجل يجب أن يرتب موعداً مع عروبة!

***

واجهت صفية نفسها على المرآة مجدداً لا يمكن أن تستسلم لما فعلته وضعت سكيناً في حقيبتها كان لها حقٌ عند الحاج فكرت ويجب استرجاعهُ

دخلت إلى غرفة أطفالها قبلت طفليها ثم طلبت من سارة الاعتناء بهما

-سأعود في غضون ساعتين يا عزيزتي أعتمدُ عليكِ أنتِ سيدة المنزل

خلع الحاج فكرت قميصه واستلقى على سريره كان قد أرسل في طلبها واستجابت لذلك برغبةٍ كبيرة ظن بأنها تغيرت وأصبحت منصاعةً لهُ، وصلت كان مستلقياً على بطنه

-اشتقتُ إليكِ كثيراً يا صفية لو تعلمين كم أرتاح عند رؤيتك بجانبي

اقتربت منه مبتسمة ما تسنى له كشفُ الشر الذي في عينيها، مسحت بيدها على ظهره، ثمَّ بدأت بتدليكه

-لن أتركك للناس بعد الآن أنتِ لي وحدي أحبك يا صفية !

لم تنطق بكلمة رفعت السكين بهدوءكأنها تتلذذ بتلك اللحظات، كان مغمض العينين يحاول الاسترخاء غرزتها في عموده الفقري، عادت ورفعتها وطعنته مجدداً لم تبكِ وهي تقتلهُ لا من منظر الدم أيضاً كان ما فعلهُ الحاج كفيلاً بتنمية حقدها فقط غرزت السكين مجدداً لم يتحرك، تلطخت يداها بالدماء، كان يلفظ أنفاسه الأخيرة اقتربت من أذنه لتهمس، كانت تريد قول شيء له قبل أن يرحل، همست وهي تمرر السكين على وجهه

-التخلي صعب جداً يا فكرت ثمنهُ باهظ، لو كنت تعلم أن ذلك سيكلفك حياتك القذرة !

غسلت يديها والسكين بهدوء ثم أعادت السكين إلى حقيبتها، لم تشعر بالذنب لقد قتلته !!

كانت تنظر إلى نفسها في مرآة المغسلة برضى، عاودت الدخول إلى غرفته أجهزت على ما تبقى له من مال بعد أن سُرِق حسابه في البنك، وضعت المال في الحقيبة ثمَّ خرجت من الباب كأنها لم تفعل شيء !

هكذا ارتاحت أكثر كان من الصعب أن تعيش مع هذا الذنب طوال ما تبقى لها من عمر، لكن لم ينتهِ الأمر بعد . . !

***

فصل الخراب الأخير:

سأل ياسين جميع العناصر الذين كانوا برفقة بلال أثناء جلب

الدعم كان علي أحدهم .
-لقد كانت الظلمة تعرضنا لهجوم ما عرفنا مصدره كان علي بجانبي أصابتهُ إحدى الرصاصات فوقع من السيارة لم نستطع العودة إليه كان يجب علينا الوصول بالدعم إلى الحي قبل الصُبح
-هل تركتموه وحده ؟!
-سنموت جميعاً وتموتون أنتم أيضاً لو عدنا لإنقاذه !
قال العنصر الآخر كان يقف مع ياسين والأول
-لقد مات لا يعقل أن يبقى على قيد الحياة سيأتون لقتله بعد رحيلنا
قلّب ياسين النظر بينهما ما بدا حزيناً على فقده استمرَّ بالمشي حتّى وصل إلى شجرة البلوط، كان علي صديق الطفولة الأولى، جلس تحت الشجرة قد أمضى ليلةً كاملةً في مساعدة الأطباء في المستشفى الميداني ليلقى خبراً كهذا في الصباح كم كان حريصاً على حياته بجانبه ضاقت أنفاسه
-آآه
كان يحاكِمُ ما حدث مع علي في عقله، نظر إلى السماء داعياً
-رحمك الله يا علي . .
في أيِّ لحظةٍ في الحرب يمكن أن تتعرض للخسارة، قد توفي أبو زهرة أثناء نشلهِ لأحدِ الجرحى من خطِّ المعركة إنهُ السيلُ الكبير من الدم . .

لم تعد عروبة تكترث لشيء طلبت من حسن زيارة أهلها في حي تشرين الأول مانع ذلك في البداية لتردي الأوضاع الأمنية بالقرب من الحي لم تأبه لرفضه لا يعود إلى المنزل إلا بعد منتصف الليل أخذت سيارة أجرة من أمام بيت حسن في حي الضباط واتجهت إلى حي تشرين الأول، لم تكن راغبةً في زيارة أهلها لقد اتفقت مع أحمد لرؤيته، كان ينتظرها في منطقة التلال، عليها الركوب مع أحد الشبان الذي أرسلهم أحمد إلى أول حي تشرين الأول وهو سيتكفل بنقلها إلى حيث أحمد، إنهُ اللقاء . .

وقفت أمام أحمد متأملة لم تفهم ما يمليه عليها قبلها تودُّ أن تنهال عليهِ ضرباً، تود أن ترمي نفسها في صدره تودُّ أن تصفعهُ أو تطمأن على صحتهِ بعد خروجه مصاباً من بيت حسن كان تنتظر اتصاله قد تأخر بينما تماثل للشفاء، كانت تجرُّ كرسي أمه المقعدة نفس المشهد الذي تخيله في يومٍ من الأيام لكن أمه قد ماتت تقدم إليها ثمَّ انحنى أمام الكرسي كان يتحسسهُ برفق

-أمي لن أسامح أبداً أعدكِ بذلك

-تغيرتّ عليَّ كثيراً يا أحمد

-أنا من يحق له قول ذلك كُلُّ ما يهمكِ أن تهربي مني، فقط أن تبتعدي عني

-لا قد استوطنت قلبي لم يدخلهُ أحدٌ غيرك لا تدع لقسوة الحرب مكاناً في قلبك لقد أرسلت إليكَ ثلاث مرات وبادرت بالرفض وفي

يوم ما داهم حسن بيتنا توعد لأبي وللعائلة إن لم يتزوجني من أجل أن أحمي عائلتي يا أحمد ليتني كنت على هامش حياتك !
تقترب منه وهي تفتح الرسالة السادسة لم يفصل بينهم سوى نصف مترٍ وحرب !!
تقرأها على مسامعه :
-حبيبي أعدك ألا أكون إلا لك وأن أحارب معك مهما طالت الحرب ومهما كانت مريرة كُلُّ عامٍ وأنت بخير.
تطوي الرسالة ثم تتحدث :
-أرسلتها برفقة سعاد كانت تقولُ لي دائماً بأنك ترفض عودتي إليك ماذا تظن مني أن أفعل وأنتَ تقول لي ابتعدي عني ؟!
-لم يصلني شيء كنت كل يوم أراكِ قبل أن أنام لم أتخيل يوماً أنك تخليتِ عني لم أستطع تصديق ذلك ربّما أنا شابٌ غير جيد أناني كلُّ ما أملكهُ هو لي وحدي بما فيهم قلبي مهمل ليس لدي شيءٌ يساوي الكثير بما فيهم حياتي ضعيف لم أفكر أبداً بالتضحية من أجل أحد حتى أنتِ، مزاجي سيء أتغير بسرعةٍ بين لحظةٍ وأخرى
-لما لم تقل ذلك منذ البداية ؟!
صرخَ في وجهها قد أمسكها من يديها بدون وعيه
-لأني كنتُ أحبكِ . .
يفلتُ يديها عندما يعود إلى وعيه ويكمل بهدوء :
-وما زالت حياتي ليست لي بغير وجودكِ يا عروبة

تفتح يده وتضع الرسالة السادسة في كفهِ وتغلقهُ
-لا أريد خسارتك مجدداً
-يجب أن أنال من حسن يا عروبة هو من أوصلني إلى هذا المكان قتل أمي وسرقكِ مني كُلُّ هذا الخراب من تدبيره
-لستَ وحدكَ من يريد ذلك سأحاول استدراجهُ إلى حي تشرين الأول والباقي عليك أيها المحارب
-أنا قتلتُ رجلاً طيباً يا عروبة قتلتُ أبا الوفا كنتُ سلعةً رخيصةً بين يدي عبد الحكيم أريد أن أتكأ على كتفكِ وأخبركِ بكلِّ ما أصابني زهرة تتودد لي إني أرى حُبها لي في عينيها يجب أن تعرفي كلَّ ما حصل معي في أيام فراقنا
كان يعترف لقلبه وليس لها لم يتحدث !!
أخذ نفساً عميقاً لو استطاع أن يفعل ما يمليه قلبه عليه ردَّ عليها
-كوني حذرةً يا عروبة . . يا حبيبتي
أمر العنصر بإعادتها إلى أول حي تشرين الأول لقد رحلت كانت تفكر في الشيء الذي جعل سعاد تمتنع من إيصال الرسالة إلى أحمد قد كذبت عليها طلبت من السائق الوقوف وقفت السيارة في أول الشارع الثاني، قصدت بيت سعاد كانت تريد معرفة ما خفي عنها أحمد لا يكذب عليها طوال الفترة التي افترقا فيها لم يصلهُ شيءٌ منها !
فتحت سعاد الباب مسرورةً لقدوم عروبة لم يظهر السرور من

جانب عروبة للقائها كانت تنتظر الدخول إلى بهو المنزل لتبدأ الحديث

-لما لم تقومي بإيصال الرسالةِ إلى أحمد كما طلبتُ منكِ ؟

-لأني أريد مصلحتكِ

-ولما كذبت عليَّ وقلتي بأنهُ لا يريدني أيضاً؟ ما الذي تخفيه يا سعاد؟ هل كُنتِ راضيةً من زواجي من حسن؟ هل هذه هي مصلحتي التي تريدينها ؟

-أنا أحب أحمد أكثر منكِ!! أنا من شجعتكِ على تركهِ وشجعتكِ على الزواج من محمود وقد أرسلت لأحمد عبر أخي بأنكِ لا تريده كان ذلك في يومِ زفافكِ من محمود قد تخليتِ عنه لمجرّد الكلام يا عروبة أنا أحبهُ أكثر منكِ لماذا سأقوم بإيصال الرسالة وكنت طوال الوقت أحاول إبقائكِ بعيدةً عنهُ؟؟ أنتِ لا تحبينه بالقدر الذي أحبهِ أنا

صفعتها سقطت من عيني عروبة دمعتان على الفور بصقت عليها

-ثمَّ أعرف أن كُلَّ ما تعرضت لهُ من بؤسٍ بفضلِ صديقتي يا لسخرية الحياة! لو أنني لم أعرف! أين كنتِ تخبئين هذا الخبث يا سعاد ؟! أين؟؟! كُنتِ صادقةً طوال الوقت !

ضحكت في استهزاء

-لأنكِ ضعيفة ما كنتُ لأنجح في ذلك لو لم تكوني ضعيفة

-لا أصدق الحياة أبشع مما توقعت بكثير

بنظرة حمراء أنهت هذه الصداقة الطويلة تحركت عروبة نحو الباب قد خرجت سعاد من قلبها، كانت تشك أن هناك خطب ما في إيصال رسالتها لكنها لم تتوقع هذا الفعل القبيح من صديقة عمرها

لم تستطع سعاد أن تضمِرَ حبّ أحمد في قلبها أكثر من ذلك أدلت باعترافها رغماً عنها كانت تفعل كلَّ ما يمكنها فعلهُ لتبعد عروبة عن أحمد، ثم تلقي كلَّ شيء على مسامع عروبة دفعةً واحدة، مات الشر الذي ملأ عينيها أثناء اعترافها لعروبة، استندت إلى الحائط كانت تتساقط شيئاً فشيئاً، كانت تشعر بالهزيمة فقط!

لم يكن في قلبها لعروبة إلا الحُب لكنها فضلت حبها لأحمد ماذا عساها أن تفعل حاولت كثيراً التخلص منه لكن لا جدوى من ذلك كانت تُفتن به أكثر مع مرور الوقت !

كل الخراب الذي صنعتهُ بين أحمد وعروبة كان خارجاً عن إرادتها غيرةُ الأنثى في الحفاظ على من تحب !

***

-أخلعوا الكيس عن وجهه

أومى أبو الهدى بيده أمام كمال كان الثاني ينتظر عيناه حتّى تأخذان كمية الضوء المناسبة ليستطيع رؤية من حوله

-أهلاً بك يا صديقي مرّ زمنٌ طويل على لقائنا الأخير !

-أبو الهدى !
-نعم و أنتَ الآن في ضيافتي
تلفت كمال حوله لم يكن يعلم أن هذه مزرعة حسن المدني، ابتسم أبو الهدى وهو يقول :
-إنهُ مكانٌ جميل أليس كذلك ؟
انتفضَ أبو الهدى إليه أمسكهُ من شعره كلمهُ بنفس اللهجة الدنيئة التي شعر بها يوم كان هو تحت رحمتهِ
-يجب عليَّ أن أحسن ضيافتك
كان قد طلب من طبلة تحضير بعض الأغراض طلب منه تجهيز غازٍ متنقلٍ مع صفيح حديد يستعمل لخبز الصاج، أومى برأسه لطبلة فأشعل الغاز ثمَّ وضع فوقه صفيح الحديد
-أجلسوه فوقه وثبتوه بقوة !
كان أبو الهدى يجلس على كرسيٍ يقابل كمال وقف شبّكَ يديه كان يتكلم باستفزاز قد انتحل شخصية كمال في يوم ما !
-الألم هو الذي يطالبك الشعور به هذا ما علمتني إياه ويجب أن تشعر بما شعرتُ به يوماً ما مهما حدثتكَ عن حجم الألم لن يطالبك الكلام الشعور به
بدأ الصفيح يسخن شيئاً فشيئاً .
-أرجوكَ يا أبا الهدى
-أيها النذل كن رجلاً في جميع الأوقات، لماذا لا تستطيع تحمل

نتائج أفعالك؟
يلتفت إلى رجاله :
-أرفعوا الحرارة أكثر
تنهد أبو الهدى في سعادة بعد أن أدار وجهه إلى كمال
-إحدى عشر سنة وأنا أخطط لهذه اللحظة لن أسمح لها بأن تمضي بسرعة يا كمال لقد أجبرت أمي وأختي على الرقص وجئت إليَّ لتريني مقطع الفيديو الذي سجلته كلما أتذكر تلك اللحظة أحتارُ كيف سأعذبك جعلتني أعيشُ في ظلامِ أفكاري إحدى عشرة سنة، والآن جهزت لكَ مفاجئة صغيرة، لم أجلب زوجتك وأختك لترقصا على إحدى الأغاني الشعبية، بل أنا سأعزف لهما بنفسي وستتمتع فرقتي الموسيقية بوصلة راقصة من حقهم ملأُ عيونهم!!
-لا تفعلها يا أبا الهدى
-وبالمناسبة قبل أن أنسى، ستكتفي أنت بالمشاهدة ! غيتار
-نعم معلم
-أجلب زوجتهُ وأختهُ من الغرفة
-حاضر
يأتي بهما يعلو صوت كمال كان الصفيح حاراً جداً تولى بوق وكمنجة أمر ضبطه فوق الصفيح بدأ بالصراخ والبكاء
-لا، أرجوك، اقتلني ولا تفعلها
-اهدأ الحفلة لم تبدأ بعد يجب أن يكون الجمهور مهذباً يا كمال

يأتي بوق بآلة الغيتار الخاصةِ بأبي الهدى بدأ أبا الهدى بالدندنة عليه كان يعزفُ لحناً راقصاً

-هيّا هيّا ارقصا وإلا قتلتكما معهُ .

كان انتقاماً خادشاً للحياة بدأتا بالرقص وتناغم ذلك مع لحن أبي الهدى وتصفيق الفرقة الموسيقية، أغمض كمال عينيه كي لا يرَ شيئاً ضربهُ بوق على وجهه كي يفتحهما لم يفتح عينيه أمر أبو الهدى الجميع بالتوقف

-أحملوه إلى الكرسي

اقترب أبو الهدى منهُ كان يبكي همسَ في أذنهُ، كان لا يريدُ من أحدٍ سماع ما يقوله لكمال

-أقسم أني خططتُ لحشر زوجتكَ وأختكَ مع هؤلاء الذئاب في نفس الغرفة حتى الصباح، لكن أريدك أنتَ فقط !

رفع صوتهُ بعد أن اتجهَ برأسه صوبَ كمنجة

-كمنجة

-حاضر معلم

-غطي رؤوس النساء بالأكياس وعد بهما إلى المدينة

يفعل كمنجة ما أُمِرَ به لم يضربه أمامهما قد أصبحا في الخارج، انهال أبو الهدى على كمال ضرباً قد أدماه، عدا من الحرق الذي تسبب لهُ من حرارة الصفيح، اكتفى بضربه إلى هذا الحد

-اسمعوا جميعاً لا أريد من هذا الرجل أن يموت اجلبوا له طبيباً

ليعالجهُ أريد تعذيبهُ عندما يحلو لي يجب أن يبقى حيّاً !
-حاضر معلم
قذفهُ بقدمهِ ثمَّ أخذَ كأساً من النبيذ وسفكهُ فوق وجهه الممتلئ بالجروح
-لن أقتلك يا كمال !
وجهَ نظرهُ إلى غيتار
-من الآن ستتولى أمر حمايته من اليوم هذه مهمتك فقط، تجلبُ لهُ كل ما يحتاجهُ من الطعام الشراب والدواء أريده حياً عندما أطلبه أنت مُعفى من الخروج معنا إلى العمل من هذه الليلة هذا هو عملك أسمعت ؟
-سمعت يا معلم
أرسلَ عبد الحكيم خلف بلال، كان يودُّ إطلاعهُ على بعض خصوصيات العمل، قد شعرَ مؤخراً بكفاءتهِ أثناء القيام بالعمل الموكل إليه، بفضل بلال استعاد عبد الحكيم الحي بين ليلةٍ وضحاها
-ستتولى أمور الحي ريثما أعود يا بلال، سأدخل المدينة!!
-عُلِم، ولكن دخول المدينة قد يعرضكَ للخطر
-لا يجب أن أتوانى عن العمل، هنالك أمرٌ ضروري يلزم القيام به وفي وقتهِ، سأطلعك على أمرٍ هام
-كلي آذان صاغية ؟

-الأسرى، أعدمهم جميعهم عندما أكون في المدينة
لم يدخل بلال إلى غرفة الأسرى ليكتشف وجوده أخيه بينهم، كان فقط يأخذ الأوامر من عبد الحكيم دون التجهز لتبعيات ذلك
-حاضر
-احرص على فعل ذلك عندما أكون في المدينة قُم بإعدامهم، لا أستطيع إعلامك بالمزيد !
-سأقوم بواجبي، كُن مطمئناً
-حان وقت رحيلي، بلال ما قلتهُ لكَ في الصباح سيتحقق إذا نفذنا التعليمات بنجاح !
-حاضر يا سيدي
ركب عبد الحكيم سيارةً و رحل، قد رحل وحده، دون أن يأخذ قوةً تُذكر! قد اختار أربعة عناصر من عناصره الأقوياء وأخذ طريق التلال
تعجبَ الجميع من ذهاب عبد الحكيم إلى المدينة، كان معروفاً لدى رجال الأمن جميعهم وباتَ مطلوباً في أول اللائحة بين جميع المطلوبين
علِم أحمد بوفاة أبي زهرة، قد ألقى على عاتقهِ مهمة الاعتناء بزهرة و رنيم، كان كلَّ يومٍ يذهب إلى بيته ويطمئن عليهم ويلبي حاجتهما
بعد مساء ذلك اليوم، طرق أحمد الباب، في العادة لا تتأخر زهرة

في فتحهِ، تأخرت قليلاً قد تغيرت كثيراً بعد وفاةِ والدها، كانت ترتدي الثوب الأسود بشكل دائم وتخلت عن روح الدعابة أما رنيم كانت تسقي الوردة باستمرار! أخبرها أحمد بأن والدها سيعود في يوم ما لذا عليها الاعتناء بالوردة لتقدمها لهُ عند عودته، فتحت زهرة الباب، كانت تنفث الدخان من فمها، لم يدخل

-كيف حالكِ ؟

أومت برأسها

-من الجيد أنني أستطيع رؤيتكَ قبل رحيلي

-إلى أين ؟

-سوف أعود إلى حماه، اتصلت بي خالتي ودعتني للعودة إليها، سآخذ رنيم وأرحل، ربما أكمل دراستي في الجامعة، لا أعلم

-و كيف قررتِ ذلك ؟

-لم يبقَ لي أحد في هذا المكان

-وأنا ؟

تبسمت وقد أمسكت بيده وهي تتحسسها، تنهدت قبل أن تتحدث

-أنت ألطفُ رجلٍ عرفتهُ بعد أبي

-كوني بخير، ربّما أَراكِ في وقت لاحق !

سحب يده وهمّ بالذهاب، مدت رأسها لتخطف النظرات إليه، لم يلتفت، كان يخشى أن يلتفت، ربما يجب أن تبقى زهرة بعيدةً

عنه، قد اقتربت كثيراً منه
اتجه نحو المستشفى الميداني، شاهد تجمعاً أمام بابها، قد عاد ربيع وزوجته سلمى ومعهما المصابين وهما بصحة جيدة، لم يبدُ الأمر هكذا، كان التجمع يوحي ببعض التوتر، ركض ليكتشف الأمر، كان بلال يلقي التعليمات على بعض العناصر برفقة ربيع وسلمى
-اسمعوا جيداً، لن يسمح الجيش بمكوث عبد الحكيم في المستشفى حتى الغد، يجب عليكم إخراجهُ الليلة و إلا سنفقده للأبد، ربيع ستذهب أنت وسلمى لحفظ سلامته في طريق العودة، جهزوا أنفسكم في الحال
أصيب عبد الحكيم وهو الآن برفقة عناصره في إحدى مستشفيات المدينة، هكذا قال بلال.
لم يعلم أحدهم ما لذي دفعه للذهاب، لكن بلال لن يتركهُ للجيش
اقترب أحمد من جموع الناس كي يتمكن ربيع من رؤيته، رآه ربيع أخيراً، فتح يديه ليستقبل عناقاً من أحمد
-اشتقت لك، تبدو في صحةٍ جيدة
يتمتم أحمد وهو يعانق أخيه :
-ليس عليك الذهاب يا ربيع، لا تذهب إلى المدينة
ابتعد أحمد عن ربيع، وأكمل كلامه وهو يهزُّه من كتفه، كأنهُ

ينبهه من حدوث خطبٍ ما
-عبد الحكيم ليس صادقاً، يجب أن تعلم ما أخبرني به أبو زهرة
-لقد أنقذنا هذا الرجل في يومٍ من الأيام، أنسيت ذلك؟ أريد إعادة الصنيع له، لن أقف مكتوف الأيدي وهو بين أيديهم !!
-اسمعني يا ربيع أرجوك، لن يخرج أحدٌ من المدينة على قيد الحياة، الجيش يحكم السيطرة عليها، لقد دخلت إلى المدينة وعرفت ما يحدث هناك !
-إذا نسيت المعروف فلا تذهب أنتَ وعناصرك !!
-الأمر لا يتعلق بهذا الشأن، أريد حمايتك، فقط لا تذهب أنت أيضاً، الأمر أكبر من ذلك، اسمع مني يا صديقي
تقترب سلمى لتشارك الحديث الذي بينهما، بدا مشغولين جداً
-أرجوكِ دكتورة، أريد أن أكلم صديقي وحدنا
-إنها زوجتي يا أحمد، لقد تزوجنا في تركيا
-آه، مبارك لكما
اقترب أحمد ليتمتم في أذن ربيع، كان لا يرغب بسماع سلمى الحديث الذي يدور بينهما
-أبو الوفا بريء، من قتل الطفل هو عبد الحكيم، إنهُ يخدعنا !
-هل جننت، لا تقل ذلك أمام أحد حتى لا يقتلك
يضع أحمد يده على كتف ربيع
-اسمعني حتى أنتهي من حديثي أرجوك

دفع يد أحمد عن كتفه، قد رمقهُ بنظرةٍ عبوسة قبل أن يبتعد عن المكان، كان يردد
-أنا لا أسمع الترهات
تمتم أحمد في سرّهِ
-أرجو ألا تندم على قرارِكَ يا صديقي، أنا أعرف جيداً ما هي المدينة !
حيلتهم الوحيدة لدخول المدينة هي البطاقات الشخصية المزورة، خرجت قوة كبيرة من الحي، كان ربيع وسلمى في سيارة الإسعاف، عبروا التلال متوجهين إلى المدينة . .
مروا على حاجز الزنبق دون أن يكتشف أمرهم أحدهم، باتوا قريبين من المستشفى، هبط الجميع أمام الباب، أطبق الجيش عليهم بسرعة خاطفة، كان كميناًً!!
رفع المقدم أبو الفهد صوته
-يا دكتور، سلم نفسك وإلا ستموتون جميعاً في أماكنكم
كان أحمد محقاً لا أحد يستطيع الدخول والخروج إلى المدينة بسلام، إنها النهاية يا ربيع كرر أبو الفهد النداء، لم يستجب ربيع
-سأبدأ بالعد حتى عشرة، ستموتون قبل أن أصل إلى هذا الرقم !
يخرج ربيع من سيارة الإسعاف، يأمر جميع العناصر بوضع سلاحهم على الأرض
كان يقف ربيع على طرف الشارع وبجواره سلمى ويقابله أبو

الفهد في الطرف الآخر، اقترب عناصر الجيش الذين طوقوا سيارات المسلحين بحذر، أبعدو سلاحهم عنهم ثمَّ أوصدوا أيديهم بالأغلال انحنى أبو الفهد بجسده كما ينحني الموسيقيُّ للجمهور بعد انتهاء قطعته الموسيقية وتصفيقهم له، كان يشكر سلمى على قيامها بمهمتها على أكمل وجه !!

لم يفهم ربيع ما الذي يحدث حتّى تخلت سلمى عنه واتجهت للطرف الآخر من الشارع! أصبحت بجانب أبو الفهد، أتى إليه عناصر الجيش، أرغموه على الجثو أرضاً، ثم وصدوا يديه بالأغلال، كانت سلمى إحدى عملاء أبي الفهد!!

-الدكتور ربيع، الرجل الإنساني، الذي يقوم بمهامه على أكمل وجه وينقذ المسلحين من الموت كي يعودوا مجدداً لأرض المعركة أمامي، لا أصدق ذلك

لم يكترث ربيع لكلامه، هذه حياة المحارب، قد يموت في أيّ لحظة،كان ما يشغله ويؤلمه هي سلمى، هي زوجته، كيف يمكن لها أن تفعل ذلك؟!

-اعذرني يا ربيع، هذا عملي

ما استطاع سماعها كانت تحدثُ نفسها وتحاول إيصال ذلك عبر عينيها، كيف يمكن لها أن تفعل ذلك !!

-احملوه إلى السيارة

لقد تخلت عنهُ، أخبرت أبا الفهد بتخطيطهم للدخول إلى المدينة

لإخراج عبد الحكيم، كان أبو الفهد يريد التعرف على الدكتور ربيع، الجميع يتحدثون عنه في القسم، منذ تنظيمه للمظاهرات حتى مزاولتهِ لأعمال الطبابة في المستشفى الميداني

لم يصدق ربيع ما حدث، صرخ قبل أن يضعوه في السيارة :

-أيعقل أن تفعلي كل ذلك يا سلمى، لقد صدقتكِ في كل كلمة قلتيها !!

يسدد أحد العناصر لكمةً إلى بطنهِ ثم يرميه في سيارة الاعتقال، على الطرف الأخر

-يمكنكِ العودة إلى البيت الآن يا دكتورة، بلغي تحياتي للمقدم حسن

عاد العنصر الذي أرسلهُ أبو الفهد برفقة دورية لتفقد النزلاء في المستشفى فور بوح سلمى له بخطتهم لإنفاذ رجل يدعى عبد الحكيم

-لا يوجد رجل يدعى عبد الحكيم، لم يدخل إلى المستشفى اليوم أحدٌ مصابٌ بطلقٍ ناري يا سيدي، لقد فتشنا المستشفى غرفةً غرفة !!

كان أحمد صادقاً في ظنه بعبد الحكيم!!!

***

-لو خرجنا للعشاء في إحدى المطاعم يا عروبة، أليس أفضل من مفاجئتك ؟

-لا ليس أفضل أيها الضابط، وعليك توطيد علاقتكَ مع والدي كما وعدتني

-وأنا عندي وعدي، سأجلب سترتي ونتحرك في الحال

عملت عروبة على إرسال رسالة نصية إلى أحمد: سنصل في غضون نصف ساعة إلى الحي، تجهزْ، رجلٌ صامد

ركبت السيارة برفقة حسن الذي اتجه نحو حي تشرين الأول، كان الليل لطيفاً، منذ زواج حسن من عروبة لم يذهب إلى بيته الأول، لم يطمئن على بناته حتّى بمكالمةٍ واحدة، كان يقضي وقت فراغه مع عروبة في البيت، قد تحملته وأحسنت معاملتها له كي تصل إلى رضاه، تريد منه فقط الدخول معها إلى حي تشرين الأول، ولجت السيارة إلى الشارع الثاني، خرج أحمد برفقة ياسين مع بعض العناصر، كانا في وضعية الهجوم، صرخ أحمد :

-قف مكانك . . قف

تتوقف السيارة، يتحدث أحمد إليه، قد هدأ المكان

-ترجل من السيارة

يهبط حسن من السيارة ً كأن شيئاً لم يكن، يخلع أحمد الشماخ عن وجههِ

-اللقيط !

-ارمِ مسدسكَ أرضاً

يردُّ حسن عليه بنظرةٍ عبوسة، يقترب أحمد منه، يضع البندقية

بجوارِ أُذنه ويطلق رصاصةً في الهواء، قد سقط الفارغ بجوار جسده ليسمع صوته إثر اصطدامه في الأرض، الأمر ليس كما كان قبل سنة، عندما كان أحمد معتقلاً في السجن

- ارمه !

يرمي حسن مسدسه على الأرض، ثم يأمرهُ أحمد بالتحركِ نحو الخرابة، أحد عناصر أحمد قد جهز حبلاً وكرسي

-اجلس، هيا اجلس

ربط ياسين يدي حسن ببعضهما وبقي بجانبه، كان يصوب البندقية إلى رأسه

وقف عنصران بجوار السيارة يمنةً ويسرةً وآخرين في نهاية الشارع كي يمنعوا أيٍّ أحدٍ من الخروج من المنزل

-أنتَ من أوصلني لهذه المرتبة من الشر، أيها الوغد

-كُلٌ منا مسؤول عن أعماله، حسب مكانه في هذا المجتمع، أنتَ مجرّد لقيط وأنا ضابط كبيرو كلمتي مسموعة !

يتقدم إليه أحمد ويسدد لكمة على وجهه أمام ناظر عروبة

-لقد قتلت أمي، كيف تجرأ على ضرب امرأة مقعدة

-أعترف أني كنتُ سبباً في موتها ولكن يا احمد أريد أن أعترف لكَ بأمر آخر، أنا نادم على اليوم الذي كنت بهِ في منزلي ولم أقتلك! أيها المغفل لقد استطعتُ ملاحظة بقعة الدم التي خلفها جسدكَ القذر، لاشيء يخفى عليَّ يا عزيزي

قلّبَ نظره بينه وبين عروبة، واستطرد حديثه
-هل هذه المفاجئة يا عروبة ؟! كنتِ تحت المراقبة يا عزيزتي
يسقط أحد العنصرين اللذاين يقفان بجوار السيارة فور انتهاء حسن من قوله، يحرك أحمد رأسه للخلف، قد أمر حسن أبو الهدى بتتبع أثره، قد عَلِمَ عبر مراقبة نمرةِ هاتف عروبة ما ترتب له، أنتهز حسن الفرصة التي تشتت بها انتباه الجميع أثناء إطلاق بوق للرصاصة وقتل العنصر، وقف ودفع ياسين إلى الأرض، اندفع نحو أحمد يريد إيقاعه أرضاً لكنه انتبه له، كان الإمساك به سهلاً طالما هو موثوق اليدين، وضع البندقية في رأسه وقد أحكم إقفال رأس حسن بقبضة يده، كان حسن يريد إبعاد عروبة، تمكن من ركلها بقدمه فوقعت على الأرض، دار الاشتباك في الشارع، ضغط أحمد على رأس حسن كان يحدثه
-بلغ عناصرك بالعودة وإلا قتلتكَ يا حسن
-ستموتون جميعاً
قد ضيق أبو الهدى الخناق على عناصر أحمد، باتَ قريباً من الخرابة
صرخ ياسين، قد وقف بعد ضرب حسن له وذهب ليقاوم مع العناصر
-اتركهُ يا أحمد، علينا الرحيل حالاً وإلا سنموت
-لن اتركه

عاد ياسين إلى احمد وأمسكهُ من يده التي يغلقها على عنق حسن

-سنموت جميعاً إن لم تعطهم إياه

يصرخ أبو الهدى من أول الشارع الثاني، بعد أن أمر فرقته الموسيقية وبعض العناصر التي أرسلها حسن إليه

-اتركوا المقدم وشأنه وسوف ترحلون بسلام

ينبه ياسين صديقه أحمد بضيق الوقت

-هيا يا أحمد

-إنهم كاذبون يا ياسين

يدور الاشتباك مجدداً، بات أبو الهدى وبوق وكمنجة عند باب بيت محمود بجوار الخرابة تماماً، قد تراجع جميع عناصر أحمد إلى نهاية الشارع، سحب أحمد المقدم حسن إلى الخلف نحو الجهة التي يوجد بها عناصره، عندما ظهر أبو الهدى برفقة بوق وكمنجة، كان ياسين في قمةِ استعداده لإطلاق النار، غطى بالنار كي يمنح أحمد فرصة للتراجع، عاد أحمد ببطء إلى الخلف، كان حسن يمنعه من جرّه معه !

كانت عروبة مختبئةً خلف هيكل السيارة، شعرت بتوقف إطلاق النار في تلك اللحظة، حاولت عروبة اللحاق بياسين، قد أمسك بها بوق، كان يراقبها وينتظر أن تخرج، تصرخ بين يدي بوق، تريد تنبيه أحمد بأن خطتهما انتهت بالفشل

-اتركه يا أحمد اتركه، سيقتلك
لم يعد هنالك جدوى من إمساكه، تركهُ! بدأ عناصر أحمد بإطلاق الرصاص من آخر الشارع لتأمين وصول أحمد وياسين إليهما، قد أصبح حسن حراً مجدداً
فكَّ أبو الهدى وثاق حسن، فور تحرير يديه اتجه نحو عروبة و وجه صفعةً إلى وجهها
-أيتها الخائنة !!
كان حسن ومجموعة أبو الهدى ما يزالوا في الخرابة، وأحمد وياسين وباقي عناصر أحمد في نهاية الشارع الثاني بالقرب من التلال
أخذ مسدساً من بوق وصوب ضربةً بكعبهِ على رأسها، قد أغمي عليها، مازال أحمد بنهاية الشارع برفقة ياسين وعناصره، كان يستطيع سماع صوت حسن، يستجمع جشعه ويردد بصوتٍ عالٍ:
-أيها اللقيط، أما زلت تسمعني، هنالك معلومة طبية تقول بأن الرصاصة التي تقتلك لا تستطيع سماع صوتها، أنا سأبرهن خطأ هذه المعلومة، سأطلق الرصاصة التي ستقتلك وستسمع صوتها
فتح أحمد عينيه وصرخ في وجه ياسين
-سيقتل عروبة يا ياسين !!
يرفع حسن سلاحه إلى السماء ويطلق رصاصة ثم يردد
-لقد قتلتكما سوية، سلاماً لروحكِ يا عروبة واللقطاء لا رحمة

تنزل عليهم
جن جنون أحمد، لقم سلاحه وأراد العودة، أمسكهُ ياسين، كان يطوقهُ بيديهِ الاثنتين كي يمنعه من التقدم إلى الشارع، سيموت إذا تقدم خطوة واحدة، حسن يريد استدراجه فقط
خارت قوى أحمد، كان يردد وهو يسقط إلى الأرض قطعةً قطعة، إنهُ فرط القهر !!
-لقد قتلها يا ياسين !! قتلها !!
-حياتها لا تساوي ثمناً عندهُ كان يريد استدراجك عبر ذلك، علينا الرحيل حالاً
-لا لن أرحل
صرخ ياسين في وجهه، كان يضرب بقبضة يده على كتف أحمد حين تحدث
-استيقظ أيها المجنون، لقد ماتت عروبة علينا العودة حالاً
دفع ياسين بأحمد نحو التلال، لا طاقة له ليمانع ما يريده ياسين، عادوا جميعاً بخيبةٍ كبيرة، ركبوا سياراتهم المركونة في آخر الحي، اتجهوا إلى حي الكحل الأسود، مكانهم الآمن
لم يتكلم أحمد مع ياسين، اكتفى بالصمت، كان يتصور مشهد إطلاق حسن الرصاصة على عروبة !
كل ما يستطيع التفكير فيه أنه كيف سيستطيع العيش في عالم لم تعد عروبة فيه

انتهت الحرب! كانت عروبة حرّبه!!

***

وضع رحيم قدمه فوق جثّةِ غيتار ثمَّ مالَ بجسدهِ ليستند على ركبتهِ كان يتصل بمعتصم آغا كان مقيماً في تركيا بعد هروبهِ

-سيدي لقد عثرنا على شحنة المخدرات، قد راقبت ميس وهي من أوصلتني إلى الشحنة

-هل قتلتها ؟

-نعم، كانت برفقة رجلٍ في إحدى المزارع، لقد باعوا الكثير من المخدرات يا سيدي

-سأعمل على القدوم إليك غداً، احرص على إحكام سيطرتك

عندما خرج أبو الهدى لنجدة حسن –طلب غيتار عبر مكالمة هاتفيّة- من ميس القدوم إليه، لم تمانع، كان رحيم يتتبع خطواتها منذ رحيل معتصم الآغا من البلاد، لقد أمره بذلك

دخل بالسرّ إلى المزرعة برفقة عدد من رجاله، كان قتل غيتار وميس هيناً عليه، كان غيتار وحده، أبو الهدى كان في طريقه إلى المزرعة، عائداً من حي تشرين الأول !!

أغلق معتصم الآغا المكالمة، قطب حاجبيه ثمّ اقترب من النّافذة الزجاجيّة أمامه، كان يقيم في منتجعٍ كبيرٍ في تركيا

-قادمٌ إليكَ يا حسن !

***

وقفت سيارةٌ عسكريّة في أول الحي، قد رحل الجميع قبل قليل، هبط ممدوح من السيّارة قد حصل على إجازةٍ، طرق الباب، الجميع ينتظر وصوله

-افتحي الباب

طلب أبو ممدوح من أم رامز أن تفتح الباب، قد وقف مقابله، يريد أن يشاهد ردة فعل ابنه، كان لا يصدق أن تربيته ضاعت في ممدوح !!

فتحت أم رامز الباب، ذُهل ممدوح، كيف وصلتْ إلى هذا المكان! قد توقع حضناً دافئاً من أمه

-أتعرفها يا ممدوح ؟

يصمت، تندفع أم ممدوح إليه وتقبله، إنّه ولدها

-ابتعدي عنه، قلت ابتعدي

تمتثل لأمر أبو ممدوح

-أجبني فقط، أتعرفها ؟

-نعم، أعرفها، لقد اعتقلت أولادها ظلماً !!

يرفع أبو ممدوح مسدساً في وجه ابنه، قد أحضره من أجل هذا الغرض !

-لماذا فعلت ذلك، لقد ربيتكَ تربيةً صالحة، مرّغت وجهي بالتراب لم تفعل شيء، وقفت أمُّ ممدوح عاجزة، لم تصدق ما قد يفعله أبو ممدوح بولده، كان ينوي الإطلاق، رمت أم رامز نفسها أمام

ممدوح، كانت تصرخ :

-أرجوك، لا أريد أن تشعر أي أم في هذه البلاد بما شعرت به، لا تقتله، لديه أم!!!

زفر أبو ممدوح زفرةً طويلة، أغمض عينيه، كان يتّخذ قراراً، فتح عينيه مجدداً

-اخرج من منزلي ولا تعد أبداً، أنا غاضبٌ عليك، من لا خير فيه لوطنه لا خير فيه لأهله !

خرج، كانت أم ممدوح تتوسل لزوجها لكنّه منع دخوله إلى بيته، طلبت أمّ رامز ذلك، قالت بأنّها تسامحه، فقط ستأخذ الذهب وترحل، يمكنها العيش بثمنه بسلام، رفض ذلك أيضاً، لم يستطع تغير أو تصديق ما فعله ابنه ممدوح!!

دخلنا سباقاً نجهل نهايته وحتى دون أن نعرف شروط السباق، ما كنّا نستطيع التفكير به في تلك اللحظات هو كم ستكون الجائزة التي سيحصل عليها الجائز الأول !

بدأ السباق، في اللحظات الأولى كان الجميع متحمساً كان الجميع يشعرون بالتحدي والرغبة بالفوز، وصلنا إلى اليوم رقم مئة ولا شيء يظهر أمامنا كإشارة النهاية أو منصة الحضور المنتظرون نهاية السباق، هنا تتبدل النوايا، كانت رائحة النتن تنبعث من أفكار البعض، أحد المتسابقين كان لديه نزوةٌ عدوانيّة، نشر فكره بين النّاس وشكّلوا فريقاً ثمّ بدؤوا بالسطو على الفقراء وبدؤوا

باستعبادهم من أجل كسب المال
في بداية اليوم الخمس مئة أصبحنا فرقاً لنحمي أنفسَنا من أنفسِنا! قد أصابنا الجشع بحقٍّ عينيه وبأكبر صوره !!
ما رغبت به في ذلك الأوان، الخلاص فقط، كنت كلّما نظرت حولي وجدت قذارةً و دناسةً و شرور، كلُّ من حولي تحولوا إلى ذئاب كي لا يموتوا من الجوع! الكثير من الضعفاء الذين لم يرغبوا بقتل أحد ماتوا في هذه المرحلة وما زالوا يموتون. .
في مكانٍ ما، قرر بعض الفتية الذين لم يجدوا جدوى من هذا السباق السفرَ إلى بلادٍ بعيدة ثمّ تتالي الرحيل حتّى شمل النساء والأطفال، كنّا نسمع أخبار غرقهم في البحار البعيدة
ومع مرور الأيام كان كلّما يزداد الجوع يزداد الشبع، كلّما يزداد الفقر يزداد الغنى !!
الشيء الذي يضمن وصولنا إلى النهاية بسلام هي خريطة السباق، كانت تمتلكها أقوى فرقة حتّى خططت فرقة أخرى بالسطو عليها ليلاً، سرقوا من أملنا قطعةً، ثمّ تتالت الهجمات بين الفِرق، بين صدٍ وردٍ حتّى حصلت كلُّ فرقةٍ على قطعةٍ من الخريطة، الشيء المثير للسخرية أنّهم يعلمون جيداً أن الجزء وحده ليس له قيمة إلا إذا كان جزءاً من كلّ!
الآن نحنُ نرفض تجميع الخريطة وإصلاحها ما أمكن كي ننجوا من المجهول، هذا الأمر شأننا جميعاً، سينتهي هذا السباق قريباً

أو سننتهي جميعاً!!

***

ظهر تنظيم الدولة، سيطر على المناطق الغربيّة المحيطيّة بحي الكحل الأسود وتشرين الأول، كان أميرهم يلقي خطاباً على مسامع المجاهدين كما يزعمون بعضهم، دخل أحد الشباب الملتحيين، توقف الأمير عن الحديث، ردّ السلام فقط

-وعليكَ السلام

-أأستطيع تكليمك وحدك أيّها النعمان؟!!

-تكلم أيّها الشاب، لا حياء في العلم !

لم يعرفه حتّى الآن، غيّرت اللحية شكله، والوقت كان كفيلاً ببعض النسيان !

-الأمر يجب أن يبقى سراً بيني وبينك، له حرمته

يومي بيده للجميع بالخروج، قد فُتِشَ الشّاب قبل دخوله إلى النعمان ولا شيء بحوزته

-تكلم، لا أحد غيرنا

-سأقصُ عليك حادثة، و لكَ الحكم فيها

-تفضل

-لقد خططت أنا وثلاثة شباب لسرقة بنك، نجحنا في ذلك لكن فشلنا في الخروج من البلاد، عدنا إلى بيتِ أحدنا بينما نجد طريقاً نهرب منه إلى خارج البلاد، كان أكثرنا ذكاءً رجلٌ يدعى طارق!

أعطى منوماً لاثنين منا وأخذني في نزهة، كنتُ ذاهباً إلى حدفي لولا كشّاف السيارة الذي منعه من التصويب إلى بدقّة إلى صدري، أصابتني رصاصةٌ في كتفي وخابت ظنّه اثنتان، لم أمُت أيّها الشيخ النعمان

-من أنت ؟

-لم تتعرف علي، نعم معك حق بعد أن أصبحت شيخاً، أنا صفوان!

-كيف تجرؤ على القدوم إلى هذا المكان؟ أستطيع قتلكَ حالاً وبسهولة

-أتيتُ لأخذ حقيّ من المال وأرحل، هناك أناس في الخارج ينتظرون قلبي حتّى يتوقف وسيقومون على الفور بتحميل مقطع الفيديو الذي صورتكَ إيّاه في إحدى الملاهي الليليّة، أرجو ألّا تكون قد نسيت ماضيك القذر، أيّها الشيخ النعمان

***

وقف بلال نظراً إلى التلال، لم يأتِ أحد، لا عبد الحكيم ولا من ذهب لإنقاذه، كان الغضب يتحكم به شيئاً فشيئاً، ربما يكونوا قد ماتوا جميعاً أو اعتقلهم الجيش، لم يرد خبر من المدينة عمّا حصل، كان يريد فعل أمرٍ ما ليطفئ غضبه، اتجه إلى البيت الذي وضع فيه المقدم يحيى والعساكر، كان ينوي إعدامهم ليثأر لعبد الحكيم والآخرين !!

تقدم أحد الشباب إلى ياسين، كان يجلس وحيداً تحت الشجرة

الكبيرة
-أنت
-نعم
-لقد جاء أحدهم بالسيّارة وطلب مني إعطائك هذه الرسالة
-لم يقل لكَ من هو؟!
-اكتفى فقط بإعطائي إيّاها ثمّ استأذن، رأيته يقصد الطريق إلى تركيّا
فتح ياسين الرسالة، بدأ بالقراءة:
مرحباً يا صديقي، أنا متأكدٌ بأنّك تعتقد وفاتي وتتمنى لي الرحمة، لقد وقعت من السيارة أصابتني رصاصةٌ في بطني، هذا ما أخبركَ به من كان معي بالتأكيد
صرخ ياسين:
-إنّه حي، إنهُ على قيد الحياة!!

-يكمل القراءة بشغفٍ كبير:
قبل أن يصل إليّ أحدٌ من عناصر الجيش حملني فلّاحٌ من القرية إلى بيته، كان يسكن بالجوار، لم يستطع تقديم المساعدة اللازمة لي، إصابتي بالغة بعض الشيء، كان ممرضاً في فترةِ ما ولديه بعض الصداقات، اتّصل بالطبيب جورج ولم يتوانَ بتقديم المساعدة لي، قد اجتمعت جميع الطوائف في بيتٍ واحدٍ يا ياسين، كان ينقصنا

رجلٌ يهودي حتّى يحلّ الصلح بين الأديان !
بدأت أصحو بعد عدّة أيام من الحادثة، كانت صورة ولده معلّقة على الحائط أما سريري مباشرةً، تمنيت لو أني متُّ قبل ذلك، لقد أحسن معاملتي كأني ولده! سألته عن حال ابنه، قال لي بأنّه استشهد في إحدى المعارك ضدّ المسلحين، لم يتأسف أبداً من إقامتي في غرفة ابنه!! كم شعرت بالخجل يا صديقي، الإنسان هو الإنسان مهما كان دينه أو عرقه أو انتماؤه، مهما كان القانون الذي يحكمه أو العرق الذي يؤمن به بعيداً عن عرقك أو دينك أو معتقدك يبقى إنساناً مثلك، هذا ما علمني إيّاه ذلك الفلاح، قال تعالى في قرآننا الكريم ((ولقد كرّمنا بني آدم)) ولا أعرف ماذا يوجد في الإنجيل لكنّه قريبٌ جداً مما نزل في القرآن
بعد أن أصبحت قادراً على المشي والحركة قررت أن أترك حمل السلاح، سأخون ما قدمه لي ذلك الفلاح، سأخون ضميري إذا حملت السلاح مجدداً، سأخون قلبي وسأخون وطني، أنا الآن متوجهٌ إلى تركيّا ثمّ سأعبر البحر إلى اليونان، هناك يمكنني تقديم المساعدة للعابرين عبر البحر بحثاً عن الحياة، عُد إلى رشدك يا صديقي، قد قطعت وعداً لأبيكَ ولنفسكَ يجب عليك تنفيذه، الأحلام لا قيمة لها إن لم تتحقق يا ياسين!!

تبللت الورقة بدمع ياسين، كان يبكي بشهوةٍ بالغة، أنهى قراءة الرسالة ثمّ أجاب صديقه بصوتٍ متقطعٍ بالبكاء

-لا أستطيع يا علي، لا أستطيع!

***

كان أحمد يعيد تكرير المشهد الذي صنعه حول إطلاق حسن الرصاصة إلى عروبة، كان غارقاً في خياله، شعر بالفقد الكبير، طالما ملأت عليه حياته، حتّى إن لم تكن بجانبه، كان يعلم أنّ في هذا العالم فتاة تدعى عروبة، مدّ يده إلى القلادة المعلقة حول عنقه، تحسسها، كان يتأمل الأفق البعيد بعينين من التعب، يتمتم في ضيق

- كيف يمكن أن تموتي و أنتِ ما زلت حيّةً في قلبي يا عروبة !

تمت بحمد الله

مسار

للنشر و التوزيع

Massar publishing & Distribution

01020439639